

أبو فهد
محمود محمد شاكر

المدينة

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

تمفتح كل كتاب في فخر من جـ مع
فأقرأ الفهرس قبل كل شيء

الناشر

دار المدينة بجمدة

شارع الصحافة حي مشرفة

تليفون: ٧٨٨-٦٧٠٠ - فاكس: ٦٧١٣٤٢٤

مطبعة المديني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٨٩٧٨٥١

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويري

مكتبة الحانجي

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

رقم الإيداع : ٢٠٩٨ / ٨٧

مطبعة المكني
المؤسسة السودانية بـمشرو
٦٨ شارع البامية - القاهرة . ت : ٨٩٧٨٥١

أبو نصر
محمّد بن شاكراً

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ :

« أَلَا لَا يَمُنُّ رَجُلًا هَيَّيَّةَ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقِّي إِذَا عَلِمَهُ » (١)

الحمد لله حمداً يُبَلِّغُنِي رِضاهُ ، وإن كَانَ جَهْدُ الْحَمْدِ لَا يَفِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نِعَمِهِ . اللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ تَقْصِيرِي فِي حَمْدِكَ وَمَرْضَاتِكَ . اللَّهُمَّ إِنِّي فَقِيرٌ فَأَغْنِنِي ، وَضَعِيفٌ فَقَوِّنِي ، وَخَائِرٌ فَسُدِّدْنِي ، وَمَرِيضٌ فَاشْفِنِي ، وَجَاهِلٌ فَعَلِّمْنِي ، وَعَاصٍ مُذْنِبٌ فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَاةً أَزْدِلِفَ بِهَا إِلَى مَغْفِرَتِكَ ، وَسَلِّمْ عَلَيْهِ تَسْلِيمًا يَحْشُرُنِي فِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَيُدْخِلُنِي فِي شَفَاعَتِهِ يَوْمَ لَا شَفِيعَ إِلَّا بِإِذْنِكَ . وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى أَبَوَيْهِ الرُّسُولِينَ الْكَرِيمِينَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ، وَعَلَى سَائِرِ الْمُخْلِصِينَ مِنْ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ . رَبِّ آغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

...

كَلِمَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا ، إِلَى قَارِئِ كِتَابِي هَذَا : « الْمُتَنَبِّئُ »

لَكُنِّي تَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ

(١) هو من حديث أبي سعيد الخدري ، من خطبة خطبها رسول الله ﷺ ، رواها أحمد في المسند بطولها ٣ : ١٩ ، والترمذي في السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب ما جاء ما أخبر به النبي ﷺ بما هو كائن إلى يوم القيامة » ، ورواه مختصراً كما أثبتته أحمد في المسند ٣ : ٥ ، ٧١ ، وابن ماجه في السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

١ - أعلم أنّي قضيت عشر سنواتٍ من شبّاني ، في حيرةٍ زائفةٍ ، وضلالةٍ مُضنيّةٍ ، وشكوكٍ مُمرّقةٍ ، حتى خفّت على نفسي الهلاك ، وأنّ أخسر دُنْيائي وآخِرتي ، مُحْتَقِباً إنّما يَقْدَفُ بي في عَذَابِ الله بما جَنَيْتُ . فكان كلّ هَمّي يومئذٍ أن أَلْتَمِسَ بصيصاً أَهْتَدِي به إلى مَخْرَجٍ يُنْجِنِي من قَبْرِ هذه الظُّلُمات المُطْبِقة علىّ من كلّ جانبٍ . فمَنذُ كنت في السابعة عشرة من عمري سنة ١٩٢٦ ، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦ ، كنتُ منغمساً في غمارِ حياةٍ أدبيةٍ بدأتُ أحسُّ إحساساً مُبهماً متصاعداً أنّها حياةٌ فاسدةٌ من كلّ وجهٍ . ^(١) فلم أجدُ لنفسي خلاصاً إلاّ أن أرفضَ متخوفاً حِذراً ، شيئاً فشيئاً ، أكثرَ المناهج الأدبيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة التي كانت يومئذٍ تَطغى كالسيل الجارف ، يهدمُ السدودَ ، ويُقوّضُ كلّ قائمٍ في نفسي وفي فِطرتي .

ويومئذٍ طَوَيْتُ كلّ نفسي على عزيمةٍ حذاءِ ماضيةٍ : أن أبدأ ، وحيداً منفرداً ، رحلةً طويلةً جدّاً ، وبعيدةً جدّاً ، وشاقّةً جدّاً ، ومُثيرةً جدّاً . بدأتُ بإعادة قراءة الشعر العربيّ كلّهُ ، أو ما وَقَعَ تحت يدي منه يومئذٍ على الأصحّ ، قراءةً متأنّيةً طويلةً الأناةٍ عند كلّ لفظٍ ومعنى ، كائنٍ أَقْلَبُهُما بعقلي ، وأُرَوِّهُما (أى : أَرِزُهُما مختبراً) بقلبي ، وأَجُسُّهُما جَسّاً بيبصريّ وبيصيرتي ، وكأنيّ أريدُ أن أَتَحَسَّسَهُما بيدي ، وأَسْتَنْشِي (أى : أَسْمَ) ما يَقُوحُ مِنْهُما بأنفيّ ، وَأَسْمَعُ دَيْبَ الحَيَاةِ الخفيّ فيهما بأذنيّ = ثُمَّ أَتَدَوَّقُهُما تَدَوَّقاً بعقلي وقلبي وبيصيرتي وأَنَامِلِي وَأَنْفِي وَسَمْعِي وَلِسَانِي ، كأنيّ أَطْلُبُ فيهما حَبِيئاً قد أَخْفَاهُ الشاعرُ الماكرُ بفتنه وبراعته ، وَأَتَدَسَّسُ إلى دَفِينٍ قد سقط من الشاعر عَفْواً أو سَهْواً تحت نَظْمِ كلماتِهِ ومعانيهِ ، دونَ قَصْدٍ منه أو تَعَمُّدٍ أو إِرَادَةٍ . ^(٢)

(١) انظر مقدمة كتابي « أباطيل وأسمار » ص : ١٠ ، ١١ ، ومواقع أخر مما كتبت .

(٢) قد حسمتُ قضية « التذوق » ، ولم سَمِّيتُ منهجي منهج « التذوق » ، في كلمتين نشرتهما في مجلة =

٢ - لا تَقُلْ لنفسك : « هذا مَجَازٌ لفظيٌّ » ! كَلَّا ، بل هو أشبهُ بحقيقةٍ أيقنتُ بها ، لأتَى سَخَرْتُ كُلَّ ما فَطَرَنِي اللهُ عليه ، وأيضاً ، كُلَّ معرفةٍ تُنَالُ بالسَّمْعِ أو البَصَرِ أو الإحساس أو القراءة ، وَكُلَّ ما يَدْخُلُ في طَوْقٍ من مراجعةٍ واستقصاءٍ بلا تهاونٍ أو إغفالٍ = سَخَرْتُ كُلَّ سَلِيْقَةٍ فُطِرْتُ عليها ، وَكُلَّ سَجِيَّةٍ لَانَتْ لِي بالإدراك ، لَكِنِّي أَنْفَذْتُ إلى حقيقةِ « الْبَيَانِ » الذي كَرَّمَ اللهُ بهِ آدَمَ عليه السلام وأَبْنَاءَهُ من بعده . وهذا أَمْرٌ شاقٌّ جَدًّا ، كَانَ ، ومُثِيرٌ جَدًّا ، كَانَ ، ولكن المَطْلَبَ البَعِيدَ هَوْنٌ عِنْدِي كُلِّ مَشَقَّةٍ وَضَنْئِي .

٣ - اِكْتَسَبْتُ يَوْمئِذٍ بعضَ الخبرةِ بلغةِ « الشعر » ، وبفرضِ الشعراءِ وبراعاتِهِمْ . ثُمَّ أَنْفَتَحْتُ لِي ، في خِلَالِ ذلك ، بَابٌ آخَرٌ مِنَ النَّظْرِ . قُلْتُ لِنَفْسِي : « الشعر » كَلَامٌ صَادِرٌ عَنِ قَلْبِ إِنْسَانٍ مُبِينٍ عَنِ نَفْسِهِ . فَكُلُّ « كَلَامٍ » صَادِرٍ عَنِ إِنْسَانٍ يَرِيدُ الْإِبَانَةَ عَنِ نَفْسِهِ ، خَلِيقٌ أَنْ أُجْرِيَ عَلَيْهِ ما أُجْرِيَتْهُ عَلَى « الشعر » مِنْ هَذَا « التَّذَوُّقِ » الشَّامِلِ الَّذِي وَصَفْتُهُ آنِفًا . فَأَخَذْتُ أَهْبَتِي لِتَطْبِيقِ هَذَا « التَّذَوُّقِ » عَلَى كُلِّ كَلَامٍ ، مَا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ . فَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الشَّبَابِ الْجَرِيءِ عَلَى قِرَاءَةِ كُلِّ ما يَقَعُ تَحْتَ يَدِي مِنْ كُتُبِ أَسْلَافِنَا : مِنْ تَفْسِيرِ لِكُتَابِ اللهِ ، إِلَى عُلُومِ الْقُرْآنِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، إِلَى دَوَائِنِ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشُرُوحِهَا ، إِلَى ما تَفَرَّعَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ وَكُتُبِ الرِّجَالِ وَالْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ ، إِلَى كُتُبِ الْفُقَهَاءِ فِي الْفِقْهِ ، إِلَى كُتُبِ أَصُولِ الْفِقْهِ وَأَصُولِ الدِّينِ (أَيْ : عِلْمِ الْكَلَامِ) ، وَكُتُبِ الْمَلَلِ وَالتَّحَلُّ ، ثُمَّ كُتُبِ الْأَدَبِ وَكُتُبِ الْبَلَاغَةِ ، وَكُتُبِ النَّحْوِ وَكُتُبِ اللُّغَةِ ، وَكُتُبِ التَّارِيخِ ، وَما شَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ . وَعَمَدْتُ فِي

= الثقافة في العددین : ٦١ (أكتوبر سنة ١٩٧٨) / ٦٣ (ديسمبر سنة ١٩٧٨) ، وأُنِئِي لَا أَعْنِي بِهِ ما يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ الْكُتَّابِ : « يَتَذَوَّقُ الْجَمَالَ » وَ « يَتَذَوَّقُ الْفَنَ » ، فَهَذَا كَلَامٌ غَيْرُ ذَالٍ عَلَى مَنْحَجِ . وَلَيْسَ هَذَا مَكَانَ بَيَانِهِ مَرَّةً أُخْرَى . وَلَمْ أَتَمَّ كِتَابَةَ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، وَسَأَنْشُرُهَا قَرِيبًا بِعُنْوَانِهَا : « الْمُتَنَبِّي لِيَتَنَّى ما عَرَفْتُهُ » .

رحلتى هذه إلى الأقدم فالأقدم . كُلُّ إِرْثِ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، كُنْتُ أَقْرُوهُ عَلَى أَنَّهُ إِبَانَةٌ مِنْهُمْ عَنْ حَبَايَا أَنْفُسِهِمْ بِلُغَتِهِمْ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَنْظَارِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَمَنَاهَجِهِمْ . وَشَيْئاً فَشَيْئاً انْفَتَحَ لِي الْبَابُ يَوْمئِذٍ عَلَى مُصْرَاعَيْهِ . فَرَأَيْتُ عَجَباً مِنَ الْعَجَبِ ، وَعَثَرْتُ يَوْمئِذٍ عَلَى فَيْضِ غَزِيرٍ مِنْ مُسَاجَلَاتٍ صَامِتَةٍ خَفِيَّةٍ كَالْهَمْسِ ، وَمَسَاجِلَاتٍ نَاطِقَةٍ جَهِيرَةٍ الصَّوْتِ ، غَيْرَ أَنَّ جَمِيعَهَا إِبَانَةٌ صَادِقَةٌ عَنْ هَذِهِ الْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ .

أَمَدَّتْنِي هَذِهِ التَّجَرُّبَةُ الْجَدِيدَةُ بِخَبَرَاتٍ جَمَّةٍ مُتَبَايِنَةٍ مُتَشَعِّبَةٍ ، أَتَاكَتْ لِي أَنَّ أَجْعَلَ مِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » مِنْهَجاً جَامِعاً شَامِلاً مُتَشَعِّبَ الْأَنْحَاءِ وَالْأَطْرَافِ ، يَزْدَادُ مَعَ تَطَاوُلِ الْأَيَّامِ رَحَابَةً وَسَعَةً ، وَجِدَّةً وَمَضَاءً ، وَنَفَاداً وَدِقَّةً ، وَشُمُولاً وَاسْتِقْصَاءً .

٤ - وَلَا أَزْعُمُ ، مَعَاذَ اللَّهِ ، أَنِّي أَبْتَدَعْتُ هَذَا الْمَنْهَجَ ابْتِدَاعاً بَلَا سَابِقَةٍ وَلَا تَمْهِيدٍ ، فَهَذَا خَطْلٌ وَتَبْجُحٌ . بَلْ كُلُّ مَا أَزْعُمُهُ أَنِّي بِالْجُهِدِ وَالتَّعَبِ ، وَبِمَعَانَاةِ التَّفْتِيشِ فِي هَذَا الرُّكَامِ مِنَ الْكَلَامِ ، جَمَعْتُ شَتَاتَ هَذَا الْمَنْهَجِ فِي قَلْبِي ، وَأَصْلَلْتُ لِنَفْسِي أَصُولَهُ ، مَعَ طَوْلِ التَّنْقِيبِ عَنْهُ فِي مَطَاوِي الْعِبَارَاتِ الَّتِي سَبَقَ بِهَا الْأُئِمَّةُ الْأَعْلَامُ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، وَهَذَا الْعِلْمِ ، فِي مَبَاحِثِهِمْ وَمَسَاجِلَاتِهِمْ وَمُتَأَقِّفَاتِهِمْ وَمَا يَتَضَمَّنُهُ كَلَامُهُمْ مِنَ النِّقْدِ وَالِاحْتِجَاجِ لِلرَّأْيِ . وَكُلُّ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، كَانَ خَفِيّاً فَاسْتَشْفَفْتُهُ ، وَدَفِيناً فَاسْتَنْبَطْتُهُ ، وَمُشْتَبَّاهاً فَجَمَعْتُهُ ، وَمُفَكِّكاً فَلَاءَمْتُ بَيْنَ أَوْصَالِهِ ، حَتَّى اسْتَطَعْتُ بَعْدَ لَأْيٍ أَنْ أُمَهِّدَ لِفِكْرِي طَرِيقاً لَاحِجاً مُسْتَبَيِّباً يَسِيرُ فِيهِ ، أَيْ صَيَّرْتُهُ « مِنْهَجاً » التَّزَمْتُ بِهِ فِيمَا أَقْرَأُ وَمَا أَكْتُبُ .

وَمَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَوَهَّمُ فِي سَنَةِ ١٩٣٥ حِينَ فَرَعْتُ مِنْ إِجْرَاءِ مِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الشَّعْرِ » عَلَى كُلِّ كَلَامٍ غَيْرِ الشَّعْرِ ، أَنِّي قَدْ سَبَقْتُ إِلَى ذَلِكَ ، حَتَّى كَانَتْ سَنَةُ ١٩٥٦ ، أَيْ بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً ، حِينَ طُبِعَتْ « الرِّسَالَةُ الشَّافِيَّةُ » لِلْإِمَامِ

الجرجاني ، ^(١) (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، المتوفى سنة ٤٧٤ تقريباً) ، فوقفت على فصل نفيس جداً كتبه الإمام الجرجاني الكبير ، هو أوضح ما قرأته قط ، في إجراء « التذوق » على كل كلام ، في كل علم ، مهما ظننت أنه أبعد علم من إجراء « التذوق » عليه . وكلام هذا الإمام الجليل ، وإن لم يكن صريحاً كل الصراحة في الدلالة على منهجي ، إلا أنه أشبه شيء به . و « الرسالة الشافية » رسالة في إعجاز القرآن ، من غير الوجه الذي بنى عليه كتابه « دلائل الإعجاز » . وهذا الفصل من الرسالة ، ^(٢) بيان لحال المعاني : « وأن الشاعر يسبق في الكثير منها ، إلى عبارة يُعلم ضرورة أنها لا يحىء في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها ، حتى يُقضى له بأنه غلب عليه واستبد به » ، وذكر أشعاراً قد بلغت الغاية في معناها ، ولم يبق لطالب بعدها مطلب . ثم قال (ص : ٦٠٤ / الفقرة : ٢٩) :

« وكذلك السبيل في المنشور من الكلام ، فإنك تجد متى شئت فصلاً تعلم أن لن يُستطاع في معانيها مثلاً . فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كل أمرى ما يُحسِنه » ، وقول الحسن (البصري) رحمه الله عليه : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه ، أشبه بشك لا يقين فيه ، من الموت » ، ولن نعدم ذلك إذا تأملت كلام البلغاء ونظرت في الرسائل » .

ثم قال عبد القاهر بعقب ذلك مباشرة = وهنا موضع الاستدلال ، وفيه نظر جيد ظاهر الجودة والبراعة والتيقظ :

(١) نشرها الأستاذان محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، في سلسلة « ذخائر العرب » (دار المعارف) . ثم نشرتها أنا ملحقاً بكتاب « دلائل الإعجاز » للجرجاني في سنة ١٩٨٤ ، (مكتبة الخانجي بالقاهرة) .

(٢) يقع هذا الفصل في طبعتي لكتاب « دلائل الإعجاز » من ص : ٦٠٢ إلى ص : ٦١٠ .

« ومن أخصّ شيء يُطلَبُ ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأةُ الموضوعُ في العلوم المستخرجة ، فإنّا نجدُ أربابها قد سبقوا في فصولٍ منها إلى ضربٍ من التَّنْظُمِ واللفظ ، أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشبيه له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصولَ على وجوهها ، ويؤدّوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي . وذلك مثل قول سيبويه في أول الكتاب ، (١ : ٢) :

« وأما الفعلُ فأمثلةٌ أُخِذَتْ من لفظِ أحداثِ الأسماء ، وبُنِيَتْ لما مضى ، وما يكون ولم يَقَعْ ، وما هو كائنٌ لا ينقطع » .

= « لا نعلمُ أحدًا أتى في معنى هذا الكلام بما يوازئُه أو يُدانيه ، ولا يقعُ في الوهم أيضاً أن ذلك يُستطاع . ألا ترى أنّه إنّما جاء في معناه قولهم : « والفعلُ ينقسمُ بأقسام الزمان ، ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، وليس يخفى ضَعْفُ هذا في جنبه وقصوره عنه . ومثلهُ قوله (أى قول سيبويه أيضاً في الكتاب ١ : ١٥) : « كأنهم يُقدِّمون الذى بيّانه أ همُّ لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهَمَّانهم ويعنيانهم » ، = وإذا كان الأمرُ كذلك ، لم يمتنع أن يكونَ سبيلُ لفظ القرآن ونظمه هذا السبيلَ ، وأن يكونَ عجزهم عن أن يأتوا بمثله في طريق العجز ، كما ذكرنا ومثّلنا » ، انتهى كلام عبد القاهر .

٥ - فهذا الإمامُ البارِعُ اليقْظُ ، لم يجدْ = وهو يعالجُ قضيةَ إعجاز القرآن العظيم ، ويمارسُ تطبيقَ فكرته المبتدعة التى سبق بها الناسَ ، وهى قضية « اللفظ والنظم » ، وهما عمودُ مذهبه في إعجاز القرآن وفي البلاغة والكلام البليغ = لم يجد غَضاضَةً في تطبيق فكرته في الإعجاز ، على حدٍّ من حدود « الفعل » ، وهو الحدّ الذى كتبه إمامُ النحو سيبويه ، ولم يستنكف أن يجعله قريناً للكلمات الجامعة الشريفة ، التى

يُهْدَى إليها شاعرٌ مبینٌ أو ناثرٌ بليغٌ ، ولم يتوقّف في الحُكم عليها بأنها من الكلمات الشريفة الجامعة ، ممّا لا يقع في الوهم أنّ أحداً يستطيع أن يأتي في هذا المعنى بكلامٍ يُوازنها أو يدانيها ، وأنها كلامٌ بيّنٌ قد بلغ الغاية في البيان ، « ولم يبق لطالبٍ بعده مطلبٌ » .

وعبد القاهر حكّم حكماً لم يبيّن لنا مآثؤه ولا تفصيله حين قال : إن المعنى الذى جاء فى معنى كلام سيبويه هو قولهم : « والفعل ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، ثم قال : « وليس يخفى ضعف هذا فى جنبه وقصوره عنه » ، ولم يزد على هذا شيئاً . وقبل كلّ شيء ، فهذا الذى استضعفه إلى جنب كلام سيبويه ، إنما هو نصّ كلام أستاذه وإمامه الذى يُعالَى فى أستاذيته ويقدمه تقدماً على سائر النحاة ، أبى على الفارسيّ فى كتابه « الإيضاح » فى النحو ، والذى عُنى هو نفسه بشرحه شرحين : أحدهما كتاب « المغنى » ، وهو شرح مطوّل فى ثلاثين مجلّدةً ، والآخر هو « المقتصد » وهو مختصرٌ منه فى مجلّدتين ، ولم أجد عبد القاهر فى « المقتصد » ، ^(١) تعرّض لنقد حدّ شيخه الفارسيّ ، ولا يبيّن لنا عن وجه ضعفه أو قصوره . ووجدته صعباً عسيراً أن يُذكر القارىء مآثى هذا الحكم ، وإن كان عبد القاهر قد قال إنه « ليس بخفيّ » ، مع أنه خفيّ بلا شكٍ فى خفائه . فرأيتُه واجباً أن أجتهد اجتهداً فى بيان مآثى هذا الحكم ، لكي يتّضح لك معناه فى كلام عبد القاهر . ^(٢)

(١) انظر كتاب « المقتصد » لعبد القاهر ١ : ٨٢ ، ٨٣ ، طبع فى العراق سنة ١٩٨٢ .

(٢) الآن ، وأنا أطبع الكتاب ، وافانى ولدى الكرم الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، بالصفحات الأولى من شرح كتاب سيبويه للإمام أبى سعيد السيرافى القاضى النحوى (الحسن بن عبد الله بن المزربان / ٢٨٨ - ٣٦٨ هـ) فلم أره صنع شيئاً فى شرح عبارة سيبويه ، وإنّما هو ما درج عليه النحويّون فى أقسام زمان الفعل : « ماضٍ ، وحاضرٌ ، ومستقبلٌ » لا غير ، فيكون ما كتبتُه لك بعدُ أوّل بيانٍ عن جميع عبارة سيبويه بلا إغفالٍ لشيءٍ منها كما أغفلوه .

فسيبويه حينَ حدَّ « الفعل » في أول كتابه ، لم يُردِّ أمثلتهُ التي هي عندنا : فعلٌ ماضٍ نحو « ذهب » ، ومضارعٌ نحو « يذهب » ، وأمرٌ نحو « اذهب » ، بل أراد بيانَ الأزمنةِ التي تقتربُ بهذه الأمثلة كيف هي في لسان العرب ، فجعلها ثلاثةَ أزمنة :

فالزمن الأول ، هو المقترن بالفعل الماضي الذي يدلُّ على فعلٍ وَقَعَ قبل زمن الإخبار به كقولك : « ذهب الرجل » ، ولكن يخرجُ منه الفعل الذي هو على مثال الماضي أيضاً ، ولكنه لا يدلُّ على وقوع الحدث في الزمن الماضي ، نحو قولك في الدعاء : « غفر الله لك » ، فإنَّه يدخل في الزمن الثاني ، كما سأبيِّنُه بعدُ .

وأما الزمن الثاني ، فهو الذي عبَّر عنه سيبويه بقوله بعد ذلك : « وما يكون ولم يَقَع » ، وذلك حين تقول آمراً : « أخرج » ، فهو مقترنٌ بزمنٍ مُبهمٍ مُطلقٍ مُعلَّقٍ لا يدلُّ على حاضر ولا مستقبل ، لأنه لم يقع بعدُ خروجٌ ، ولكنه كائنٌ عند نفاذِ « الخروج » من المأمور به = ومثله النهي حين تقول ناهياً : « لا تخرج » ، فهو أيضاً في زمنٍ مُبهمٍ مُطلقٍ مُعلَّقٍ ، وإن كان على مثال الفعل المضارع ، فقد سُلِبَ الدلالة على الحاضر والمستقبل لأنه لم يَقَع ، ولكنه كائنٌ بامتناع الذي نُهي عن الخروج = ومثله أيضاً في مثال المضارع في قولنا : « قاتل النفس يُقتل » ، والزَّاني المُحصَنُ يُرجم » فهما مثالانِ مضارعان ، ولا يدلَّان على حاضر ولا مستقبل ، وإنما هما خبران عن حُكم ، ولم يَقعا عند الإخبار بهما ، فهما في زمنٍ مُبهمٍ مُطلقٍ مُعلَّقٍ ، وهما كائنان لحُوثِ القتل من القاتِل عند القِصاصِ ، وحُلوِثِ الزَّنا من الزَّاني المُحصَن عند إنفاذِ الرُّجم = ويدخلُ في هذا الزمن أيضاً نحو قولك : « غفر الله لك » في الدعاء ، وهو على مثال الماضي ، فإنَّك لا تريدُ إخباراً عن غُفرانِ مَضَى من الله سبحانه ، ولكن تريدُ غُفراناً من الله يكون ، ولكنه لم يقع بعدُ ، وترجو بالدعاء أن يقع .

وأما الزمن الثالث ، فهو الذى عبّر عنه سيبويه بقوله : « وما هو كائن لم ينقطع » ، فإنه خبرٌ عن حَدِيثٍ كائِنْ حِينَ تَخْبُرُ به ، كقولك : « محمد يَضْرِبُ وَلَدَهُ » ، فإنه خبر عن ضَرْبٍ كائِنْ حِينَ أَخْبِرَتْ في الحال ولم ينقطع الضَرْبُ بعد مُضِيِّ الحال إلى الاستقبال = ويُلاحِظُ بهذا الزمن الثالث أيضاً مثالُ الفعل الماضى كقوله تعالى : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » ، فهو خبرٌ عن مَغْفِرَةٍ كانت ولا أَوَّلَ لها ، وهى كائنةُ أبداً لا انقطاعَ لها ، لأنها من صِفَاتِ اللَّهِ سبحانه هو الأَوَّلُ والآخِرُ .

وبهذا البيان المُوجِز الذى أرجو أن أكون قد وفّقت في بيانه ، يتبيّن لك صِدْقُ عبد القاهر = بلا إِبَانَةٍ كانت منه = في الحُكْمِ على عبارة أُنَى عِلْمِ الفارسيّ بالقُصور والضعف إلى جانب عبارة سيبويه الجامعة المُبَيِّنَة ، فإن أبا على الفارسيّ ، مع نَصِّهِ في عبارته على « أقسام الزمان » حيث قال : « والفعل ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ ، وحاضرٌ ، ومستقبلٌ » ، فإنه أسقط الزمن الثانى كُلَّهُ ، وهو الزمن المبهم المُطلق المُعلّق الذى دلّت عليه عبارة سيبويه ، وكذلك فعلٌ سائرُ النحاة ، فقد أسقطوا هذا الزمن إسقاطاً كاملاً ، ولم يُعْنُوا به أئى عناية في حدّ « الفعل » ، فلم يذكروا بأئى زمنٍ يقترن فعلُ الأمر والنهى = ولم يذكروا اقترانَ هذا الزمن الثانى بالفعل المضارع = ولا اقترانهُ بالفعل الماضى أيضاً في الدعاء = ولم يذكروا في حدّهم هذا دخولُ الفعل الماضى في الزمن الثالث ، زمن الفعل المضارع في الحال والاستقبال ، كما مثلتُ .

...

فأنت تراه عياناً الآن ، أن سيبويه قد استطاع في جملةٍ واحدةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز سطرًا واحداً ، استطاع أن يُلِمَّ بجميع الأزمنة المقترنة بأمثلةِ الفعل ، دون أن يُخِلَّ بشيء

منها . فهي جملة محكمة شديدة الإحكام ، عجز النحاة من بعده أن يلُمّوا بها في حدودهم التي كتبوها عن حدّ الفعل . فأى رجل مُبين كان سيبويه !

● وأقول أنا : كان سيبويه رحمه الله ، حين كتب هذه العبارة وأمثالها في كتابه ، في قِمة الصفاء ، وفي ذِرْوَةِ اليَقْظَةِ ، تَسْمُو به أنبل عاطفة من الوفاء لشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (المتوفى سنة ١٧٥ ، أو قبلها) والذي مات ولم يَجْمَعْ علمه المستفيض في كتاب جامع . فبعد موت الخليل = كما حَدَّثَنَا نصر بن علي بن نصر بن علي الجهضمي رواية عن أبيه = أن سيبويه لقي أباه علي بن نصر بن علي الجهضمي (المتوفى سنة ١٨٧) ، وهو قرين سيبويه في الأخذ عن الخليل والاحتصاص به ، فقال له سيبويه : « يا علي ، تعال نتعاون على إحياء علم الخليل » = فتعاس علي ، (أى تأخر ولم يتقدم) ، وخذل سيبويه فيما أراده ، فحَمَى قلب سيبويه ، وعزم على أن ينفرد بإحياء علم الخليل ، فأنبَرى بكل ما في قلبه من الدَيَانَةِ ، والأمانة والحب والإخلاص ، مُستَقِلًّا وحده بالعِبِّ ، وحلّق وحده كالْعُقَابِ في جوّ العربية ، يُجَلِّي بعينه النافذتين كُلَّ علم الخليل وغير الخليل ، وكلّ أساليب العربية ، وينقض على المعاني بضبط وإحكام كإحكام الْعُقَابِ الصَّيْدَ ، بكل ما في قلبه من القُدرة على الإبانة والقُدرة على الاستبانة . وهذا ظاهرٌ جلّي لمن يقرأ كتاب سيبويه بتذوّق وتأمل وأناة ، ولكن أين هذا القارىء ! فمن أجل ذلك كان كتاب سيبويه بحراً زخّاراً ، لم يبلغ مبلغه في الجودة والبيان عن معاني النحو نحو واحد ممّن جاء بعده وعبّ من عبّابه . وحقّ لعبد القاهر الإمام أن يجري عليه مذهبه في قضية « النظم واللفظ » ، وأن يختار من عباراته عبارةً مبيّنةً جامعةً ، ويجعلها قرينةً لأشرف العبارات المبيّنة في شعر الشعراء ، وفي كلام البلغاء ، كعليّ رضي الله عنه ، والحسن البصريّ رحمه الله .

٦ - أَطُنُّنِي قَدْ أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ ، أَيُّهَا الْقَارِئُ لِكِتَابِي هَذَا : « الْمَتْنِي » ، وَأُبْعِدْتُ بِكَ الرِّحْلَةَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَبْعُدْ بِكَ ، فِي الْحَقِيقَةِ ، لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَقِفَ بِالذَّلِيلِ الْوَاضِحِ ، عَلَى أَنَّ الْمَنْهَجَ الَّذِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْهِّدَهُ لِفِكْرِي ، كَانَ نَابِعاً مِنْ صَمِيمِ الْمَنَاجِجِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي سَنَ لَنَا آبَاؤُنَا وَأَسْلَافُنَا طُرُقَهَا = وَأَنْ كُلَّ جُحْدِي فِيهِ ، هُوَ مَعَانَةٌ كَانَتْ مِنِّي لِتَبَيُّنِ دُرُوبِهَا وَمَسَالِكِهَا ، ثُمَّ إِزَالَةِ الْغُبَارِ الَّذِي طَمَسَ مَعَالِمَهَا ، ثُمَّ أَنْ أَجْمَعَ مَا تَشَتَّتَ أَوْ تَفَرَّقَ مِنْ أَسَالِبِهَا ، مُعْتَمِداً عَلَى دَلَالَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ أَلْفَاظِ هَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَمُسْتَكِرٌّ فِي نَظْمِ هَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَهَذَا يَكَادُ يَكُونُ أَمراً مُسَلِّماً بِيَدِيهِ النَّظَرُ فِي شَأْنِ كُلِّ لُغَةٍ وَتُرَاثِهَا . وَالَّذِي لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى اسْتِيعَابِ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ وَعَلَى اسْتِشْفَافِ خَفَايَاهَا ، غَيْرُ قَادِرٍ الْبَتَّةَ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ مِنْهَا أُدِيّاً لِدِرَاسَةِ إِرْثِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، فِي أَيِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ هَذَا الْإِرْثِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كُلُّهُ تَبَجُّحاً وَغَطْرَسَةً وَزَهْواً وَغُرُوراً وَتَغْرِيراً ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي حَيَاتِنَا الْأَدْبِيَّةِ هَذِهِ الْفَاسِدَةِ .

هَذَا هُوَ جَوْهَرُ حَدِيثِي عَنْ مِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » كُلِّهِ شِعْراً وَنَثْراً ، وَأَخْبَاراً تُرَوَّى ، وَعِلْماً يُكْتَبُ أَوْ يُسْتَخْرَجُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنَّمَا هُوَ إِبَانَةٌ عَمَّا تَمُوجُ بِهِ النُّفُوسُ ، وَتَنْبُضُ بِهِ الْعُقُولُ . فَفِي نَظْمِ كُلِّ كَلَامٍ وَفِي أَلْفَاظِهِ ، وَلَا بُدَّ ، أَثَرٌ ظَاهِرٌ أَوْ وَسْمٌ خَفِيٌّ مِنْ نَفْسٍ قَائِلَةٍ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ دَفِينِ الْعَوَاطِفِ وَالنَّوَازِعِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ أَوْ صَدَقٍ وَكَذِبٍ = وَمِنْ عَقْلِ قَائِلَةٍ ، وَمَا يَكْمُنُ فِيهِ مِنْ جَنِينِ الْفِكْرِ ، (أَيْ مُسْتَوْرٍ) ، مِنْ نَظَرٍ دَقِيقٍ ، وَمَعَانٍ جَلِيلَةٍ أَوْ خَفِيَّةٍ ، وَبِرَاعَةٍ صَادِقَةٍ ، وَمَهَارَةٍ مُمَوَّهَةٍ ، وَمَقَاصِدَ مَرْضِيَّةٍ أَوْ مُسْتَكْرَهَةٍ . فَمِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » ، مَعْنَى كُلِّ عَنَانَةٍ بِاسْتِنبَاطِ هَذِهِ الدَّفَائِنِ ، وَبِاسْتِدْرَاجِهَا مِنْ مَكَامِنِهَا ، وَمُعَالَجَةِ نَظْمِ الْكَلَامِ وَلَفْظِهِ مُعَالَجَةً تُنْتِجُ لِي أَنْ أُنْفُضَ الظَّلَامَ عَنْ مَصُونِهَا ، وَأُمِيطَ اللَّثَامُ عَنْ أَخْفَى أَسْرَارِهَا وَأَغْمَضِ سِرَائِرِهَا . وَهَذَا أَمْرٌ

لا يُسْتَطَاعُ ولا تكون له ثَمَرَةٌ ، إِلَّا بِالْأَنَاءِ وَالصَّبْرِ ، وَإِلَّا بِاسْتِقْصَاءِ الْجُهْدِ فى الثَّبُتِ من معانى ألفاظ اللغة ، ومن مَجَارِي دَلالاتها الظاهرة والخفية ، بلا استكراهٍ ولا عَجَلَةٍ ، وبلا ذهابٍ مع الخاطر الأول ، وبلا تَوَهُّمٍ مُسْتَبِدٍّ تُخَضِّعُ له نَظْمَ الكلام وَلَفْظَه .

...

٧ - وأمرٌ كريمةٌ ، أيها القارئ ، وَبَغِيضٌ إِلَى كُلِّ الْبُغْضِ ، أَنْ أَحَدَثَكَ عن أعمالى ، ولكن لا بُدَّ مما ليس مِنْهُ بُدٌّ ، لكى تكون على يَنِينَةٍ .

قد مضى الشباب وطُوى بِسَاطُهُ ، ومضت تلك الأيام الغواير المضئية فى حياتى ، حتى كانت سنة ١٩٣٥ ، وأنا فى السادسة والعشرين من عُمرى ، حين أَسْتَوَى لى المنهج واستبانَ . فكان أوَّلَ عملٍ طَبَّقْتُ فيه منهجى فى « تذوق الكلام » ، شعراً ونثراً ، وأخباراً تُروى ، وعلماً يُكتب أو يُستخرج ، هو كتاى « المتنبى » ، الذى تولت نشره مجلة « المقتطف » فى عدد يناير سنة ١٩٣٦ . كان كتاى خالياً من كُلِّ إبانَةٍ عن هذا المنهج أو إشارةٍ إليه . فكانَ صدورُهُ يومئذٍ مفاجأةً وجَّهَتْ أنظارَ الأدباءِ جميعاً فى كُلِّ بلدٍ ينطقُ اللسانُ العربى ، إلى اسمٍ مجهولٍ وكاتبٍ مغمورٍ ، وأصبحتُ فى حَقْفَةٍ كَحَقْفَةِ البرقِ اسماً مشهوراً عندهم وكاتباً مذكوراً .

وأنتَ لم تشهد تلك الأيام كيف كانت ، ولا تجدُ اليومَ من يحدِّثُك عنها غَيْرى . وكُلُّ ما بقى منها أثَّكَ تعرفنى اليومَ معرفةً مبهمَةً بلا دليلٍ يرشدُك ، إِلَّا هذا الصيْتُ الكاذبُ الذى لا أظنُّ أَنَّ له عندك حقيقةً تعرفُ بها صدقُهُ ، والذى أَكْسَبْتَنِيهِ تلكَ المفاجأةُ المثيرةُ المتقادمةُ المُوغَلَّةُ فى البعدِ عنك .

كانَ السببُ فى هذه المفاجأةِ المثيرةِ ، أَنَّ جمهرةَ الأدباءِ والقارئینِ يومئذٍ ، وقَعُوا على

كتاب فيه ترجمة للمتنبي ، مكتوب على منهج وجدوه فريداً متميزاً ، مبيناً مدبه كل المباني ، لجميع المناهج الأدبية المختلفة المألوفة ، والتي كانت تغمُر ساحة الأدب ، ولا تزال تغمُرُها مع الأسف . وهذا أمرٌ تستطيع أن تستوثق من صحته بالنظر في كل ما كتَبَ الكاتبون عن الشعر والشعراء وغير الشعراء قبل هذا الكتاب . كانوا يُحسِّنون إحساساً خفياً بهذه المباني الظاهرة ، وقد عبَّر عن هذا الإحساس الخفي أقراني وأساتذتي وشيوخِي الكبار ، مُعارضين أو مُثْنين ، كلٌّ عبَّر بطريقته وأسلوبه عن هذا الإحساس الخفي ، بكلامٍ مكتوب ، أو حديثٍ جرى بيني وبينهم . ^(١) ولأني أصدرتُ هذا الكتابِ خلواً من مقدمة تتحدَّث عن منهجي الذي بَيَّنتُ عليه ترجمتي للمتنبي ، فقد كان ما لا بُدَّ أن يكون . فالحياة الأدبية الفاسدة التي سنَّ للناس سننها شيوُخنا الأدباء الكبار ، والتي نعيش فيها إلى هذا اليوم = وآفات أخرى كانوا يتعايشون بها ، وثبُّوها في تلاميذهم وأشياعهم = كلُّ ذلك لم يكن يُتيح لأحد ، إلّا مَنْ عَصَمَ اللهُ ، أن يجد من وقته ساعاتٍ للتأمل والأناة والصبر ، للبحث عن هذا المنهج الغريب غير المألوف الذي وجده أَمَامَهُ مطبّقاً في كتاب كامل ، وأحسَّ به كلُّ منهم إحساساً خفياً دعاهُ إلى المعارضة أو الثناء . وهذا خِذلانٌ كبيرٌ ، غَفَرَ اللهُ لنا ولهم ، وتجاوزَ عن سيِّئَاتنا وسيِّئَاتهم .

كانَ ما لا بُدَّ أن يكونَ ، فبقى منهجي مَنهجاً غيرَ بيّن ، بل صارَ منهجاً مغموراً تطمِسُ مَعَالِمُهُ المناهجُ الفاشيةُ الغالبةُ على هذه الحياة الأدبية الفاسدة . ثم جاءَ من بُعدٍ

(١) ستجد طرفاً من ذلك في « قصة هذا الكتاب » ، وما كتبه الرافعي ومصطفى عبد الرزاق ، وأخوه علي عبد الرزاق ، ومحمد هاشم عطية ، وعبد الوهاب عزام ، وفؤاد صروف ، وقريني وأخي سعيد الأفغاني ، وما فعله العقاد ، وما قاله طه حسين ، (انظر باب « الغمرات ثم ينجلين » ص : ٧٥ - ٧٩ = وما كان في أوّل لقاء لي بالدكتور طه ص ٩٩ - ١٠٤ ، ٥٢٣ ، وأما سعيد الأفغاني ، فكلامه وكلامِي مثبت في ص : ٥٣٣ - ٥٧٤ ، وكلمة الرافعي مثبتة في ص : ٥٧٧ - ٥٧٩ ، وفؤاد صروف في تقديمه الكتاب ص : ١٢٩ - ١٣٤) .

الأساتذة الكبارِ أجيالَ صَنَعَتْهُمْ السُّنَنُ التى سَنَّوها فى حياتنا الأدبية ، والأساتذة الكبارِ هُم القِمَمُ وهم القُدُوةُ ، فَاتَّسَعَ الحَرَقُ بفعل مُرُورِ الأَيَّامِ والسنين ، وفسد الأمرُ فساداً وبيلاً . فكان لا بُدَّ أن يَبْقَى منهجى هذا مطموساً مغموراً ضربةً لازِبٌ . وضربةً لازِبٌ أن يكون كذلك ، لأننى أنا أيضاً قد رَضِيتُ لكتابى « المتنبى » ولمنهجى فيه أن يَبْقَى مطموساً مغموراً مُدَّةَ أربعين سنة ، منذ خرج للناس لأوّل مرّة فى سنة ١٩٣٦ ، إلى كانت سنة ١٩٧٧ ، حين أعدتُ نشره . ولكن ههنا حديثٌ آخرُ سأحدّثك عنه بَعْدَ قليل .

٨ - لا تُحَسِّبْ أنى قد فارقْتُ منهجى وأغفلته مُدَّةَ أربعين سنة ونيف ، ولا تُقَلِّ : أنت الملوّم ! فَلِمَ تَوَانَيْتَ وَنَكَصْتَ وَتَنَاقَلْتَ فلم تنصُرْ منهجك ولا يَبَيِّنْته للناس ؟

فأقول لك = إن كنتَ مِمَّنْ يُريدُ أن يَعْرِفَ ، أما الذى لا يُريدُ أن يَعْرِفَ فليس يبنى وبينه عَمَلٌ = : إن منهجى فى « تذوق الكلام » شعراً ونثراً ، وأخباراً تُروى ، وبياناً عن عِلْمٍ مُسْتَعْرِجٍ ، وكلاماً قاله الناسُ فى الأمسي البعيد ، وكلاماً يقوله الناسُ فى هذا اليوم القريب ، منهجٌ متراحبٌ متشعبُ الأنحاء كما حَدَّثْتُكَ آنفاً ، وهو مطبَّقٌ تطبيقاً يَبِينُ فى كُلِّ ما كتبه هذا القلم الذى أكتب به الآن إليك . مطبَّقٌ هذا المنهجُ فى مقالاتى التى نشرتها فى الصحف والمجلات قديماً وحديثاً ، سواءً كان ما كتبتُه بَحْثاً أو نَقْداً أو تعبيراً عن ذاتِ نَفْسى فى كُلِّ مَنَحَى من مناجى القول والبيان ، أو تعليقاً على أصولِ الكتب القديمة التى نَشَرْتُها وخرَجْتُ للناس .

وإن شئتَ أن تعلم ، فاعلم أنَّك واجدٌ منهجى فى « تذوق الكلام » فى مقالاتى القديمة والحديثة التى لم أنشرها بعدُ فى كتاب يقرأ اليوم ، وأنتَ واجدُه أيضاً فى كتابى « أباطيلُ وأسمارُ » وكتابى « برنامجُ طبقات فحول الشعراء » ، وأنتَ واجدُه أيضاً ظاهراً

يلوح فى قراءتى وشرخى لكتاب « طبقات فحول الشعراء » لأبن سَلامَ الجمحى ، وفى قراءتى وتعليقى على كتاب « جَمهرة نسب قُرَيْش » للزُّبَيْر بن بَكَّار ، وفى مواضع كثيرة جدًّا متفرقة فى قراءتى وتعليقى لكتاب أبى جعفر الطبرى فى تفسير القرآن ، وفى سائر ما كتب الله لى أن أنشروهُ من الكتب .

بَلْ بَلْ أَنْتِ وَاجِدُهُ سَاطِعاً كُلَّ السُّطُوعِ فى ديوانِ « القَوسُ العَذْرَاءُ » ، حيثُ تجِدُ ثلاثةَ وعشرين بيتاً قالها الشَّمَاخُ الشَّاعِرُ فى قصيدته الزائِية ، التى وصَفَ فيها قَوْساً وَقَوَّاسَهَا الذى صَنَعَهَا بيديه وَسَوَّاهَا حتى استوتْ ، ففُتِنَ بِحُبِّهَا قَوَّاسُهَا هذا وانطوى قلبه على الضَّنِّ بها . ثم دعاه داعِى الحُجَّ فأسَمِعَهُ ، فانطلقَ خارجاً من باديته ، فوافى بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ ، فانبَرَى لقوسه هذه تاجرٌ غنىٌّ شديدُ المكرِ والدَّهَاءِ ، فسَاوَمَهُ بها فأطالَ المِساوِمَةَ . قَوَّاسٌ فقيرٌ بائسٌ ، وغنىٌّ مَلِىءٌ ماكِراً حُلُو اللَّفْظِ واللِّسانِ ، فأغْتَرَهُ بالمالِ والغنى حتى ذَهَلَ بفقره عن نفسه وهِوَاهُ ، وفى غَمْرَةٍ ذُهِولِهِ أسْلَمَ له قوسُهُ وقبضَ المالَ ، ولم يكُدْ حتى استفاقَ ، وتَلَفَّتْ فلم يجدْ قوسَهُ وحُشاشةَ نفسه ، ولم تقع عينه على هذا التاجر الذى انقضَّ على قوسه كالعقابِ الكاسِرِ وطَارَ بها حيثُ لا يُرى ، فأَجْهَشَ البائسُ المسكينُ بالبكاءِ ، ونظرَ إلى المالِ الذى فى يديه ، وفاضتِ العينُ عِبرَةً ، وسقطَ فى هاوِيةِ الأحزانِ ، وتساقطتْ نَفْسُهُ بعدَ فراقِها حَسَرَاتٍ ، « وفى الصَّدْرِ حَزَّازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزٌ » .

كنت قديماً قد تذوقْتُ ، فيما أتذوقُ من الشعرِ العربى ، بَيَاناً حَافِلاً غزيراً فى أبياتِ الشَّمَاخِ الثلاثةِ والعشرين . تذوقْتُهَا غائِصاً فى أغوارِ دِلالةِ ألفاظِها وتراكيبِها ونظمِها ، بل غُصْتُ تحتَ تِيَّارِ معانيها الظاهرة ، وفى أعماقِ أحرفِها ، وفى أنغامِ جَرَسِها ، وفى خَفَقَاتِ بُضْهِها ، وفى دَفْقِها السَّارِبِ المتغلغلِ تحتَ أطباقِها ، فأنثرتُ

بهذا التذوق دفاثن نظمها ولفظها ، واستدرجت خباياها المتحجبة من مكانها ، وأمطت اللثام عن أخفى أسرارها المكتمة ، وأغمض سرائرها المغيبة ، حتى صرت كأنى أقرأ قصة طويلة في كتاب منشور . ومضت السنون الطوال حتى كدت أنساها . ثم جاء يوم أذكرنى هذه القصة الطويلة ، فانبعث فجأة من مرقدها ، وانبعث أنا أقص قصة القوس وقواسمها ، كما كانت أفضت إلى به أبيات الشماخ ، وضمنتها قصيدة تزيد على ثلاثمائة بيت ، كل ما فيها نبيثة مستخرجة من بيان أبيات الشماخ ، ومن ركاز نظمها وكلماتها ، بلا استكره لقصة أو معنى أو صورة . (الركاز : كنز مدفون في باطن الثرى في معينه = والمعدن : هو الذى نسميه اليوم « المنجم » كمنجم الذهب والفضة وغيرهما من كنوز الأرض ، كريمها وخسيسها) . (١) .

فهذا ، كما ترى ، منهج متشعب مطبق على أصناف الكلام العربى ، قراءة له ، أو بياناً عنه . وببديهية العقل لم يكن من عملى ، ولا هو من عمل أى كاتب مبين عن نفسه ، أن يبدأ أول كل شيء فيفيض في شرح منهجه في القراءة والكتابة = وإلا يفعل ، كان مقصراً تقصيراً لا يقبل منه بل يرد عليه = ثم يكتب بعد ذلك ما يكتب ليقول للناس : هذا هو منهجى ، وما أنذا قد طبقت . هذا سخف مريض غير معقول ، بل عكسه هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبقاً منهجه ، وعلى القارئ

(١) نشرت « القوس العذراء » أول مرة في مجلة الكتاب (دار المعارف) في عدد أول فبراير سنة ١٩٥٢ ، وكتب الأستاذ عادل الغضبان كلمة في التوثيق بها . ثم نشرتها في كتاب سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها الدكتور زكى نجيب محمود كلمة نفيسة (ضاعت منى مع الأسف) ، وكتب كاتب فقال إنها « قصيدة لغوية » ، يعنى أنها متن منظوم لحفظ غريب اللغة ! ، ثم بعد ثلاثين سنة ، (سنة ١٩٨٢) ، كتب عنها الدكتور إحسان عباس والدكتور مصطفى هدار ، في كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ، الذى أهذى إلى بمناسبة بلوغى السبعين (ص : ٣ - ١٥ / ٤٥٧ - ٤٧٨) ، وكتب الدكتور محمد أبو موسى رسالة نشرها وسمّاها « القوس العذراء ، وقراءة التراث » .

الرسالة : ٩ / كلام في « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، ما هو ؟

والناقد أن يستشِفَّ المنهجَ وَيَتَبَيَّنَه ، محاولاً استقصاءَ وجوهه الظاهرة والخفية ، ممَّا يجده مطبَّقاً فيما كتب الكاتب . ولكن فسادُ حياتنا الأدبية ، هو الذي يُحِيلُ العقولَ أحياناً ، حتى تَغْفُلَ عن أبسط قواعد البديهة في العقل الإنساني . وكفى بهذا فساداً وبيلاً .

فرغْتُ ، وأسألُ الله المغفرة ، من هذا الكلام البغيض إليّ ، متحدثاً عن أعمالى ، والذي هو شئٌ أوجبتُهُ الصورة ، كما يقول المتنبي فيما يُروى عنه حين سُئِلَ عن خبر نبوته !! والآن

...

٩ - كان منهجى ، كما نشأ واستتبَّ في نفسى ، كان منهجاً يَحْمِلُ بطبيعة نشأته رَفَضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتَلَجِّج ، لأكثر المناهج الأدبية التى كانت فاشيةً وغالبةً وصارَ لها السيادةُ على ساحة الأدب الخالص وغير الأدب الخالص إلى يومنا هذا ، كما حدثتْك آنفاً (الفقرة : ١) .

فَلِكُنِّ تَكُونُ عَلَى بَيْنَةٍ مَرَّةً أُخْرَى ...

فَاعْلَمْ ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَّ تَسْمِيَتَهَا « مناهج » ، تجاوزَ شديدَ البُعْدِ عن الحقيقة ، وفسادَ غليظٍ وَخَلَطٍ ، إِذَا كُنْتَ تَريدُ أَنْ تَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ من معنى هذه الألفاظ التى تجرى الآنَ بيننا ، ولكن قد كان ما كان ، فهكذا اصطَلَحُوا على تسميتها !

وقديماً تناولتُ لفظ « المنهج » ، وحاولتُ البيانَ عنه فقلت : (١)

(١) قلت ذلك في كتابي « أباطيل وأسمار » ، ص ٢٣ - ٢٥ ، بل الفصل كُلُّه ، بل الكتاب كُلُّه ، مشتمل على بيانٍ لما يسمَّى « منهجاً » ، ومُتَّصِلٌ بما أقوله هنا اتِّصَالاً لا انفكاكَ له . فإن كنت جاداً في طلبِ المعرفة فاقرأه ، لأننى هنا موجزٌ أشدَّ الإيجاز .

« ولفظُ المنهج » ، يحتاجُ مِنِّي هنا إلى بعض الإبانة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطُـلح عليه المتكلمون في مثل هذا الشأن ، بل أريد به « ما قَبْلُ المنهج » ، أى الأساس الذى لا يقومُ « المنهجُ » إلاّ عليه .

« فهذا الذى يسمّى « منهجاً » ينقسم إلى شَطَرَيْن : شَطَرٍ في تناولِ المادّة ، وشَطَرٍ في معالجة التطبيق .

« فشَطَرُ المادّة يَتطلَّب قبلَ كلِّ شَيْءٍ ، جَمْعُها من مَظانِّها على وَجهِ الاستيعاب المتيسّر ، ثُمَّ تصنيفُ هذا المجموع ، ثُمَّ تَحْيِصُ مُفرداته تَحْيِصاً دَقِيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقّة متناهية ، وبمهارَةٍ وَحْدِيقٍ وَحَذَرٍ ، حتّى يَتيسَّرَ للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ جليّاً واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستتبّاً ظاهراً ، بلا غَفْلَةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّع .

« أمّا شَطَرُ التطبيق ، فيقتضى ترتيبَ المادّة بعد نَفْيِ زيفها وتَحْيِصِ جيّدِها ، باستيعابٍ أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع . ثُمَّ على الدارس أن يتحرّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقٌّ موضعها ، لأنَّ أخْفَى إساءَةٍ في وَضْعِ إحدى الحقائق في غير موضعها ، خَلِيقٌ أن يُشَوِّهَ عُمُودَ الصورة تشويهاً بِالْعِ القُبْحِ والشَّناعة » .

وأزِيدُكَ الآنَ : أنَّ « شَطَرُ التطبيق » هو الميدانُ الفسيحُ الذى تصطرع فيه العقولُ ، وتتناصَى الحُجَجُ ، (أى أن تأخذ الحُجَّةَ بناصية الحجة كَفَعْلِ المتصارعين) ، والذى تسمَعُ فيه صليلَ الألسنة جَهْرَةً أو خُفْيَةً ، وفي حَوْمته تتصادمُ الأفكارُ بالرفقِ مرّةً وبالغَيفِ أُخرى ، وتختلفُ فيه الأنظارُ اختلافاً ساطعاً تارةً ، وخايياً تارةً أُخرى ، وتفترق فيه الدُّروبُ والطُرُقُ أو تتشابكُ أو تلتقى . هذه طبيعة هذا الميدانِ ، وطبيعةُ النازليهِ من العلماءِ والأدباءِ والمفكرين . وعندئذٍ يمكنُ أن يَنشأَ ما يُسمّى « المناهج » و « المذاهب » .

ولكنى لا تقع فى الوهم والضلال ، ولكنى لا يُعزَّر بك أحد من المتشدقين من أهل زماننا هذا بالثرثرة ، فأعلم أن حديثى هنا هو عن الذى يسمى « المنهج الأدبى » على وجه التحديد = أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر والأدب بجميع أنواعه ، والتاريخ ، وعلم الدين بفروعه المختلفة ، والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكل ما هو صادر عن الإنسان إبانة عن نفسه وعن جماعته = أى يتناول ثقافته المتكاملة المتحدرة إليه فى تيار القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة . ووعاء ذلك كله ومستقره هو اللغة واللسان لا غير . فإياك إياك أن تنسى ذلك ، واجعله منك على ذكر أبداً . وأذكر أيضاً أن هذا الذى أقوله لك ههنا عن « المنهج » ، إنما هو أصل أصيل فى كل أمة ، وفى كل لسان ، وفى كل ثقافة حازها البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومواطنهم .

١٠ - وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولم نشأ الخلاف ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ، كانت ولا تزال ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضتها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجلج ، منذ بدأت قديماً أحس إحساساً مبهماً أن حياتنا الأدبية حياة فاسدة من كل وجه ، كما حدثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

فأنا الآن مُجيبك عن هذا السؤال بإيجاز جامع ، على طوله ، فإن هذا الإحساس القديم المبهم المتصاعد بفساد الحياة الأدبية ، قد أفضى بى ، كما حدثتك فى الفقرات الثلاث الأولى : (١ - ٣) ، إلى إعادة قراءة الشعر العربى كله أولاً ، ثم قراءة ما يقع تحت يدى من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه ، وأصول فقه وأصول دين (هو علم الكلام) ، ومِلل ونحل ، إلى بحر زاخر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة ، وكتب النجوم وصور الكواكب ، والطب القديم ومفردات الأدوية ، وحتى قرأت

البَيِّزَةُ وَالْبَيْطُورَةُ وَالْفِرَاسَةُ بل كُلُّ ما استطعتُ أن أقف عليه بحمد الله سبحانه ،
قرأتُ ما تيسر لي منه ، لا للتمكُّن من هذه العلوم المختلفة ، بل لكي ألاحظُ وأتبيَّن وأزيحَ
التَّزْيُّرَ عن الخبيءِ والمدفونِ .

تبيَّن لي يومئذٍ تبيُّناً واضحاً أن شَطْرِي المنهج : « المادة » ، والتطبيق » ، كما
وصفتُهما لك في أوَّل هذه الفقرة ، مكتملانِ اكتمالاً مُذهِلاً يَجِيْرُ العقلَ ، منذ أوَّلِيَّة هذه
الأُمَّة العربيَّة المسلمة صاحبة اللسان العربيِّ ، ثم يزدادان اتِّساعاً واكمالاً وتنوعاً على مرِّ
السنين وتعاقب العلماءِ والكُتَّابِ في كُلِّ عِلْمٍ وفنٍّ ، وأقول لك غير متردِّدٍ أن الذى كان
عندهم من ذلك ، لم يكن قطُّ عند أُمَّةٍ سابقةٍ من الأمم ، حتى اليونان = وأكاد أقول لك
غير متردِّدٍ أيضاً أنهم بلغوا في ذلك مَبْلَغاً لم تُذكر ذِروته الثقافةُ الأوربيَّة الحاضرةُ اليومَ ،
وهى فى قَمَّةٍ مجيِّدها وازدهارها وسَطوتها على العلم والمعرفة .

• كُنْتُ أَسْتَشِيفُ « شَطْرِي المنهج » ، كما وصفتُهما ، تلوحُ بَوادِرُهُ الأوَّل منذ
عهد علماء صحابة رسول الله ﷺ ، وَمَنْ حُفِظَتْ عنهم الفَتَوَى منهم ، كعمر بن
الخطَّاب ، وعلى بن أوى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن
عُمَر = كانت كاللَّمْحَةِ الخاطفةِ والإشارةِ الدالَّة . ثم زادت وضوحاً عند علماء التابعين
كالحسن البصرى ، وسعيد بن المُسَيَّب ، وابن شهاب الزهريِّ ، والشَّعْبِيَّ ، وقَتَادَةَ
السَّدُوسِيَّ ، وإبراهيم التَّخِيفِيَّ . ثم اتَّسع الأمرُ واستعلنَ عند جِلَّةِ الفقهاءِ والمُحدِّثين من
بعدهم ، كمالك بن أنس ، وأبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانيَّ ،
والشَّافِعِيَّ ، واللَّيْث بن سعد ، وسُفْيَان الثَّوْرِيَّ ، والأوزاعيَّ ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن
مَعِين ، والبخاريَّ ، ومُسلم ، وأبى عَمْرٍو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبى جعفر
الطَّبْرِيَّ ، وأبى جعفر الطَّحَاوِيَّ . ثم استقرَّ تدوينُ الكُتُبِ فصارَ نَهْجاً مستقيماً ،

وكالشمس المشرقة ، ثوراً مستفيضاً عند الكاتبين جميعاً ، منذ سيبويه ، والفرّاء ، وابن سلام الجُمَحِيّ ، والجاحظ ، وأبي العباس المبرّد ، وابن قُتيّبة ، وأبي الحسن الأشعريّ ، والقاضي عبد الجبار المعتزليّ ، والآمديّ ، وعبد القاهر الجُرْجانيّ ، وابن حزم ، وابن عبد البرّ ، وابن رُشد الفقيه وحفيده آبن رُشد الفقيه الفيلسوف ، وابن سينا ، والبيرونيّ ، وابن تيميّة ، وتلميذه ابن قيم الجوزيّة ، وآلاف مؤلفيّة لا تُحصى حتى تنتهي إلى السيوطيّ ، والشوكانيّ ، والزبيديّ ، وعبد القادر البغداديّ في القرن الحادي عشر الهجريّ .

سُنّة متّبعة ودَرْبٌ مطروقٌ في ثقافة متكاملةٍ متماسكةٍ راسخة الجذور ، ظلّت تنمو وتُتسع وتستولى على كُلِّ معرفةٍ مُتاحَةٍ أو مُستخرجةٍ بسلطانٍ لسانها العربيّ ، لم تُفقد قطُّ سيطرتها على التّنهج المستبين ، مع اختلاف العقول والأفكار والمناهج والمذاهب ، حتّى اكتملت اكتمالاً مُذهلاً في كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، وكان المرجوُّ والمعقولُ أن يستمرَّ نموُّها واكتمالُها وازدهارُها في حياتنا الأدبية العربية الحديثة رَاهِناً ، (ثابتاً) ، إلى هذا اليوم ، لولا ولكن صيرتنا ، واحسرتاه ، إلى أن نقول مع العرجيّ الشاعر : « كَانَ شَيْئاً كَانَ ، ثُمَّ انْقَضَى » . (١)

١١ - وشيءٌ لو أنا أغفلته ههنا ، ولم أبيّنه لك ، فكأنّي أغفلتُ جوهرَ القضية كلّها وطمسته طمساً ، أغنى قضية « المنهج » ، ولدخلتُ بك دخولاً في حومة الفسادِ

(١) من بيتين تترقّق فيهما عبراتُ الأسي كُله ، وحسراتُ العُمر كُله ، يقول :

يَا لَيْتَ شِعْرِي ، هَلْ يَعُودُنَّ لِي ذَا الْوُدِّ مِنْ لَيْلِي كَمَا قَدْ مَضَى ؟
إِذْ قَلْبُهَا لِي فَارِغٌ كُلُّهُ ... أَمْ كَانَ شَيْئاً كَانَ ، ثُمَّ انْقَضَى

المُطَبِّق الذى عمَّ وسادَ حياتنا الأدبية وَطَمَّ وَطَعَى . وحسبُك بهذا مِنِّى ، لو فعلتُ ، غِشًّا لك ، وإهداراً لكرامة البيانِ ، وخيانةً للأمانة التى حُمِّلناها كما حُمِّلها أبونا الشيخ آدمُ عليه السلام . وبعدَ ذلك ، فكأنِّى ، لو فعلتُ ، قد آستهنتُ بك وبعقلك ، لأنِّى كتمتُ عنك ما أنا حقيقٌ بإبانته ، وَمَا أَنْتَ صاحبُ الحقِّ فى استبانته .

فالذى نَبَّهْتُك إليه فى أوَّلِ الفقرة التاسعة آنفاً ، (٩) ، وسَمَّيْتُهُ « ما قبل المنهج » بشطريه فى « المادة » وفى « التطبيق » وقلت لك : « إنه أَصْلٌ أَصِيلٌ فى كُلِّ أمةٍ ، وفى كُلِّ لغةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كل ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومِلَلِهِم وأوطانِهِم » = هو ، بلا ريبٍ ، أَصْلٌ أَصِيلٌ فى « العلوم البَحْثَةُ » ، كما نسَمِّيها اليوم ، كالحساب والجبر والكيمياء ، كما هو أَصْلٌ أَصِيلٌ فى « آداب اللسان » ، كالأدب والتاريخ وعلوم الدين وعلم الفلسفة . والنَّاس لا يحتاجون إلى ما سَمَّيْتُهُ « ما قبل المنهج » احتياجاً مُلْزِماً ، إلَّا بعدَ أن تستوفى « العلوم البَحْثَةُ » ، مثلاً ، قَدْرًا صالحاً من النموِّ والانتِفاع ، حتَّى يُحْتَاجَ إلى إعادةِ النظر للفصل بين تداخلِ أجزائها بعضها فى بعضٍ ، لتصحيح مَسِيرَةِ العلم ، وإعطاءِ كُلِّ عِلْمٍ حَقَّهُ من الوُضوح ، حتى يستقيم لكلِّ عِلْمٍ نَهْجُهُ وطريقُهُ ونُموُّهُ بلا خَلْطٍ وبلا تزييف . و « ما قبل المنهج » هو فى « العلوم البَحْثَةُ » ضربةٌ لازِبٌ ، وإلاَّ آرْتَكَسَتْ فى ظُلُمَاتِ الجهالةِ والغموضِ . فمُمْكِنٌ ، بل هو شرطٌ ملزِمٌ ، أن يبرأَ « جمع المادَّة » و « التطبيق » جميعاً من العَقْلَةِ والإغْفَالِ والتسرُّع والهوى .

أما « آدابُ اللِّسان » فإنَّ النَّاسَ لا يحتاجون إلى ما سَمَّيْتُهُ « ما قبل المنهج » إلَّا بعدَ أن تستوفى « الآدابُ » نموُّها عن طريقِ « اللُّغة » التى هى وعاءُ المعارفِ جميعاً ، وبعدَ أن تستوفى أيضاً نموُّها عن طريقِ « الثقافة » التى هى ثَمَرَةُ المعارفِ جميعاً ، وبعدَ أن تستوفى حظًّا من القوَّةِ والتماسُكِ والشمولِ والغَلْبَةِ على أصحابِ هذه « اللغة » وهذه

« الثقافة » = حتى يُحتَاجَ عندئذٍ إلى إعادة النظر للفصل بين تداخل أطرافها بعضها في بعض ، طلباً لتصحيح المسيرة ، وطلباً للوضوح ، وطلباً للنهج السوي والطريق المستقيم .

فهذا ، كما ترى ، ميدان لا يُطبق النزول في أرضه وحقه ، إلا من أوتى حظاً وافراً من البصر النافذ ، والإخلاص المتجرد لطلب الحق وإدراكه . وبطبيعة هذا الميدان ، تدخل نفس النازل في أرضه عاملاً حاسماً في شطري « ما قبل المنهج » : تدخل أولاً من طريق معرفة « اللغة » التي نشأ فيها صغيراً = وتدخل ثانياً من طريق « الثقافة » التي ارتضع لبأنها يافعاً = وتدخل ثالثاً من طريق أهوائه ومنازعه التي يملك ضبطها أو لا يملكه ، بعد أن استوى رجلاً مبنياً عن نفسه . فهذا الثالث هو موضع المخافة ، الذي يستوجب الحذر ، ويقتضيك حسن التحري .

١ - • فمن طريق « اللغة » التي نشأ فيها صغيراً ، فإنه يسدده أو يتهدده ، الإحاطة بأسرار « اللغة » وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وعجائب تصاريفها التي تجمعت وتشابكت على مر القرون البعيدة ، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمستحدثة تحمل من كل زمان مضى وكل جيل سبق ، نَفْحَةً من نَفحات البيان الإنساني بخصائصه المعقدة والمكتمة ، أو خصائصه السَّمِحة والمُسْتَعْلِنة . وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها ، مزلق تزل عليها الأقدام ، ومخاطر يُخشى معها أن تنقلب وجوه المعاني مشوهة الخلقة مستنكرة المرأة ، بقدر بعدها عن الأسرار الخفية المُسْتَكِنَّة في هذه الألفاظ والتراكيب ، وهذا باب واسع يحتاج إلى بيان لا يحاط به في مثل هذا الموضع . ولكن كن أبداً على حذر ، فإنه ممكن أيضاً كل الإمكان ، أن يدخل عليك من هذا

الباب مَكْرُ الماكر ، وَعَبَثُ العابث ، واحتيالُ الْمُحتال ، « حَتَّى تَرَى حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ » ، كما قال الشاعر .^(١)

٢ - • ومن طريق « الثقافة » ، فإن « الثقافة » ، فاعلم ، تكادُ تكونُ سِرًّا من الأسرارِ المَلْتَمَةِ في كُلِّ أَمَةٍ من الأمم وفي كُلِّ جِيلٍ من البشر . وهى في أصلها الراسخ البعيد الغور ، معارفُ كثيرةٌ لا تُحصى ، متنوّعةٌ أبلغُ التنوّع لا يكادُ يحاطُ بها ، مطلوبةٌ في كُلِّ مجتمعٍ إنسانى للإيمان بها أولاً عن طريق العقل والقلب = ثم للعمل بها حتى تذوب في بُنيانِ الإنسانِ وتجرى منه مَجْرَى الدَّم لا يكادُ يُحسُّ به = ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه وخیاله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكُّك والانهيار ، وتحوطه ويحوطها حتى لا يُفْضَى إلى مَفَاوِز الضَّياع والهلاك . وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار « الثقافة » وقُصُور هذا الإدراك ، منازلٌ تلتبسُ فيها الأمور وتختلط ، ومَسالكٌ تُضِلُّ فيها العقول والأوهام حتى ترتبكس في حَمأة الحيرة ، بقدرُ بعدها عن لباب هذه « الثقافة » وحقائقها العميقة البعيدة المتشعبة . فهذا أيضاً بابٌ واسعٌ جداً يحتاج إلى تفصيل لا يحاط به في مثل هذا الموضع . وكُنْ أبدأ على حذرٍ ، فإنه ممكنٌ كلُّ الإمكان أن يدبَّ إليك منه ديباً خفياً ، مَكْرُ الماكر ، وَعَبَثُ العابث ، واحتيالُ الْمُحتال ، حَتَّى « تحسبَ الشُّحْمَ فيمن شحمه ورَّم » ، كما يقول المتنبى .^(٢)

٣ - • ومن طريق « الأهواء » ، وهى التى تُسرِّى في خَفَاءٍ وتَدبُّ ، إلا أنَّها لا تَدبُّ

(١) هو من قول الشاعر :

يُقْضَى على المرءِ في أيامِ مُحَنَّتِهِ حتى يرى حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ

(٢) هو قوله معاتباً لسيف الدولة :

أَعِذْهَا نَظْرَاتِ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشُّحْمَ فَيَمُنْ شَحْمُهُ وَرَمَ

ولا تأتيك إلا متبرجةً في تمام زينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، مُتردِّية برداءِ براءة القصد وخلوص النية ، متحلِّية بجواهر الدقة والاستيعاب والتحصيل والمهارة والحِذْق ، حتَّى يُتاح لصاحبها أن يقتنصَ غفلتك ، ويتلعبَ عندئذ بك وبعقلك ما شاء له التلعب ، من حيث يؤهمك أنه قد استوعبَ لك جمع « المادة » ، ويُهَوِّل عليك تهويل السحرة بما يحشدُ تحت عينيك ويستكثر ، مُحفياً عنك بتمويهه من « المادة » ما قد يُبطل ما أراد به سحرَ عينيك واهتيالَ غفلتك ، ثم استلحاقَ عقلك بعقله ، إذ أنت عندئذ مفتونٌ بالزينة المتبرجة ، وبتحاسين رداءِ البراءة وخلوص النية ، وبالحُلِّي النفيسة المتلافة التي يطلبها « ما قبل المنهج » بشطريه : « المادة » و « التطبيق » ، إذ أنت هائمٌ معه ، مُريدًا أو غير مُريد ، « في إثرِ كُلِّ قبيح وجهه حسنٌ » ، كما يقول أبو الطيب . (٢)

• • •

١٢ - • قد بينتُ لك ما آستطعتُ طبيعةً هذا الميدان ، ميدان « ما قبل المنهج » ، وطبيعةً النازلين فيه من الكتاب والعلماء والمفكرين ، ثُمَّ المخاوف التي تتهدَّد « ما قبل المنهج » بالتدمير وبالفساد حتى يُصبح رُكاماً من الأضاليل ، وحتى تفسد الحياة الأدبية فساداً يستعصى أحياناً على البرء . وأمرُ النازلين فيه أمرٌ شديد الخطر ، يحتاجُ إلى ضبطٍ وتحرٍّ وحذرٍ . ولا يغرك ما غرى به ، (أى أولع) ، بعضُ المتشدِّقين المموهين : « أن القاعدة الأساسية في منهج ديكرت ، هي أن يتجرَّد الباحث من كُلِّ

(١) هو من قوله يذكر أهل العشق :

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمْ هَوُوا ، وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَمَا فَطَنُوا
تَفَنَّى عُيُونُهُمْ دَمْعاً ، وَأَنفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنٌ

شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل بحته خالي الذهن خلواً تاماً مما قيل » ، (في الشعر الجمال : ١١) فإنه شيء لا أصل له ، ويكاد يكون ، بهذه الصياغة ، كذباً مُصنّفاً لا يشوبه ذرؤ من الصدق ، (والذرؤ : دقيق التراب) ، بل هو بهذه الصورة خارج عن طوق البشر . هبة يستطيع أن يخلى ذهنه خلواً تاماً مما قيل ، وأن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل ، أفمُستطيع هو أيضاً أن يتجرد من سلطان « اللغة » التي غذى بها صغيراً ، وبها صار إنساناً ناطقاً بعد أن كان في المهد وليداً لا ينطق ؟ أفمُستطيع هو أن يتجرد من سطوة « الثقافة » التي جرت منه مجرى لبان الأم من وليدها ؟ أفمُستطيع هو أن يتجرد كل التجرد من بطشة « الأهواء » التي تستكين ضارعة في أغوار النفس وفي كهوفها ، حتى تمرق من مكنها لتستبد بالقهر وتسلط ؟ = كلام يجري على اللسان بلا زمام يضبطه أو يكبحه ، محصوله أنه يتطلب إنساناً فارغاً خاوياً مكوناً من عظام كسيت جلدأ ، لا أكثر !!

فإذا كان « ما قبل المنهج » مُهدداً بالغوائل كل هذا التهديد ، كما بينته لك في الفقرة السالفة ، (١١) ، غوائل قصور الإدراك من ناحية ، وغوائل الأهواء التي تبدأ بالخاطر الأول الذي يستهوي الباحث ، وتنتهي إلى المكر والعبث والكذب وخيانة الأمانة = إذا كان هذا ، كما وصفت لك ، فما الذي يعصم من هذا الوباء الحالق الذي يخلق المعرفة خلقاً من أصولها ؟

فالعاصم يأتي من قِبَل « الثقافة » التي تذوب في بُنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به = لا من حيث هي معارف متنوعة تُدرك بالعقل وحسب ، بل من حيث هي معارف يُؤمن بصحتها من طريق العقل والقلب ، ومن حيث هي معارف مطلوبة للعمل بها ، والالتزام بما يوجبه ذاك « الإيمان » ، ثم من حيث هي بعد ذلك انتماء إلى هذه الثقافة انتماء ينبغي أن يُدرك معه تمام الإدراك أنه لو قرط فيه لأذاه تفريطه إلى الضياع والهلاك ، ضياعه هو ، وضياع ما ينتمي إليه .

فرأس الأمر ، كما ترى ، هو ما يتعلّق بنفس النازل ميدان « ما قبل المنهج » . وهو بهذه المَثَابَةِ أَصْل « أخلاقِي » قبل كُلِّ شَيْءٍ وبعدَ كُلِّ شَيْءٍ . وإغفالُ هذا « الأصل الأخلاقي » من قِبَلِ نازل هذا الميدان ، أو من قِبَلِ المتلقّي عنه ، يجعل قضية « المنهج » و « ما قبل المنهج » فَوْضَى مبعثرة لا يَتَبَيَّنُ فيها حَقٌّ من باطلٍ ، ولا صِدْقٌ من كَذِبٍ ، ولا صحيحٌ من سقيمٍ ، ولا صوابٌ من خطأ . ولذلك قلتُ في الفقرة الحادية عشرة إنّه موضع المَخَافَةِ الذي يستوجبُ الحَذَرَ ، وَيَقْتَضِيكَ حُسْنَ التَحَرُّي ، أَى دِقَّتِهِ ، ثم أَتْبَعْتُهُ بما قلت لك في أوّل هذه الفقرة الثانية عشرة .

ورأسُ كُلِّ « ثقافة » هو « الدين » بمعناه العامّ ، والذي هو فِطْرَةُ الإنسانِ ، أَى دينٍ كَانَ = أو ما كان في معنى « الدين » = وبقدرِ شُمُولِ هذا « الدين » لجميع ما يَكْبَحُ جُمُوحِ النفس الإنسانية وَيَحْجِزُهَا عن أَنْ تَزِيغَ عن الفِطْرَةِ السَّوِيَةِ العادلة = وبقدرِ تغلُّغِهِ إلى أغوارِ النفس تغلُّغاً يجعلُ صاحبها قادراً على ضبطِ الأهواءِ الجائرة ، ومُريدًا لهذا الضَّبْطِ = بقدرِ هذا الشمولِ وهذا التغلُّغِ في بُنيانِ الإنسانِ ، تكونُ قُوَّةُ العَوَاصِمِ التي تعصِمُ صاحبها من كُلِّ عيبٍ قاذٍ في مَسِيرَةِ « ما قبل المنهج » ، ثم في مَسِيرَةِ « المنهج » الذي ينشعبُ من شَطْرِهِ الثاني ، وهو « شَطْرُ التطبيق » .

وهذا الذي حَدَّثْتُكَ عنه ، ليس خاصّاً بِأُمَّةٍ ، بل هو شأنُ كُلِّ جِيلٍ من الناسِ وَكُلِّ أُمَّةٍ من الأممِ ، كان لها « لغة » وكان لها « ثقافة » ، وكان لها بعد تَمَامِ ذلك « حضارة » مؤسَّسةٌ على لُغَتِها وثقافتِها . فهذا « الأصلُ الأخلاقي » هو العَامِلُ الحاسِمُ الذي يَمَكِّنُ لثقافة الأُمَّةِ بمعناها الشاملِ ، أَنْ تَبْقَى متماسكةً مترابطةً تزدادُ على الأيامِ تماسكاً وترابطاً ، بقدرِ ما يَكُونُ في هذا « الأصلُ الأخلاقي » من الوضوحِ والشمولِ والتغلُّغِ والسيطرةِ على نفوسِ أَهْلِهَا جميعاً ، سواءً في ذلك النازلون في مَيِّدانِ « ما قبل المنهج » أو في مَيِّدانِ « المنهج » نَفْسِهِ ، وهم العلماءُ المفكِّرون والأدباءُ ، والمُتَلَقُّونَ عنهم : تلامذةٌ كانوا ،

أو أشباه تلامذة من قارئ أو سامع أو كل متطلب للمعرفة . وكل احتلال يعرض فيضعف سيطرة هذا « الأصل الأخلاقي » ، أو يؤدي إلى غموضه أو غيابه أو تناسيه أو قلة الاحتفال به ، فهو إيدان بتفكك الثقافة وانهيار الحضارة إيداناً صارخاً لا مغدًى عنه ، مهما بلغت هذه الثقافة وهذه الحضارة ، في ظاهر الأمر أو في العيان ، مبلغاً سامقاً من القلب والانتشار ، ومهما كان لها من اللآلئ والتبرج والزينة ما يفتن العقول ويسبي القلوب .

والحديث عن هذا « الأصل الأخلاقي » في كل ثقافة يطول ويتشعب ، ولكن من المهم أن تعلم أنه ليس قواعد عقلية ينفرد العقل بتقريرها ابتداءً من عند نفسه ، لأن القواعد العقلية مهما بلغت من القوة والسيطرة لا تستطيع أن تقوم بهذا العبء ، لسبب لا يمكن إغفاله في مثل هذه القضية ، وهذا السبب هو أن الأمر كله متعلق بالإنسان نفسه . وكل إنسان صندوق مغلق ، فيه من الطباع والغرائز والأهواء المتنازعة بين الخير والشر ، وفيه أيضاً من القوة والضعف ، مقادير مختلفة لا تكاد تضبط أحوالها وآثارها ، وأيضاً لا يكاد يضبط قلبها قلباً يفضي إلى الحيرة في شأن صاحبها . وكما لا يتشابه اثنان من البشر في الخلقة والصورة والملاح ومعارف الوجوه ، فكذلك لا يتشابه اثنان في الطباع والغرائز والأهواء ، ولا في مقادير القوة والضعف ، ولا في مقادير الأحوال والآثار والتقلبات التي تعرض لها وتنشأ عنها . فالضابط لهذا الموج المتلاطم المتصادم في الصندوق المغلق ، لا بد أن يكون كامناً في سريرة الإنسان نفسه ، مُسيطرً عليه سيطرة مستمرة لا ينالها الوهن ، وفيه قوة شاملة قادرة على أن تُمسك بهذا الموج المضطرب إمساكاً لا يضطرب ، ويكون أيضاً رقيباً يقظاً ملازماً لا يغفل ، يكبح المرء عند كل مُنعرَج ينعرج به إلى طريق الجور في كل خطوة يخطوها ، وينبّه ويوقظه عند كل التفاتة تصرف وجهه عن سلوك الطريق المستقيم . فالقواعد العقلية المجردة ، لا تكاد تقوم

بهذا العيبِ كُلُّهُ ، بل « العقائد » وحدها هي صاحبة هذا السلطان على الإنسان ، لأنها إما أن تكون مغرورة في فطرته منذُ خُلِقَ إنساناً غاقلاً مبيناً لسائر الحيوان ، وإما أن تكون مكتسبةً ، ولكنها مُنزَلةٌ منزلة العقائد المغرورة فيه ، ولأنها جميعاً هي التي يرتضعها من أمه وأبيه وجماعته منذُ كان وليداً إلى أن يَشِبَّ وَيَقِفَلَ . ولذلك قلْتُ لك آنفاً إنَّ هذا الضابط الرقيب يأتي من قِبَلِ « الثقافة » ، ورأسُ الثقافة هو « الدين » أو ما كان في معنى « الدين » .

وأسلافنا ، نحن العرب والمسلمين ، قد مَنَحُوا هذا « الأصل الأخلاقي » عنايةً فائقةً شاملةً ، لم يكن لها شبيهة عند أمةٍ سبقَتْهم ، ولم يُنَحْ لأمةٍ لحقَتْهم وجاءت بعدهم أن يكون لها عندهم شبيهة أو مقارب . وهذه العناية بالأصل الأخلاقي هي التي حَفِظَتْ على الثقافة الإسلامية تماسكها وتربطها مدَّةَ أربعة عشر قرناً ، مع كُلِّ ما مرَّ عليها من القَوَارِعِ والنكباتِ ووقائع الدهرِ على طول هذا المَدَى ، ومع كُلِّ ما آتاهها من الضَّعْفِ ، ومع كُلِّ ما اعتَوَرَهَا أو دخلَ عليها من التقصير والخلل . وبقاء هذا التماسك على طول القرون ، هو وَحْدَهُ إحدى عجائب الحضارات والثقافات التي عرفها البشر .^(١)

...

(١) كان ينبغي هنا أن أتمم القول في نشأة « الأصل الأخلاق » الذي بُيِّت عليه ثقافتنا ، منذُ حدث أولُ خلافٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بين أبي بكر وعمر وزيد بن ثابت في جمع القرآن العظيم وكتابه بين دُفَين ، ثم ما تلا ذلك من طلب التوثيق في رواية حديث رسول الله ﷺ ، ثم ما كان من أمر علماء الصحابة في الفتوى ، ثم ما كان من أمر التابعين ثم مَنْ بعدهم حتى نشأ علم الجرح والتعديل ، وهو علم فريد لا مثيل له عند أمةٍ من الأمم . ثم غلبة هذا « الأصل الأخلاق » على الثقافة العربية الإسلامية كُلِّها ، في جميع علومها ، وعناية هذه الأمة بإفراد هذا الأصل بالتأليف ، كالذي أَلْفَوْه في آداب العالم والمتعلم ، والفقيه والمتفقه ، وعلم النظر والمناظرة ، وعلم الجدل ، وعلم آداب الدرس ، إلى غير ذلك ممَّا هو اليوم مجهول أو كاشمهور لانصراف الناس عنه ، وتركهم جمع شتاتِه وإعادة النظر فيه .

١٣ - لم أنتهِ بعدُ إلى جوابِ السؤال الذى بدأتُ به الفقرة العاشرة : كيف نشأ الخلافُ ، ولِمَ ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ؟ ولا يأتيك الجوابُ صريحاً بيّناً أميناً ، إلّا بعدُ أن أقصَّ عليك قصّةَ تاريخٍ طويلٍ سوف أختصره لك اختصاراً موجزاً أشدَّ الإيجاز ما استطعتُ . وذلك لأنّ هذا الفساد لم يدخُلْ على ثقافتنا دخولاً يوشِك أن يطمسَ معالمها ويُطْفِئَ أنوارها ، إلّا بعد التصادمِ الصامتِ المخيف الذى حَدَثَ بيننا وبين الثقافة الأوربية الحاضرة . وإذا نحنُ أغفلنا هذا التاريخ ولم نتبيّنه تبييناً واضحاً ، فكأننا أغفلنا القضيةَ كُلَّها ، وأسقطناها إسقاطاً من عقولنا ، وخالفنا سنّةَ العقلاءِ المميزين فى التبصّرِ والتّبيينِ وتتركُ التساهلُ عند مواطنِ الخطرِ ، وصار كلامنا فى « الثقافة » سُدًى كُلُّهُ وهَدراً ، ثم عَبَثاً وثرثرةً وتغريراً ، كما هو حادثُ الآن فى حياتنا الأدبية هذه الفاسدة ، وصار الأمرُ كُلُّهُ جُبناً عن طلبِ الحقِّ ، واستنامةً لخداعِ الباطلِ وتسويله الخفى ، واستدراجهِ إيّانا إلى سَرابٍ مُهلِكٍ .

• هُم ، أعنى الأوربيين ، يرون أنّ أوربة سقطت فى حماة « القرون الوسطى » المظلمة ، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ، أى قبل الهجرة بنحو مئة وخمسين سنة ، والحقيقة أنّ أوربة التى هى قلبُ القارة ، كانت ساقطةً فيما هو أسوأ من « القرون الوسطى » قبل ذلك بقرون طويلة . كانوا فى جاهليةٍ جهلاءَ ، أهلها هَمَجٌ هامَجٌ ، لا دينَ يجمعُهُم ، حتى جاء « عصر النهضة » فى القرن السادس عشر الميلادى (١٦٠٠ م) ، أى بعد عشرة قرونٍ . وفى خلال هذه الفترة حدث أمرانِ مُهمّانِ ، إغفالُ النظر إليهما من قِبلنا نحنُ ، يُضِرُّ بتصورنا للحقيقة التى ينبغى أن يعرفها صغيرنا وكبيرنا ، ورجالنا ونساؤنا ، على وجهها الصحيح ، لا على الوجه الذى علّمناه فى المدارس صغاراً ، بل لا نزال نُعلّمه أولادنا ، وكان من أهمِّ أسبابِ فسادِ حياتنا الأدبية إلى اليوم .

• الأمر الأول : « الحروب الصليبية » التي بدأت سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) ،
أى بعد ستة قرون من سقوط الإمبراطورية الرومانية ، فى خلالها كان الإسلام قد ظهر
بدينه وثقافته وغلب على رقعة ممتدة من حدود الصين إلى الهند ، إلى أقصى الأندلس ، إلى
قلب إفريقية ، وأنشأ حضارة نبيلة متماسكة كاملة ، بعد أن ردّ النصرانية وأخرجها من
الأرض ، وحصرها فى الرقعة الشماليّة التى فيها هذا الهمج الهامج الذى كان يعيش فيما
يعرف اليوم باسم « أوربة » . وظلّ الصراغ مُشتعلاً مُدّة خمسة قرون ، بين النصرانية
المحصورة فى الشمال وبين الإسلام الذى يتأخّمها جنوباً . ولكنّ جيوش النصرانية لم
تستطع أن تفعل شيئاً يُذكر ، مع تطاول الأمر . وتدبّر الأمر قادة النصرانية ، وهم رجال
الكنيسة وملوك الإقطاع ، وداخلتهم الحشية ، وخافوا أن يُفضى الأمر إلى زوال سلطان
النصرانية عن جنوب أوربة ، كما زال بالأمس عن الأندلس . فرأوا أن يتجهوا إلى الشمال ،
ليدخلوا فى النصرانية هذا الهمج الهامج الذى لا دين له يجمعه ، ليكون بعد قليل مددًا
لجيوش جرّارة تطبّق على ثغور الإسلام وعواصمه فى الشام ومصر ، (الثغور ، والعواصم ،
هى البلاد المتاخمة لحدود العدو من النصارى وغيرهم) .

انطلق الرهبان يَجوبون شمال أوربة ليدخلوا الهمج الهامج فى النصرانية ، ويُعدّوهم
إعداداً عظيماً لخوض المعركة العظمى بين الإسلام والنصرانية ، وكان جزءاً من هذا
الإعداد : تبشيع « الإسلام » فى عيونهم ، وأن أهل الإسلام وثنيون ، وأن رسول الإسلام
كان وكان ... فلم يتركوا باباً من الكذب والتمويه والبشاعة إلّا دخلوه ، ليقرّوا معانيه فى
قرارة نفوس أتباعهم من الهمج الهامج ، ليكون حقاً محضاً ، قد نطق به راهب أو ناسك
أو قسيس ، فهو مُنرّة لا ينطق إلّا بالحق . فهذا الحقّ إذن ، هو عندهم قسيم الدين
الذى آمنوا به واعتنقوه .

وجاءت سنة ١٠٩٦ م ، (٤٨٩ هـ) ، وجُيشت الجيوش من هذا الهمج الهامج

من الترمنديين والصقالبة والسكسون ، بقيادة الرهبان وملوك الإقطاع ، وبدأت « الحرب الصليبية » ، واكتسحت في طريقها أهل النصارانية وسفحت دماءهم بفظاظة ، وبدأت تكتسح ثغور الإسلام وعواصمه الشمالية وتسفح الدماء المسلمة ، واستمرت قائمة قرنين كاملين . كانت فرحة رائعة ، ولكنها انتهت بالإخفاق وباليأس من حرب السلاح في سنة ١٢٩١ م ، (٦٩٠ هـ) ، بعد أن تركت في أنفس المقاتلين الهَمَج بصيصاً من اليَقَظة والتنَبُّه ، باحتكاكهم المستمر بحضارة راقية كانت تُقَتِّنُهُمْ ، وتبعث في نفوسهم الشكَّ فيما كانوا قد سمعوه من رُهبانهم وملوكهم ، وتثير في نفوس العائدين إلى مواطنهم ضروباً مختلفة من القلق ، هي على قَلَّتِها يُخَشَى أن تنتشر في جماهير هذه الأمم الجاهلة ، فتُضْعِفَ حِمِيَّتَهُمْ وَنُحُوَّتَهُمْ . وكانت حسرةً وغُصَّةً في قلوب الرُهبان والملوك والمثقفين ، وحاولوا أن يستبقوا هذه الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين قائمة راسخة في أنفس الجماهير المتحمسة للدفاع عن نصرانيتها الجديدة . هذه واحدة .

• الأمر الثاني : بطل عمل السلاح بالإخفاق وباليأس ، وخذت الحروب تقريباً بين الإسلام والصليبية نحو قرن ونصف قرن ، ثم وقعت الواقعة . اكتسحت الأرض المسيحية في آسية ، في شمال الشام ، ودخلت برمتها في حوزة الإسلام . وفي يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ودخلها « محمد الفاتح » بالتكبير والتهليل ، وارتفع الأذان في طرف أوربة الشرق . إذن ، فقد وقعت الواقعة !! واهتز العالم الأوربي كله هزة عنيفة ممزوجة بالخزي والخوف والرعب والغضب والجحد ، ولكن قارن ذلك إصراراً مستميتاً على دفع هذا الخزي ، وإماطة هذا الخوف والرعب ، وإشعال نيران الغضب والجحد ، بحمية تأنف من الاستكانة لذل القهر الذي أحدثه « محمد الفاتح » ورجاله من المسلمين الظافرين .

ومن يومئذ ، بدأت أوربة تتغير ، لتخرج من هذا المازق الضنك . وبهمة لا تفتقر ولا تعرف الكلل ، بدأ الرهبان وتلاميذهم معركة أخرى أقسى من معارك الحرب ، معركة المعرفة والعلم الذى هياً للمسلمين ما هياً من أسباب الظفر والعلبة . لقد علموا الآن أن معركة السلاح لن تُغنى عنهم شيئاً ، وهذه أمواج المسلمين تندفق في قلب أوربة غرباً ، ويدخل الإسلام سلماً بلا إكراه جماهير غفيرة ، كانوا بالأمس نصارى متحمسين في قتال المسلمين ، الوثنيين ، كما أوهمهم الرهبان ، فلم يُغنى هذا الإيهام عنهم شيئاً .

...

١٤ - وهذا المازق الضنك في حياة المسيحية ، له تاريخ قديم سابق لا يمكن إغفاله ، بل ينبغي أن يكون واضحاً لنا كلّ الوضوح ، لأن غموضه سبب كثير من أسباب فسّاد حياتنا الأدبية إلى هذا اليوم ، بل إلى هذه الساعة التى تقرأ فيها كلامى . فعند مجيء الإسلام ، كان سلطان الكنائس المسيحية مبسوطاً على الشام ، ومصر ، وشمال إفريقيا ، وأرض الأندلس منذ قرون طويلة سبقت . وفي طرفة عين ، فى أقل من ثمانين سنة ، تقوّض فجأة سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المتراخبة وزال زوالاً سهلاً ، وتقوّض أيضاً سلطانها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها ، ودخلوا دخولاً سهلاً يسيراً فى الإسلام طوعاً بلا إكراه = بل أعجب من ذلك ، صاروا هم جُند الإسلام وحماة ثغوره وعواصمه ، وقارعوا النصرانية وحصروها فى الشمال الأوروبى = بل أعجب من ذلك أيضاً ، أن دخلوا فى العربية دخولاً غربياً وصار لسانهم لسانها = بل أعجب من ذلك أيضاً ، أن خرج من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبالعلم والسيف . وصارت دار الإسلام كلها ديار ثقافة وعلم وخلقي وحضارية تهر الأنظار والعقول ، فى المشرق حيث مقر الخلافة فى

دمشق وبغداد ، وفي المغرب حيث ديارُ الأندلس . كيف حَدَثَ هذا ؟ سؤال جوابه جوابٌ طويلٌ ليس هذا مكانه ، ولكنه كان سؤالاً يتردّد في ضمير المسيحية كلّها .

كانَ جُزْءًا من جواب هذا السؤال أنْ جاهدت الدولة البيزنطية في الشمال أن تستردّ ما ضاع ، وظلّت أربعة قرونٍ تحاول أن تعود فتحترقَ هذا العالم الإسلامي من طرفه الشماليّ عند الشام ، وذهبَ جهدها هدرًا ، ولم يُغنِ عنهم السلاحُ شيئاً . وكلّ يوم يمرّ ، يزدادُ رعايا الرهبان والملوك انبهاراً بالإسلام وحُلُقَه وثقافته وحضارته ، ولم ينبُجْ من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبان أنفسهم . وضاق الأمرُ ، وكاد اليأسُ يُحَاِمِر قلبَ المسيحية ، لا تدرى ماذا تفعل في تساقط رعاياها في الإسلام ، أو في ثقافته وحضارته ، طوعاً بلا إكراهٍ . ما معنى هذا ؟ أيكونُ معناه أن المسيحية على ما هي عليه غير مُفِيعَةٍ لجماهير الرعايا ؟ ولم يُجِروا جواباً ، ولا وجلّوا لأنفسهم مخرجاً ، وَالتَقَّتْ حَلَقَتَا البطان ! (البطان : حزام الرجل على البعير ، وهو ممثّل يضربُ للأمر إذا اشتدَّ وضاق) .

ثمّ جاء ما يبدّد هذا اليأس . هذه هي الجيوش الجرّارة من الهمج الهامج تندفقُ من قلب أوربة ، تريد أيضاً مرة أخرى ، اختراقَ العالم الإسلامي من شماله في الشام . ونشبت الحروب الصليبية التي ستستمرُّ قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١ م / ٤٨٩ - ٦٩٠ هـ) ، في خلالها استولوا على جزءٍ من أرضِ الشام ، وأقام به بعضهم إقامةً دائمةً ، وأنشأوا ممالك ، وخالطوا المسلمين مخالطةً طويلةً ، وأحرزوا من كنوز العالم الإسلامي ثروةً هائلةً يستمتعون بها ، وعرف الهمجُ الهامجُ ما لم يكن يعرفُ ، وامتلاّت قلوبهم شهوةً ورغبةً فيما فتنّتهم به ديارُ الإسلام وحضارته . ويعود العائدون بعد كل حملةٍ من الحملات السبع الصليبية إلى ديارهم وأهليهم ، يتحدّثون بما رأوا ، ويصِفون ما حازوا ، ويبالغون في كلّ ذلك ، وينهر السامعون ويتوقون إلى الرحلة والانضمام إلى كتائب المجاهدين الصليبيين ، لتحقيق آمالهم في الغنى والثروة والاستمتاع ، ولكن طول معاشره هذه

الجماهير للمسلمين أحدث لكثير منهم قلقاً في صدق ما كانوا يسمعون من الرهبان المتحمسين المحرضين على الحرب ، وهُم يُبشِّعون لهم أمر المسلمين ودينهم وأخلاقهم ، وحمل العائدون أيضاً هذا القلق وتحذثوا به . هكذا كان شأن جماهير الهمج الهاجم في ديارهم ، فإذا طال هذا وتكاثر ، فإنه ممّا يهدّد المسيحية في عُقر ديارها في الشمال كلّهُ ، بلا شكّ .

وانتبه بعض الرهبان والملوك وعُقلاء الرجال ، وبحثوا عن مخرج قبل أن يتفاقم الأمر . فكان بينا لعقلائهم أن سرّ قوّة الحضارة الإسلامية هو العلم ، علم الدنيا وعلم الآخرة . فعلم الآخرة ، وهو الدين ، مُقنّع لجماهير البشر ، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً = وعلم الدنيا ، كما رأوا ، هو الذي مكّن لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوّة الهائلة المتماسكة التي شعروا أنها مستعصية على الاختراق ، وهذه الأبهة الهائلة التي تعيش فيها دار الإسلام .

ومضى نحو قرن ونصف من الحملات الصليبيّة ، وأصبح الأمر أشدّ حرّجاً ، وصار بينا أن الحروب الصليبيّة تُوشِك أن تُؤبّ بالإحفاق مرّة أخرى . فانبعث منهم رجال يطلبون العلم والمعرفة في أرض الإسلام ما استطاعوا ، في المشرق وفي الأندلس ، وظهر رجال من طبقة « روجر بيكن » الإنجليزي ، (١٢١٤ - ١٢٩٤ / ٦١١ - ٦٩٣ هـ) ، ممّن شاموا العرب والعربيّة ، وجاهدوا في التعلّم جهاد المستميت بصبر وذأب ، ليزيحوا عن أنفسهم وأهليهم غوائل الجهل . وهبّ رجال من الرهبان ذوى الحميّة أحسّوا بالخلل الواقع في الحياة المسيحية التي لم تحم رعاياهم من التساقط السهل في الإسلام على طول القرون ، هبوا لإصلاح هذا الخلل . فكان من أكبرهم رجلاً ذكّي متوقّد ، جاهد جهاداً عظيماً في سبيل دينه ، أراد أن يزيل جهالة الرهبان والملوك ، ويمكّن لهم حُجة مُقنّعة تُحول بينهم وبين هذا الانهار بالإسلام وثقافته

وحضارته . ذلك الرجل هو « توما الإكويني » الإيطالي الكاثوليكي ، (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م / ٦٢٢ - ٦٧٣ هـ) ، وبذكائه وحميته وإخلاصه ، استطاع أن يحصل قدراً كبيراً من العلم والمعرفة ، مُتَّكِّفاً أتكاءً كاملاً على القدر الذي استطاع أن يفهمه ويظفر به من عند كتاب الإسلام وعلمائه وفلاسفته ومُتَكَلِّميه ، كابن رُشْد وابن سينا وغيرهم ، مريداً بكل ذلك إصلاح الخلل الواقع في الحياة المسيحية ، والذي أضعف سلطان الكنيسة والرهبان على نفوس رعاياهم الذين لا سبيل لهم إلى معرفة شيء من دينهم إلا عن طريق الكنيسة والقسيسين والرهبان . ولكن كان العائق عن أن تُؤتى هذه النهضة ثمارها يومئذ أن لغة الرهبان ثم العلماء كانت هي اللاتينية القديمة ، وهي لغة لا تعرفها جماهير رعايا الكنيسة ، وكانت أوربة كلها تتكلم لغات كثيرة مختلفة ، ولَهجات شديدة التباين ولكنها لغات قَلِقة في دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فأصبح الرهبان والعلماء يسرون في طريق ، ورعايا الرهبان يسرون في طريق آخر ، فهم قطيع يتبع فيه ناعق بما لا يسمع إلا دُعاء ونداء صم بكم غمى فهم لا يعقلون .

وقضى الله قضاءه في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ (١٧ يونيو سنة ١٢٩١ م) ، وسقط آخر حصن كان للصليبيين في الشام ، ورجعت آخر فلول الحملات الصليبية إلى مواطنها متهاككة يائسة مُستَحْذية صُفر الوجوه من الخزي والعار ، وفي قلوبها حسرة قاتلة على ما خرج من أيديها من متاع الدنيا وبهجتها وزُخرفها ، وفي سِرِّ أنفسها يأسٌ مُحيرٌ وبقينٌ مفرغٌ : أن دار الإسلام ديارٌ ممتعة على الاختراق امتناعاً لا سبيل إلى تجربته مرةً ثالثة .

وأيضاً ، قضى الله قضاءه المستور الذي لم يكشف عنه الحجاب بعد : أن لا تكون الحرب الصليبية شراً محضاً على المسيحية المحصورة في الشمال ، بل قدراً مقدوراً

يَحْمِلُ لَهَا فِي طَيَّاتِهِ خَيْرًا مَحْجُوبًا ، لِيَكُونَ غَدًا ، بهذا الخيرِ الجَنِينِ ، عُقُوبَةً لِعِبَادِهِ فِي دَارِ
الإِسْلَامِ ، إِذْ أَعْجَبَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ ، وَغَرَّتْهُمْ قُوَّتُهُمْ ، وَتَاهُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ زُخْرَفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ،
وَرَكِبَ كَثِيرٌ مِنْ عَامَّتِهِمْ مَحَارِمَ اللَّهِ ، وَخَالَطُوا مَعَاصِيَ قَدُّهُوا عَنْهَا ، وَنَسُوا حِطًّا مِنَ الْحَقِّ
الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَتَرَكُوا حُجَّةَ بَيِّضَاءَ لَا يَضِلُّ
سَالِكُهَا ، وَاتَّبَعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَتْ بِهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ سُبْحَانَهُ ، فَأَوْرَثَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ غَفْلَةً سَوْفَ
تَطُولُ بِهِمْ حَتَّى يَفْتَحُوا أَعْيُنَهُمْ فَجَاءَةً عَلَى بَلَاءٍ مَاحِقٍ . فَقَضَى رَبُّكَ أَنْ تَعْمِشَ أَوْرَبَةُ كُلُّهَا
قَرْنًا وَنِصْفَ قَرْنٍ بَعْدَ إِخْفَاقِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ ، (١٢٩١ - ١٤٥٣ م / ٦٩٠ -
٨٥٧ هـ) فِي إِصْرَارٍ لَا يَتَزَعُّعُ ، وَفِي دَأْبٍ لَا يَعُوقُهُ مَلَلٌ ، عَلَى أَنْ تُصْلَحَ الْحَلَلُ الْوَاقِعَ
فِي الْحَيَاةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَعَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ
مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، رَجَاءً أَنْ تَجِدَ مَخْرَجًا مِنْ هَذَا الْمَازِقِ الضَّنْكِ الَّذِي
خُصِرَتْ فِيهِ . وَهُوَ تَارِيخٌ طَوِيلٌ حَافِلٌ يُعْجِزُنِي أَنْ أَقْصُهُ عَلَيْكَ الْآنَ .

...

١٥ - وَبَعَثَ ، وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ٢٠ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ٨٥٧ / ٢٩
مَآيُو سَنَةِ ١٤٥٣ ، وَدَخَلَ « مُحَمَّدُ الْفَاتِح » حَصْنَ الْمَسِيحِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ الْمَنِيعِ الشَّامِخِ ، مَدِينَةَ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَقَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ، دَخَلَهَا قَبِيلُ الْعَصْرِ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ
الْمَطْهَمِ ، (الضَّخْمُ الْبَارِعُ الْجَمَالِ) ، وَاتَّجَهَ إِلَى « كَنِيسَةِ أَيَا صُوفِيَا » ، وَجَاهِرُ رَعَايَا
الْكَنِيسَةِ يَصْلُونَ وَيَتَهَلَّلُونَ وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَذْفَعَ عَنْهُمْ بَلَاءَ « الثَّرَك » ، (أَيُّ الْمُسْلِمِينَ) . فَلَمَّا
عَلِمَ الرَّاهِبُ بِقُدُومِهِ أَمَرَ بِفَتْحِ بَابِ الْكَنِيسَةِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ ، وَارْتَاعَ الْمَصْلُونَ وَمَاجُوهَا
وَاضْطَرَبُوا ، وَدَخَلَ « مُحَمَّدُ الْفَاتِح » ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُتِمُّوا صَلَاتَهُمْ آمَنِينَ غَيْرَ مَرُوعِينَ ،
وَأَمَّنَّهُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ ، وَأَنْ يَعُودُوا إِلَى بِيُوتِهِمْ سَالِمِينَ . وَدَنَتِ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَقَامَ

أحد العلماء فأذن للصلاة ، وصلى المسلمون العصر في « كنيسة أيا صوفيا » ، ومن يومئذ حوّلت فصارت مسجداً . وانتشر الخير كالبرق في أرجاء أوربة ، ومادت الدنيا بالخير ، واهتزّت دنيا المسيحية الأوربية هزّة لم تعرف مثلها قط ، ولم يبق عليها راهب ولا ملك ولا أمير ولا صعلوك إلا انتفض انتفاضة الغضب لدينه . وما هو إلا قليل حتى انطلق « محمد الفاتح » ، وانساحت كتائب الإسلام في قلب أوربة ... يا لها من فجيعه !! وكان ما كان

بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عُنفها ، وعلى سرعة ما تلاها من تدفق كتائب الإسلام مُنْسَاحَةً في قلب أوربة ، لم تُفَتَّ في عضد المسيحية الشمالية ، بل على العكس ، زادها الإحساس بالخزي والعار حماسة وتصميماً وتحرقاً وحقداً خالط كل نفس من الخاصة والعامة ، وصار همّ « الترك » ، (أى المسلمين) ، همّاً مؤرقاً للعالم والجاهل والصغير والكبير والذكر والأنثى ، وهام الرهبان وغير الرهبان في جنّيات أوربة غضاباً يحرضون رعاياهم على قتال هذه « الترك » ، (أى المسلمين) ، بكلّ لسان قادر على الإثارة وعلى التبشيع ، تبشيع هذه « الترك » . وكلما ازداد « الترك » توغلاً في أرض أوربة « المقدسة » ، ازداد الخوف ، وازداد التحريض على البغضاء والحقد ، ومع البغضاء المكتومة والتحريض ، زاد التصميم على المقاومة . وتمضى الأيام والسنون وتتطاوّل ، وأوربة بأسرها لا تنام إلا على فراش من الرّمضاء اللاذعة ، لا يدعُ لجنب ساعة من طمأنينة ، يفرّغه شبح « الترك » ، وذكرى قرون طويلة من الإخفاق والمهانة والعار ، ولا قرار على دوى أصوات صارخة تُهيب بهم إلى رفع هذا العار ودفعه عن دينهم وعن أنفسهم وعن أوطانهم بكلّ سبيل . وكذلك رسخت في العظام الحية ، لا في النفوس وحدها ولا في العقول ، بغضاء سارية مشتعلة للفظ « الترك » ، (أى المسلمين) ، لا تزداد على الأيام إلا توهجاً وانتشاراً ، ونزلت من النفوس منزلة « الدين » الراسخ في أعماق الفطرة .

وهذه البغضاء المشتعلة النافذة فى غُور العظام هى التى دفعت أوربة دفعاً إلى طلب المخرج من المأزق الضنك ، وهى التى أيقظت الهَمَمَ يَقْظَةً لا تعرف الإغماض . وباليقظة المتوهجة دار الصراع فى جنابات أوربة بين جميع القوى التى كانت تحكُم جماهير الهَمَجِ الهامج . ومن قلب هذا الصراع خرجت طبقة إصلاح خلل المسيحية الشمالية مرةً أخرى ، فخرج الراهب الألماني « مَرْتِنُ لُوتِر » (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م / ٨٩٤ - ٩٥٣ هـ) ، والراهب الفرنسى « جون كِلْفِن » (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م / ٩١٤ - ٩٧١ هـ) ، وخرج السياسى الإيطالى الفاجر « نيكولو مَكْيافَلِي » (١٤٦٩ - ١٥٢٧ / ٨٧٠ - ٩٣٤ هـ) ، وخرج أيضاً صراعُ اللغات واللهجات المتباينة ، طلباً لاستقرار لغةٍ موحدة لكل إقليم ، وإخراج سيطرة « اللاتينية » العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب ، لكى يُمكن نشر التعليم على أوسع نطاق بين جماهير الهَمَجِ الهامج من رعايا الكنيسة وتاريخ طويل حافل متنوع ، وجهادٌ مريرٌ قاسٍ ، فى سبيل اليقظة العامة والتنبه والتجمع لإعداد أمةٍ مسيحية قادرة على دَفْعِ رُعب « الترك » ، (أى المسلمين) ، عن أرض أوربة « المقدسة » . وبدأت اليقظة ذات الهدف الواحد الذى لا يغفل عنه راهبٌ ولا عالم ، ولا صغير ولا كبير ، ولا عامى ولا مُتعلِّم ، ولا رجل ولا امرأة . ومع اليقظة تفجَّرَ أعظمُ سَبِيلٍ يكتسحُ أُمِّيَّةَ الهَمَجِ الهامج ويخرجه من أغلال الجهالة ، ويجعل هذا الهدف الواحد مستقراً فى جوف العظام ، مع البغضاء والحقد ، ومع التصميم والإرادة ، ومع اليقظة والتنبه ، وطالت الليالى والأيام ، فما هو إلا قليل حتى كان ما كان

وبغتنً ، كما كان اقتحامُ المسلمين قلب أوربة بغتنً ، تهاوتِ الحاجز التى كانت تمنع حركة اليقظة والتنبه فى أعقاب الحروب الصليبية لأن تُوثق ثمارها ، (كما أشرت إليه آنفاً فى الفقرة الرابعة عشرة) ، وخرجت أوربة من أصفاد « القرون الوسطى » ، ودخلت

بعد جهادٍ طويلٍ مريرٍ في « القرون الحديثة » كما يسمونها . ومع تقوُّض هذه الحواجز ، ظَهَرَت براعِيُمُ الثُّمارِ الشَّهِيَةِ ، وبظهورها غَضَّةٌ ناضِرَةٌ ، زادت الحماسةُ ، وتعالَت الهِمَمُ ، ومُهَّدَ الطريقُ الوَعْرَ ، وَذَبَّتِ النَّشْوَةُ في جماهيرِ المجاهِدِينَ ، وتحدَّدَتِ الأهدافُ والوسائلُ ، وتبيَّنَ الطريقُ اللاجِبُ . ومن يومئذٍ بدأ الميزانُ يَشُولُ ، فارتفعت إحدى الكِفَّتَيْنِ شيئاً ما ، وانخفضتِ الأخرى شيئاً ما . ارتفعت كِفَّةُ أورُبَّةِ هذه اليقظةِ الهائلةِ الشاملةِ التي أحدثتها الهزائمُ القديمة والحديثة ، وانخفضت كِفَّةُ المسلمين بهذه الغفلةِ الهائلةِ الشاملةِ التي أحدثتها الغرورُ بالنصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية . وكذلك شال الميزانُ ، وكانت فرحةٌ محسوسةٌ في جانب ، وكانت غفلةٌ لا تُحَسُّ في جانبٍ . تاريخٌ طويلٌ مضى وغابَ ، وتاريخٌ طويلٌ سوف يَأْتِي ، ثم لا يعلمُ إلا الله متى يكون غيابه .

١٦ - والآنَ تستطيعُ أن تتبيَّنَ أربعَ مراحلٍ واضحةٍ للصراعِ الذي دارَ بين المسيحية الشمالية والإسلام :

• المرحلة الأولى : صراعُ الغَضَبِ لهزيمةِ المسيحية في أرض الشام ودخولِ أهلها في الإسلام ، فبالغضبِ أُمِلَتْ اختراقُ دارِ الإسلامِ لتستردَّ ما ضاعَ ، تدفعُها بَغْضاءُ حَيَّةٌ متساعِةٌ ، لم تمتنعِ ملكاً ولا أميراً ولا راهباً أن يُمدَّ المسلمين بما يطلبونه من كُتُبِ « علومِ الأوائل » ، (الإغريق) ، التي كانت تحت يدِ المسيحية يعلوها الترابُ . وظلَّ الصراعُ قائماً لم يفترْ ، أكثرَ من أربعةِ قرونٍ .

• المرحلة الثانية : صراعُ الغَضَبِ المتفجِّرِ المتدفِّقِ من قلبِ أوربةِ ، مشحوناً ببغضاءِ جاهلةٍ عاتيةٍ عِيفةٍ مكتسحةٍ مُدمِّرةٍ سَفَّاحَةٍ للدماءِ ، سَفَّحتِ أولَ ما سَفَّحتِ دماءَ أهلِ دينها من رعايا البيزنطية ، جاءت تريدُ هي الأُخرى ، اختراقَ دارِ الإسلامِ ،

وذلك عهد الحروب الصليبية الذي بقى في الشام قرنين ، ثم ارتدَّ خائباً إلى موطنه في قلب أوربة .

• المرحلة الثالثة : صراعُ العُصْبِ المكظوم الذي أورثه اندحارُ الكتابات الصليبيَّة ، من تحته بغضاء متوهَّجةً عنيفةً ، ولكنها متردِّدةٌ يكبحها اليأسُ من اختراق دار الإسلام مرَّةً ثالثةً بالسلاح وبالحرب ، فارتدَّعتْ لكي تبدأ في إصلاح خَلَلِ الحياة المسيحية ، بالاتِّكاءِ الشديد الكامل على علوم دار الإسلام ، ولكي تستعدَّ لإخراج المسيحية من مأزِقِ ضنكٍ مُؤثِّر ، وظلَّت على ذلك قرناً ونصف قرن .

وهذه المراحلُ الثلاث ، كانت ترسُفُ في أغلال « القرون الوسطى » ، أغلال الجهل والضَّياع . ولم تصنع هذه المراحل شيئاً ذا بال .

• المرحلة الرابعة : صراعُ العُصْبِ المشتعل بعد فتح القسطنطينية ، يزيده اشتعالاً وتوهُّجاً وقوَّةً من لهيبِ البغضاءِ والحقدِ الغائر في العظام على « التُّرك » ، (أى المسلمين) ، وهم شعبٌ مُخَيَّفٌ مندفعٌ في قلبِ أوربة ، يُلقى ظِلُّه على كُلِّ شيءٍ ، ويفزعُ كُلَّ كائنٍ حيٍّ أو غير حيٍّ بالليل والنَّهار . وإذا كانت المراحلُ الثلاثُ الأولى لم تصنع للمسيحية شيئاً ذا بالٍ ، فصراعُ الغضبِ المشتعل بلهيبِ البغضاءِ والحقدِ هو وحده الذي صنَّع لأوربة كُلَّ شيءٍ إلى يومنا هذا .

صنَّع كُلَّ شيءٍ ، لأنه هو الذي أدَّى بهم إلى يَقْظَةٍ شاملة قامت على الإصرارِ ، وعلى المجاهدةِ المُتأبِّرةِ على تحصيل العلم وعلى إصلاح خَلَلِ الحياة المسيحية ، ولكن لم يكن لها يومئذٍ من سبيل ولا مددٍ ، إلَّا المددُ الكائن في دار الإسلام ، من العلمِ الحى عند علماء المسلمين ، أو العلمِ المسطَّر في كُتُب أهل الإسلام . فلم يتردَّدوا ، وبالجهدِ الحارق ، وبالحماسة المتوقَّدة ، وبالصبر الطويل ، انفكَّت أغلالُ « القرون الوسطى » بغتةً عن قلبِ أوربة ، وانبعثت نهضةُ « العصور الحديثة » مستمرةً إلى هذا اليوم .

من يومئذ ، عند أول بدء اليَقْظَة ، تحدّدت أهداف المسيحيّة الشماليّة ، وتحدّدت وسائلها . لم يعب عن أحدٍ منهم قطّ أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبيّة رابعة ، لأنّهم كانوا يومئذ يعيشون في ظلّ شبحٍ مخيف متوغّل في أرض أوربة المقدسة ببأسٍ شديد وقوّة لا تُردّع ، بل هو شبحٌ متجول يطوف أنحاء القارة كلّها ، لا يطرف فيها جفنٌ حتّى يراه ماثلاً في عينه آناء الليل وأطراف النهار ، « التُّرك التُّرك » !! . وهذه « التُّرك » ، وهم المسلمون ، طلائع عالمٍ إسلاميّ زاخرٍ هائلٍ مخيفٍ غيرٍ معروفٍ لهم ما في جوفه ، مسيطرٍ على رقعةٍ متراميةٍ ممتدّةٍ من الأندلس إلى أطراف تحيط بأرض روسيا ، إلى جوف قارة آسية ، إلى جوف قارة إفريقية . وهم يعلمون الآن علماً ليس بالظنّ ، أنّ السلاح ، في هذه المرحلة الرابعة ، (وهو يومئذ قريبٌ من قريب) ، ليس يُعنى غنّاء حاسماً ، فقد وعظمتهم المراحل الثلاث الأولى ، فنحوا أمره جانباً إلى أن يحين حينه ويصبح قادراً وحاسماً . لم يبق لهم ، إذن ، إلا سلاح العقل والعلم والتفوق واليقظة والفهم وحسن التدبير ، ثم المكرّ والدهاء واللّين والمداينة وترك الاستشارة ، استشارة عالمٍ ضخمٍ مجهولٍ ما في جوفه ، ولا قبل لهم بتدفّق أمواجه الزاخرة ، والتي كان « التُّرك » الظّافرون طلائعها الظاهرة لهم عياناً في قلب أوربة . وهذه رعايا المسيحيّة أمام أعينهم تتساقط في الإسلام ، مرّةً أخرى ، طائعةً مختارةً ، وتدخل بحماسةٍ و يقينٍ ثابتٍ في جحافل الإسلام الطاغية ! يا لها من فجيعه !! ويرتاع مع كلّ فجرٍ قلبُ المسيحية ، ويغلى رهبانها ورعاياهم بغضاً للإسلام ، وحماسةً وغضباً للمسيحية ، ويرسخ الإصرار في القلوب على دفع غائلة الإسلام ، وعلى التماس قهره بكلّ وسيلةٍ ومن كلّ سبيل ، وتتلهب أمانئ الاستيلاء على كنوزه الباهرة التي لا تنفذ ، والتي غالى في تصويرها لهم العائدون من الحرب الصليبيّة الثالثة ، (وهى الحملات السبع المعروفة باسم « الحروب الصليبية ») ، وصارت أحلاماً بهيجّة يحلم بها كلّ صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، وراهب ورعيّة ، بل

صارت شهوة عارمة تدب ديباً في كل نفس ، بل صارت غريزة مستحكمة من غرائز النفس الأوربية . هذا إنجاز شديد لما كان ، وليكن منك على ذكر أبداً لا تنساه .

كان كل مدد اليقظة ، كما قدمت ، مستجلباً كله من علوم دار الإسلام ، من العلم الحى في علمائه ، ومن العلم المسطر في كتبه . والسبيل إلى ذلك في الأمرين جميعاً كان معرفة لسان العرب . ولن أقص عليك التاريخ الطويل ، ولكن أعلم أن لسان العرب كان له السيادة المطلقة على العالم ، قروناً قبل ذلك طويلاً ، وكانت المسيحية الشمالية مجاورة لهذا السلطان المطلق ، ومصارعة لأهله صراعاً طويلاً تارة ، ومخالطة لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارة أخرى ، ولذلك كان هذا اللسان العربى معروفاً معرفة جيدة لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية ، وفي قلب أوربة نفسها لجاورتها الأندلس . ولن أشغل نفسى بالحديث عن هذا التاريخ ، وقد مضت من قبل إشارة إليه خاطفة ، فالذى يعينى هنا ما كان عند بدء اليقظة في أوربة . فبالهمة والإخلاص والعقل أيضاً ، كان لابد لهم من أن يزداد عدد الذين يعرفون اللسان العربى ويجيدونه زيادة وافرة ، ^(١) لحاجتهم يومئذ إلى أن يعتمدوا اعتماداً مباشراً على الاتصال بالعلم الحى في علماء الإسلام ، لكى يتمكنوا من حل الرموز اللغوية الكثيرة المسطرة في الكتب العربية ، ولا سيما كتب الرياض والجبر والكيمياء والطب والفلك وسائر علوم الصناعة التى قل من يعرفها .

فكان من الأهداف والوسائل ، كما ذكرت قبل ، بعثة أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية وأجادوها إجادةً ما ، تخرج لتسيح في أرض الإسلام ، وتجمع الكتب شراءً أو سرقةً ،

(١) لم يقتصر أمرهم على تعلم اللسان العربى ، بل انطلقوا يتعلمون كل لسان كان في دار الإسلام ، كالتركى والفارسي وغيرهما من لغات كانت للمسلمين منطوقة ، أو في القرايطيس مكتوبة .

وتُلاقى الخاصة من العلماء ، وتُخالط العامة من المثقفين والدَّهماء ، وتُدَوِّن في العقول وفي القراطيس ما عَسَى أن ينفعهم في فهم هذا العالم الذى استعصى على المسيحية واستغلى قروناً طوالاً . يخرجون أفواجاً تتكاثر على الأيام ، ويجوبون أرجاء هذا العالم ، ويعودون لإتمام عملين عظيمين : إمداد علماء اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التى حازوها أو سطَّوْا عليها ، وإطلاعهم على ما وقفوا عليه فيها ، باذلين كُلَّ جُهدٍ ومَعُونَةٍ في ترجمتها لهم ، وفي تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها = وأيضاً إطلاع رُهبان الكنيسة وملوكها على كُلِّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأوه عياناً فيها ، وما لاحظوه استبصاراً . وكانَ أهمُّ ما لاحظوه أو خَبَرُوهُ ، هذه القِفْلة المُطْبَقة على أرض الإسلام ، والتى أورثهم إياها الاستنامة إلى النَّصْر القديم على المسيحية ، والاعتِثار بالنصرِ الحادث بفتح القسطنطينية ، ثُمَّ سِماحةُ أهل الإسلام عامَّتِهِمْ وخاصَّتِهِمْ مع مَنْ دينُهُ يخالف دينَهُمْ ، ولا سِما اليهود والنصارى ، لأنهم أهل كتاب وأهل ذِمَّة ، ولأنهم أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى آينَ مَرِيَمَ عليهما السلام ، ولأنَّ دينَ أحَدِهِمْ لا يَسْلَمُ لَهُ حتَّى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُلِهِ لا يُفَرِّق بين أحَدٍ من رُسُلِهِ سبحانه = وأعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذى يَسَّرَ لهم أن يجوبوا فى الأرض غير مروَّعين ، ويسَّرَ لهم خاصة أن يُدَاهِنُوا العلماء والعامة وينافقوهُم ويوهموهُم بالمكر والمِحَال أنَّهُمْ طُلَّابُ علم لا غير ، خالصة قُلُوبُهُمْ لِحَبِّ العلم والمعرفة ، والله عليمٌ بالسرائر .

ومن يومئذ نشأت هذه الطبقة من الأوربيين الذين عُرِفُوا فيما بعدُ باسم « المستشرقين » ، وهُم أهمُّ وأعظَمُ طبقةٍ تَمَحَّضَتْ عنها اليَقْظَةُ الأوربية ، لأنَّهُمْ جُنْدُ المسيحية الشمالية ، الذين وَهَبُوا أنفُسَهُمْ للجِهادِ الأكبر ، ورضوا لأنفسهم أن يظلُّوا مَعْمُورِينَ فى حياةٍ بدأت تموجُ بالحركة والغنى والصيِّبِ الذائع ، وحَبَسُوا أنفُسَهُمْ بين الجُذُرانِ المخفية وراء أكذاسٍ من الكُتُب ، مكتوبةٍ بلسانٍ غير لسان أُمَمِهِم التى ينتمون

إليها ، وفي قلوبهم كُلُّ اللّهُيب المُمِض الذي في قلب أورثية ، والذي أحدثته فجيحة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام ، ولكن لا همَّ لهمَّ ليلاً ولا نهاراً إلا حيازة كنوز علم دار الإسلام بكُلِّ سبيل ، تتوهج أقدتهم ناراً أعنى من كُلِّ ما في قلوب رُهبان الكنيسة ، ولكنتهم كانوا يملكون من القدرة الخارقة أن يخاطبوا أهل الإسلام في ديارهم ، وعلى وجوههم سيمياء البراءة واللين والتواضع وسلامة الطوية والبشر . وبفضل هؤلاء المتبتلين المنقطعين عن زُخرف الحياة الجديدة = وبفضلهم وحدهم ، وبفضل ملاحظاتهم التي جمعوها من السياحة في دار الإسلام ومن الكتب ، وبذلوا للملوك المسيحية الشمالية ، نشأت طبقة الساسة الذين يُعدون ما استطاعوا من عُدة لرد غائلة الإسلام ثم قهره في عُقر دياره ، ولتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تُخامر قلب كُلِّ أوربي ، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام ، وهم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » = وبفضلهم وحدهم أيضاً ، وبفضل ملاحظاتهم التي زدوا بها رُهبان الكنيسة ، ثارت حمية الرهبان ، ونشأت الطائفة التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل المسيحية ، وللدُخول في قلب العالم الإسلامي لكي تُحوّل مَنْ تستطيع تحويله عن دينه إلى الملة المسيحية ، وأن ينتهي الأمر إلى قهر الإسلام في عُقر داره ، = هكذا ظنوا يومئذٍ = وهذه الطائفة هي التي عُرفت فيما بعد باسم رجال « التبشير » .

فهذه ثلاثة متعاونة متآزرة متظاهرة ، وجميعهم يد واحدة ، لأنهم إخوة أعيان ، أبوهم واحد ، وأمهم واحدة ، ودينهم واحد ، وأهدافهم واحدة ، ووسائلهم واحدة . ليس من همي هنا « التبشير » ، فقد فرغت من بعض شأنه في كتابي « أباطيل وأسمار » ، وليس من همي هنا « الاستعمار » ، لأننا ذُقنا طرفاً من أفاعيله تجربة ومعاشرة ، وإن كان من خذلان الله لنا أننا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح ، ولكن همي هنا مصروف إلى « الاستشراق » لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الأدبية والاجتماعية = ولأن

حَاجَةٌ « التبشير » و « الاستعمار » إليه ، حَاجَةٌ كانت مَلَحَّةً ، وهى إلى اليوم حَاجَةٌ دائمةٌ ، لا يستغنيان عنه ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاته طَرَفَةً عَيْنٍ . ومرةً أخرى ، لا تنسَ ما حييتَ أَنَّ هذه الثلاثة إخوةٌ أعيانٌ لأبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ ، لا تُفَرِّقُ قطُّ بين أَحَدٍ منهم .

...

١٧ - من العسير ، إن لم يكن من المُحَالِ الممتنع ، أن أقصَّ عليك في كتاب كبير ، قصَّةَ شعوبٍ مختلفة كثيرة العدد ، تناولت عليها أيامٌ وتتابعت سنون ، منذ ذَرَّتْ عليهم شمسُ اليقظة ، ثم انبسطت عليهم أشعتها ، حتى تحرَّكت أوصالُ كُلِّ حَيٍّ من جماهيرها الغفيرة ، هذا محالٌ . أفنتظُنُّ ، إذن ، أنى قادرٌ على مثل ذلك في ورقاتٍ قلائلٍ ؟ كلاً ، فما هو إلا هذا الوصفُ السريعُ الخاطف .

تهاوَّتْ في أوربة سُدودُ الجَهل ، وانبثقت اليقظة ، وفُتِحَتْ بعض مغاليقِ خزائن العلم ، وانبثقت ظُلمة « القرون الوسطى » ، ولاحت تباشيرُ فجرٍ جديدٍ ، واصطفَّ الهمجُ الهامجُ كَتائِبَ ترحفُ في أيديها مصابيح ينبعث منها بصيصٌ يُضيءُ ليكشف غيَاهِبَ الظُّلُمات ، واستنارت الطُّرُق ، وازدَحَمَ على سُلوكها كل مُطِيق للزَّحيف . وبالصبر والجُهد وبالجرأة والعزيمة وبنَيْدِ التوانى ، صارت أوربة قوةً تُمدُّها فتوح العلم الجديد بما يزيدها بأساً وصرامةً ولا أقولُ شال الميزانُ ، بل أقولُ بطلُ عملِ الميزان ، وصارَ في الأرض عالَمَانِ عالَمٌ في دار الإسلام مُفَتَّحةٌ عيونُهُم نيامٌ ، يُتَاخَمُ من أوربة عالماً أيقاظاً عيونُهُم لا تنامُ ، وقُضِيَ الأمر الذى فيه تستفتيان ! وبدأت « المرحلة الرابعة » في الصراع بين المسيحية المحصورة في الشمال ، وبين دارِ الإسلام التى تحجُبُ عنهم من ورائها عالماً مُبْهِماً مترامى الأطراف ، (انظر أول الفقرة السالفة : ١٦) .

وكان ما كان ... فمع اليقظة ازدادت « الأهداف » ووضوحاً وجلّاءً ، وازدادت « الوسائل » دقّةً وتحديداً وشمولاً ، بعد أن وعظت أوربة المراحل الثلاث الأولى التي لم تصنع للمسيحية المحصورة في الشمال شيئاً ذا بالٍ . « الأهداف » معروفة لك الآن ، أكبرها شأنًا هو اختراق دار الإسلام ، ثم تمزيقها من قلبها ، ثم الظفر بالكنوز الغالية التي كانت ، ولم تزل ، تراود كل قلب ينبض في أوربة بأحلام شريّة مسعورة إلى الغنى والثروة والمتاع ، غرست بذورها في أعماق النفوس أحاديث العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة . أما « الوسائل » ، فقد وضعت لها قواعد راسخة تُجنبهم أخطاء المراحل الثلاث السابقة التي مُنيت بالإخفاق . كان على رأس هذه القواعد : تنحية السلاح جانباً ، بعد أن ثبت لهم إخفاقه في اختراق دار الإسلام ، لأنه يستثير ما لا يعلمون مغيبته من سوء العواقب ، وكفى بالتجارب الثلاث الغابرة واعظاً . فمن يومئذ صارت القاعدة الراسخة في سياسة أوربة هي اجتناب استئثار هذا العالم الضخم المُبهم الذي كان « الترك » هم طلائعهُ المظفرة الناشبة أظافيرها في صميم المسيحية الشمالية في قلب أوربة = ثم العمل الدائب البصير الصامت الذي يُتيح لهم يوماً ما تقليص هذه الأظافر وخلعها من جذورها = ثم استفاد قوته بالمناوشة والمطالبة والمثابرة ، بالدهاء والمكر والسياسة والصبر المتمادي ، حتى يأتي عليه يوم لا يملك فيه إلا أن يستكين ويستسلم ، وليكن كل ذلك من وراء العفلة ، وبالدهاء والرفق تارة ، وبالتنمر والتكشير عن الأنبياء تارة أخرى ... وكذلك كان ما كان ، وما هو كائن إلى هذه الساعة ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

• وفضّت المسيحية الشمالية قيود الحصار عن نفسها ، وخرجت جحافلها مكتسحة تجوب البحر والبر . انطلقت الأساطيل من شواطئ أوربة مزودة بالعدة والعتاد والرجال الأشداء والمغامرين ، والعلماء والرهبان ، وهدفها أن تطوق دار الإسلام

محيطاً بها من شواطئ المغرب إلى شواطئ الهند ، تتحسّس مواطن الضعف في أقاليمها المتطرقة ، فانقضوا على الضعيف والعاجز والغافل ، وخادعوا وناقضوا ، وآستغفلوا وأرهبوا ، واستنزفوا ونهبوا ، وازدادوا شهوة وشراسة وجوعاً إلى الكنوز المخبوءة في قلب دار الإسلام ، واستضعفوا وسيطروا ، ولهيبت في القلوب لا تطفأ ناره . وفجأة ، ومعونة البحارين المسلمين العرب ، عثر كولبس (١٤٥١ - ١٥٠٦ م / ٨٥٥ - ٩١٢ هـ) على أرض الهند الحمر (أمريكا) . وما هو إلا قليل حتى تدفق السيل الجارف من أوربة ، يجذبه بريق الذهب والغنى ، وملأ المغامرون القساء الغلاظ الأرض البكر ، وزحفوا فيها واستباحوها ، وسفحوا دماء الملايين سفحاً مبيراً ، غدراً وخسّة ، لا يردعهم رادع عن استئصال شأفتهم بقسوة وعنف ، وشقى كل أوربي غليلاً كان في قلبه معداً لدار الإسلام ، واتجهت أساطيلهم إلى إفريقية تحتطف آفاقاً مؤلفة من الآمين السود مسلمين وغير مسلمين ، رجالاً ونساءً وصغاراً ، يحملونهم في السفن إلى هذه الأرض الجديدة البعيدة ، أرض الهند الحمر ، وتهلك في هذه الرحلات آلاف كثيرة منهم تحت السياط ، وتبقى آلاف قليلة تلقى على البر لتكون تحت أيديهم بهائم مسخرة بالذل لعمارة الأرض . وظهر الفساد في البر والبحر ، وبلغت أوربة مبلغاً يزيدُها فجوراً وشراسةً وسفكاً للدماء ، وغطرسة فوق ذلك تزداد على الأيام تعالياً في نشوة عارمة ، نشوة السكران الثمل إلى جانبها إفاقة من سكر ! وصارت أوربة عالماً مخيفاً مرهوب الجانب ، وتزداد كل يوم ثقافة وعلماً ، وفهماً وبقظة ، وتجربة وخبرة في كل خير وشر ، وتزداد أيضاً نفاقاً وخبثاً ومكرًا وغدراً بالآمين حيث كانوا في أرجاء عالم كانت تحجبه عنهم دار الإسلام قروناً طويلة . أما دار الإسلام ، فعلى الأيام وهنت قوة طليعته المسلمة الناشئة في قلب أوربة ، وصارت داراً محصورة في الجنوب ، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية في الشمال . وكذلك بدأت حضارة عتيقة تتضعضق قواها وتربث حبالها ، وقامت في الأرض

حضارةٌ جديدةٌ غُذيت باللّمْ المسفوح ، ومُزِجَت ثقافتها بالمكر والعُذر والدهاء والخُبث ، توَزَّها نارُ أحقادٍ مُكْتَمَةٍ ، ثم صارتْ لهيباً يُرْجُ أجاً = حضارةٌ سوف تطبِّق وجه الأرض ، وهي بذلك كُلُّه حضارةٌ إنسانيةٌ عالميةٌ ، أليس كذلك ؟ ويزيدها إنسانيةٌ وعالميةٌ أنها جاءت مبشرةٌ بدين جديد ، عقيدته مبنيةٌ على البغضاءِ والحقدِ والجشعِ والغدرِ وسفكِ الدماءِ .

• وَمَعَ هذه الأساطيل الفاجرة ، خرجتْ من مَكامِها أعدادٌ وافرةٌ من رجالٍ يجيدون اللسان العربيَّ والسنةَ دار الإسلام الأخر ، ومنهم رُهبانٌ وغير رُهبانٍ ، وركبوا البَرَّ والبحرَ ، وزحفوا زَرَافَاتٍ ووُحْدَاناً في قلبِ دار الإسلام : على ديار الخلافة في تَرْكِية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوفِ إفريقيا وممالكها المسلمة = خرجوا وفي القلوب حميةُ الحقدِ المكْتَمِ ، وفي النفوس العزيمةُ المصنَّمةُ ، وفي العيون اليقظةُ ، وفي العقول التنبُّهُ والدكاءُ ، وعلى الوجوه البشرُ والطلاقةُ والبراءةُ ، وفي الألسنة الحلاوةُ والجلابةُ والمُماذقةُ ، ولَبِسُوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيٍّ : زِيَّ التاجر ، وزِيَّ السائح ، وزِيَّ الصَّدِيقِ الناصح ، وزِيَّ العابدِ المُسلمِ المتبَيِّلِ = وتوغَّلوا يستخرجون كُلَّ مخبوءٍ كان عنهم من أحوالِ دار الإسلام ، أحوالِ عامَّةٍ وخاصَّةٍ ، وعلمائِهِ وجُهاَّه . وحُلَمائِهِ وسُفْهائِهِ ، وملوكه وسُوقته ، وجيوشِهِ ورعيَّته ، وعبادته ولهوهِ ، وقُوته وضعفه ، وذكائه وغفلته ، حتَّى تدسَّسُوا إلى أخبارِ النساءِ في خُدُورِهِنَّ ، فلم يتركوا شيئاً إلَّا خَبَرُوهُ وَعَجَمُوهُ ، وفَتَّشُوهُ وَسَبَرُوهُ ، وذاقُوهُ واستشفُّوهُ . ومن هؤلاءِ ، ومن خَبَرْتَهُمْ وتجربْتَهُمْ ، خرجتْ أهُمُّ طبقةٍ تمَحَّضَتْ عنها اليقظةُ الأوربية « طبقةُ المستشرقين » الكبار ، وعلى علمهم وخبرتهم وتجارِبهم ، رَسَتْ دعائمُ « الاستعمار » ، ورَسَخَتْ قواعدُ « التبشير » كما وصفتُ لك أمرَهُم في آخرِ الفقرة السادسة عشرة = وَأَلْتَقَتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ ، هذه المرأةُ ، على دار الإسلام ، واسترختْ حَلَقَتَاهُ عن المسيحية الشمالية ، (انظر أول الفقرة : ١٤ ، ص : ٣٨) .

• وما هو إلا قليل حتى كان تحت يد « الاستشراق » آلاف مؤلفة من مخطوطات من كُتِبَ دار الإسلام نفيسة منتقاة ، مُشترأة أو مسروقة ، موزعة مفرقة في جميع أرجاء أوربة وأذيرتها ومكتباتها وجامعاتها ، وأكْبَّ عليها « المستشرقون » المجاهدون الصابرون ، الذين هجروا دُنْيا الناس المائجة بكُلِّ زُخْرِفٍ ومتاع ، وعكفوا بين جُدرانِ صامتة مُغلقة ، وأكداس من الأوراق المكتوبة بلسان غير لسانِ أقوامهم ، يَقْضُونَ سحابة النهارِ وزُلْفاً من الليل يَفْرِزونها ورقة ورقة ، وسطراً سطراً ، وكلمة كلمة ، بصيرٍ لا ينفد وعزيمة لا تكِل ، ويكابدون كُلَّ مشقة في الفَهم والوقوف على أسرارِ المعاني المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربيّة أو غير العربيّة في كل عِلْمٍ ومعرفة وفنٍّ ، ديناً كان أو أدباً أو لغة أو شعراً أو تاريخاً أو علمَ بلدان ، (جغرافية) ، أو طبّاً أو رياضة أو فلکاً أو صناعات وآلاتٍ ، كُلُّ ذلك يدرسونه بدقة ونظام وترتيب ، ويتعاونون كامل بينهم مهما تباعدت بلادهم وأوطانهم . ثم لا تنقطع لهم رحلة في قلب دار الإسلام وفي أطرافها ، يَجُسُّون ويُجَرِّبون ويختبرون ، ويتعلمون ويسألون ، ويجمعون كُلَّ خِبرة وكُلَّ تجربة وكُلَّ معرفة ، وكُلَّ صغير وكبير يُعينُهم على الدرس والاستفادة ، وعلى فَهم أسرارِ هذا العالم الغريب الذي كان بالأمس ممتنعاً على الاختراق قروناً طوالاً .

ولما كانت هذه المخطوطات التي يعكفُ نَفَرٌ منهم على دراستها متفرقة في البلاد ، وحبيسة تحت يد عَدَدٍ قليل جدّاً ، قد يكون رجلاً واحداً في قرية أو دير ، عمَدوا إلى نشر بعضها مطبوعة ، لتكون تحت يد كُلِّ دارس مستشرق في أيِّ بلدٍ كان من بلاد أوربة ، ^(١) ولكي تكون الفائدة أكثر تماماً ، والجُهدُ أكثرَ جدوى ، أنشأوا أيضاً مجلات

(١) لا تصدِّق من يقول لك إن « الاستشراق » قد خدَمَ اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نُشِرَ هذه الكتب التي اختارها مطبوعة ، فهذا وهم باطل . كانوا لا يطبعون قطُّ من أي كتاب نشره أكثر من خمسة =

بِكُلِّ لسان من ألسنتهم ، ينشر فيها كُلُّ مستشرقٍ نتائجَ بحثه ودراسته ، ويعرضُ كُلَّ تجاربه وخبرته وملاحظاته ، لتكونَ عوناً لكلِّ دارسٍ مستشرقٍ وغير مستشرق ، وهي مجلَّاتُ الدراسات الإسلامية أو الشرقية . بل سَمَتِ هِمَّتُهم فبدأوا صُنْعَ « جواهر الإسلام » التي يسمونها « دوائر المعارف الإسلامية » ، ^(١) وكذلك صار « الاستشراق » في أوربة كُلِّها هيئةً واحدةً ، لها هدفٌ واحدٌ ، ونظامٌ واحدٌ ، وهِمَّةٌ واحدةٌ ، وفَهْمٌ واحدٌ ، وأسلوبٌ واحدٌ ، ونَظَرٌ مُشْتَرَكٌ واحدٌ ، إلى حضارة دار الإسلام قديمها وحديثها .

• كان هذا « الاستشراق » في نَائِثَةِ الأولى ، بعد سبعة قرون من الصِّدام الذي انتهى بإخفاق الحروب الصليبية قائماً على أفرادٍ قلائل : إمَّا طالبٍ معرفةٍ وعلمٍ يتعلَّم من العرب المسلمين لِيَقْشَعَ الجَهِلَ عن نَفْسِهِ وقومه ، كما فعل « يِكُنْ » وطبقته = وإمَّا راهبٍ ذى حِمِيَّةٍ ودفاعٍ عن دينه ، حينَ أَحْسَسَ بِالخَلَلِ الواقع في الحياة المسيحية ، فكَثَّلَ هِمَّهُ أَنْ يُصْلِحَ خَلَلَ المسيحية وبِمَكْنَهَا من حُجَّةٍ مُقْنِعَةٍ تحوِّل بين الناس وبين الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته والتساقط فيه ، مُتَّكِئاً على ما عند دار الإسلام من العلم ، كما فعل « ثوما الإكويرِنِّي » ، (انظر ما سلف فقرة : ١٤ ص : ٣٩ ، ٤٠)

أَمَّا في أَوَّلِ نَائِثَةِ الثانية ، عند فجر اليقظة الأوربية ، فكانت بَعَثَاتُهُ في دار الإسلام تعود من جَوَلَتِها إلى أوربة لأداءِ عملين عظيمين هما : إمداد علماء اليقظة بمزيدٍ

= نسخة ، = ولم تزل هذه سُنَّتُهُم إلى يومنا هذا = توزَّعَ على مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكا ، وما فَضَّلَ بعد ذلك وهو قليلٌ جداً ، كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر ، لم يسعوا قَطُّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين ، كما يسوقون بضائعهم وتجاراتهم وسائر ما ينتجون ، بين هذه الملايين طلباً لربح المال . هدفهم كان ما قلْتُ لك لا غير .

(١) « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » كما هو شائع ، اخترتُ أَنْ أَسْمِيَهَا « جَمْهَرَةٌ » ، كما سَمَى أسلافنا كتبهم « جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ » و « جَمْهَرَةُ الْأَنْسَابِ » و « جَمْهَرَةُ الْأَمْثَالِ » ، وبينتُ ذلك في كتابي « أباطيل وأسما » ص : ٢٧٣ ، ٢٧٤ . وجمع « جَمْهَرَةٌ » « جواهر » .

مما وقفوا عليه من كنوز العلم في دار الإسلام ، يفسرون لهم رموزها ، ويترجمون لهم ما استطاعوا فهمه منها ، ثم إطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على ما علموا ولاحظوا من أحوال المسلمين ، (انظر ما سلف الفقرة : ١٦ ، ص : ٤٨) .

= أما عند انبثاق اليقظة واستحكام أمرها ، حين صارت ضوءاً شاملاً يسرى في جماهير غفيرة متنوعة الأهداف والأهواء والأغراض ، فقد هبت أفواج منها زاحفة زحفاً متتابعاً على دار الإسلام وغير دار الإسلام ، مُصنّعة في طريقها إلى التفوق والعلبة والانتشار ، بلا قرين ، (أى نظير) ، يكافئها في اليقظة والتنبيه والتصميم ، يصدها ويكفكف من غلوائها ، ويعوق من زحفها = وعندئذ أيضاً كان « الاستشراق » قد كسب هو أيضاً يقظة فائقة ، وبصيرة نافذة ، وتنشأ لامعاً ، وتكونت الطبقة الأولى من « المستشرقين » الجادّين النابهين ، التي سوف تراثها طبقة أساطين « الاستشراق » وذهابيه الكبار ، (« الدّهقان » وجمعه « دهاقين » : الرجل الحديد الماضي القوى على التصرف) ، فهؤلاء جميعاً الذين وقع عليهم العبء الأكبر في تيسير الأمر للزحف الأوربية المتتابعة المستمرة التي اقتحمت دار الإسلام فاستعمرتها ، وغيّرت وجه الحياة فيها تغييراً بعيد الغور ، لم يزل سارياً إلى يومنا هذا كما سترى .

...

١٨ - ينبغي أن يكون بيناً لك أن أوربة عند استواء يقظتها ، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذي بلغته قد ضمن لها التفوق الحاسم ، وأنها مُقبلّة على زحف شامل يخترق قلب دار الإسلام ، لا بقعقة السلاح ، بل بوسائل أخر أمضى من وقع السلاح ، أدرك ذلك ساستها ورهبانها وعلمائها وعامة جماهيرها المثقفة . وهذا الزحف الصامت المصمّم الخفيّ الوطء ، سوف يضمّ ألوفاً مؤلفة من أشتات الناس ، ما بين تاجر وصانع

ومُعَامِر ومدرّس وسائح ومبشّر وجنديّ وسياسيّ وراهبٍ وطالب معرفةٍ وأفانيّ وصفّاقٍ ومتكسّيب . والنيّة أن تتكوّن من هؤلاء الأشتاتِ جالياتٍ كبيرة تُقيم في دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطوّل عشرتهم أو تقصّر ، ولكل امرئٍ منهم اتجاؤه أو هوى أو أسلوب أو فهم . فأمرٌ مخوفٌ أن يخالطوا عالماً له دينٌ وحضارةٌ باقية الآثار ، كان له الغلبة والتفوّق والسيادة من قبل قروناً طويلاً ، كما جرّبوا وعلموا = أمرٌ مخوفٌ أن يخالطوه دون أن يكون لهذا العالم عند أكثرهم صورةٌ مستقرّة في أنفسهم ، تحميهم من التفريق والضياع فيه ، وتُحصّنهم أيضاً من الانبهار بالإسلام وحضارته كما انبهر أسلافهم غيّروا ، فصار حتماً أن يكون في مُتناوّل هؤلاء صورةٌ للإسلام وحضارته ، مكتوبةٌ بدقّة ومهارة ، ومُقنّعة أيضاً لكلّ عقلٍ مُتطلّع ، يُصوّرُها لهم خبيرٌ ثقةٌ مأمونٌ عندهم .

و « المستشرقون » المتبطلون ، بلا شكٍّ عندهم ، هم أهلُ الخبرة بكُلِّ ما في دار الإسلام قديماً ، وما هو كائنٌ فيها حديثاً = من دَقِيق العلوم عند خاصّة المسلمين ، إلى خفيّ أحوال المسلمين من عاداتهم ومعايشهم وطرائق أفكارهم وخصائص حياتهم ، إلى علمٍ وثيقٍ بشأن دُولهم وأقاليمهم وبلدانهم التي تُغطّي أكبر رُقعةٍ من الأرض . وهم قد جمعوا كُلَّ ذلك وعكفوا عليه وتأمّلوه ودرسوه ونظّموه ورثّبوه بعناية فائقة ، وبهمةٍ وجَلْدٍ وتنبّهٍ ونفاذٍ بصير . فكلُّ دارسٍ منهم مأمونٌ عند كُلِّ أوربيٍّ ، من أوّل طبقة الرُهبان والسّاسة إلى آخر رجلٍ من جماهير الناس = مأمونٌ على ما يقوله ، مصدّقٌ فيما يقوله ، في أمورٍ لا سبيلَ لأحدٍ منهم إلى معرفتها ، لأنها تتعلّق بأقوامٍ لسانهم غير لسانهم ، ولا يقومُ بها إلاّ دارسٌ صابرٌ ذو معرفةٍ بهذا اللّسان الغريب ، مُتصِفٌ بصفتين لا بُدَّ منهما حتّى يكون مأموناً مُصدّقاً :

الصفة الأولى : أن في قلبه كُلَّ الحميّة التي أثارها الصراعُ بين المسيحية المحصورة في الشمال ، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق على مدى عشرة قرونٍ على الأقلّ =

وأنّ في صميم قلبه كلّ ما تُكِنُّه المسيحيّة الشماليّة من البغضاء النافذة في غورِ العظام ،
والتي أورتها الحروب المتطاوله ، كما وصفها لك آنفاً في الفقرة الخامسة عشرة والسادسة
عشرة ، (ص : ٤٢ - ٤٦) .

الصفّة الثانية : أنّ في صميم قلبه كلّ ما تحمله قلوبُ خاصّة الأوربيين وعامّتهم ،
ومُلوكهم وسُوقَهم ، من الأحلام البهيجة والأشواق الملتبّهة إلى حيازة كلّ ما في دار
الإسلام من كنوز العلم والثروة والرفاهية والحضارة . أحلامٌ وأشواقٌ أورشهم إياها
الاحتكاكُ المستمرُّ تروناً بهذه الحضارة الزاهية الغنيّة التي كانت يومئذٍ في دار الإسلام .
وبهاتين الصّفّتين يكون مؤهّلاً لحمل هُُموم المسيحية الشماليّة التي ظلّت قروناً
محصورة في الشمال ، ودليلٌ إخلاصه المُطلق لهذه الهُموم ، هو تبتُّله الذي يقطع ما بينه
وبين زهرة الحياة الدُّنيا وزينتها من حوله ، حبساً بين جذرانٍ تضمُّ رُكّاماً من أوراقٍ قديمةٍ
مكتوبةٍ بلسانٍ غير لسانِ قومه ، قد رضى لنفسه أن يبقى اسمه في دنيا الناس مغموراً
غير مشهورٍ (انظر ما سلف ص : ٤٨) .

ويديهيّ أن يكون « المستشرقون » ، كما عرفت صفّتهم ، همُ أسبقُ الناس إلى معرفة
هذه الحاجة الملّحة التي تضمنُ للرّخف الأكبر على دار الإسلام أن يسيرَ على هُدًى
لا يختلُّ ولا يضلُّ ، ويعصمُ أكبر قدرٍ ممكنٍ من أشتات الزاحفين ، حين يدخُل دار
الإسلام ليطولُ مُقامهم بها ، ويجرى بينهم وبين من يخالطونهم ما يجرى بين الناس من
التفاوض وتجادب الأحاديث = يعصمه أن ينهر بما يرى أو يسمع ، أو أن تضعفَ حميّه ،
أو تلينَ قنّاته ، أو يتردّد ويتلجّج . لا بدّ إذن من أساسٍ يرتكز عليه تفكيره ، ومن صورةٍ
سابقة شاملةٍ ثابتةٍ يثقُ بها ويطمئنُ إليها ، ويثقُ أيضاً بصدقها وأمانتها ، حتّى يتمكنَ من
أن يرفض أكثر ما يرى وما يسمع ، إذا هو خالف ما يعتقد أنّه الصورة الوثيقة

المأمونة التي سوَّغَهُ إيَّاهَا دارسٌ عارفٌ بأحوال هؤلاء الناس . واستقلَّ « المستشرقون » بحمل هذا العبء الجديد الثالث ، (انظر ما سلف ص : ٥٤) ، فكتبوا لجماهيرهم آفاقاً من المقالات ، ومئاتٍ من الكتب ، تناولتْ كُلَّ شيءٍ يخصُّ أُمَّةَ دار الإسلام في ماضيها وحاضرها . كتبوا في القرآن ، وفي حديث رسول الله ﷺ وسيرته ، وفي تفسير القرآن ، وفي الفقه ، وفي تفاصيل شرائع الإسلام ، وفي تاريخ العرب والمسلمين ، وفي الأدب ، واللغة ، والشعر ، وفي الفنون والآثار ، وفي علم البلدان ، (الجغرافية) ، وفي تراجم رجال الإسلام ، وفي الفرق الإسلامية ، وفي الفلسفة عند المسلمين ، وفي علم الكلام = في كُلِّ ما ذكرتُ وما لم أذكرْ ، كتبوا وألَّفوا وصنَّفوا ، لكن لهدفٍ واحدٍ لا غيرُ : هو تصويرُ الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مُقنعةٍ للقارئ الأوربي ، وبأسلوبٍ يدلُّه على أنَّ كاتبها قد خبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كُلَّ جُهدٍ في الاستقصاءِ ، وعلى منهجٍ علميٍّ مألوفٍ لكلِّ مثقفٍ أوربيٍّ ، وأنه وصلَ إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه ، بعد خبرةٍ طويلةٍ وعَرَقٍ وجُهدٍ وإخلاصٍ ، حتى لا يشكَّ قارئٌ في صدق ما يقرؤه ، وأنَّه هو اللبَّابُ المُصنِّفُ من كُلِّ كَدَرٍ ، والمُبْرَأُ من كُلِّ زَيْفٍ ، وأنه الحقُّ المبينُ والصِّرَاطُ المستقيم .

• كان جوهرُ هذه الصُّورة ، المبتوثُ تحت المَبَاحِثِ كُلِّها ، هو أنَّ هؤلاء العربَ المسلمين هم في الأصل قومٌ بُدِّأَ جُهَالٌ لا علمَ لهم كانَ ، جِياعٌ في صحراءٍ مجدبةٍ ، جاءهم رجلٌ من أنفُسِهِم فادَّعى أنَّه نبيٌّ مرسلٌ ، ولَفَّقَ لهم ديناً من اليهودية والنصرانية ، فصَدَّقوه بجهلهم وأتبعوه ، ولم يلبث هؤلاء الجياعُ أن عاثوا بدينهم هذا في الأرضِ يفتحونها بسيوفهم ، حتى كان ما كان ، ودانَ لهم من غوغاءِ الأممِ مَنْ دانَ ، وقامت لهم في الأرضِ بعد قليلٍ ثقافةٌ وحضارةٌ جُلُّها مسلوبٌ من ثقافات الأممِ السالفة كالفرسِ والهند واليونان وغيرهم ، حتَّى لُعْتُهم كُلُّها مسلوبةٌ وعَالَةٌ على العِبرية والسُريانية والآرامية والفارسية

والحَبَشِيَّة . ثم كَانَ من تصارييف الأقدار أن يكون علماء هذه الأُمَّة العربية من غير أبناء العرب ، (المَوَالِي) ، وأنَّ هؤلاءِ هم الذين جعلوا هذه الحضارة الإسلامية كُلُّها معنى . هذا هو جوهرُ الصورة التي بَنَّها المستشرقون في كُلِّ كُتُبهم عن دين الإسلام ، وعن عُلُوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتهم ، وأنَّ هذه الحضارة إنما هي إحدى حضارات « القرون الوسطى » المظلمة التي كان العالم يومئذٍ غارقاً فيها = يعنون عالمهم هم = يَجْرِى عليها حُكْمُ قرونهم الوسطى ! بَنُّوا تلك الصورة في كُلِّ كُتُبهم بمهارة وحَذِقٍ وخَبِثٍ مُعْرِقٍ ، وبأسلوبٍ يُقْنِع القارئ الأوربيَّ المثقَّف الآن كُلَّ الإقناع ، وتنحطُّ في نَظَره حضارة الإسلام وثقافته انحطاطَ « القرون الوسطى » ، ويزداد بذلك زَهْواً بأنَّ أسلافه من اليونان والآريين كانوا هم رُكائز هذه الحضارة المزيَّفة الملقَّبة ديناً ولُغةً وعلماً وثقافة وأدباً وشعراً ، ويزداد بذلك الأوربيُّ ، أيَّا كان ، غَطْرسةً وتعالياً وجَبَرِيَّةً ، ولا يرى في الدُّنيا شيئاً لَهُ قيمةً ، إلَّا وهو مستمدٌّ من أسلافه اليونان والآريين والهِمَج الهامج !

ومن خلال الصراخِة العارية التي طرحتْ كُلَّ حجابٍ ، أو الصراخِة المتحجَّبة بالبراءة وخلوص النية وحبِّ العلم ، أو بالصراخِة الحيَّة التي أمالها الحَقَرُ ، (شدة الحياء) ، إلى التبرُّج بحبِّ الإنصاف ، استطاع « الاستشراق » أن يجعل هذه الصورة حيَّةً متحركة في جميع كتبه ومقالاته ودراساته ومباحثه على اختلافها ، حتى الدراسات التي تستعصى على قبول هذه الصورة واضحة لم تخلُ من غَمَزٍ خَبِيٍّ وَلَمَزٍ خَفِيٍّ يستدعى حُضُور هذه الصورة بطريقةٍ ما . وكذلك نجح « الاستشراق » في تحقيق هدفه كُلِّ النجاح ، واستطاع أن يُدرج الإسلامَ وشرائعه وثقافته وحضارته في مُسْتَنَقع « القرون الوسطى » الذي طَمَرته « النهضة الحديثة » ووَطِئَتْهُ « عصر الإحياء والتنوير » بأقدامه وَطَاةَ المُتَنَاقِل . وبذلك عَصَمَ العقل الأوربيُّ المثقَّف من أن يَزِلَّ زَلَّةً ، فبرى في دين الإسلام أو في ثقافته وحضارته ، ما يوجبُ انبهاره كما انبهر أسلاف له من قَبْل تساقطوا في

الإسلام وثقافته وحضارته طواعيةً ، ثم صاروا ، مع الأسف ، من بُناة مجده على مدى اثني عشر قرناً على الأقل . واعلم أني على عَمْدٍ هُنَا أتناسى عمل « الاستشراق » في السَّطُو على الكنوز المخبوءة كانت في علم دار الإسلام ، ثم ما بذلوه في نقله سيراً إلى علمائهم في زمن النُّانَةِ وما بعدها ، لَيَبْنُوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا ، وكيف أغلقُوا الأبواب على ذِكْر ما سَطَوْا عليه بالضَّبط والمفتاح ، حتى لا يعلم خَيْبَتُهُ أَحَدٌ ، حتى ولو كان أوربياً قُبْحاً = وأتناسى على عَمْدٍ مَنى أيضاً حديث السفاهة والبذاءة التي جرت على ألسنة دَهَاقِينهم من المطاعن في القرآن العظيم ، وفي رسول الله ﷺ وصَحَابَتِهِ ، إمذاً لهيئات « التبشير » ، للقيام بعملها النبيل في دار الإسلام وفي توابعه التي كانت محجوبة عنهم ، ثم انفسح لها الطريق مع الزحف الأكبر .

• وَيَبِينُ لَكَ الْآنَ بَلَا خَفَاءٍ أَنَّ كُتُبَ « الاستشراق » ومَقَالَاتِهِ ودراساتِهِ كُلُّهَا ، مكتوبة أصلاً للمثقف الأوربي وحده لا لغيره = وَأَنَّهَا كُتِبَتْ لَهُ لهدفٍ مُعَيَّنٍ ، في زَمَانٍ مُعَيَّنٍ ، وبأسلوبٍ مُعَيَّنٍ ، لا يَرَادُ به الوصول إلى الحقيقة المجردة ، بل الوصول الموفق إلى حماية عَقْلِ هذا الأوربي المثقف من أن يتحرَّك في جهةٍ مخالِفةٍ للجهة التي يستقبلها زحفُ المسيحية الشمالية على دار الإسلام في الجنوب = وأن تكون له نظرةٌ ثابتةٌ هو مقتنعٌ كلُّ الاقتناع بصحَّتِها ، ينظر بها إلى صورةٍ واضحةٍ المعالم لهذا العالم العربي الإسلامي وثقافته وحضارته وأهله = وأن يكون قادراً أيضاً على خَوْضٍ ما يخوض فيه من الحديث مع من سوف يلاقِيهم أو يعاشِرُهُم من المسلمين ، وفي عقله وفي قلبه وفي لسانه وفي يقينه وعلى مَدِّ يده ، معلوماتٌ وافرةٌ يثقُ بها ويطمئنُ إليها ويُجَادِلُ عليها ، دون أن تضعفَ له حَمِيَّةٌ ، أو تَلِينَ لَهُ قَنَآةٌ ، أو يتردَّد في المنافحة عنها أو يتلجج ، أيّا كان الموضوع الذي تدفعه المُفَاوِضَةُ إلى الخوض فيه .

و « الاستشراق » لا يُدْمُ لأنه فَعَلَ كُلَّ ذلك ، لأنه بلا شكٍ قد أَدَّى ما عليه لبنى جِلْدته أحسنَ أداءٍ وأتمه ، ونَصَرَ أهل دينه وأخلصَ لهم كُلَّ الإخلاصِ ، وكافَحَ في سبيلِ هَدَفِهِ بِكُلِّ سلاحٍ أَجَادَ صَقْلَهُ وتقويمَهُ = أَمَّا الذى هو حَقِيقُ بالذِّمِّ والمَعَايَةِ ، فالعَاقِلُ الذى يَظُنُّ نفسه عَاقِلاً ، والبَصِيرُ الذى يَظُنُّ نفسه بَصِيراً ، ثم لا يكاد عقله يدرك شيئاً هو أبين بياناً من البدائهِ المسلَّمة ، ولا يكادُ بَصَرُهُ يَرى ما هو أَظْهَرُ ظَهوراً من الشمسِ الساطعة .

فما كتبه « الاستشراق » ، من حيثُ هِى كُتِبَ أو دراساتٌ مكتوبةٌ للمُثَقَّفِ الأوربِيِّ خاصَّةً ، ولهدِيفِ بعينه ، حقيقةً باحترامِ كُلِّ أوربِيٍّ مُثَقَّفٍ = أو من كان بمنزلة الأوربِيِّ المُثَقَّفِ فى العُرْبَةِ عن العَرَبِيَّةِ والإِسلامِ = لأنها يَسَّرَتْ له ما لم يكن ليتيسَّرَ البتَّةُ : أنْ يَعْرِفَ أشياءَ كَثِيرَةً مُتَنَوِّعَةً هو عن عَالَمِهَا غَرِيبٌ كُلُّ العُرْبَةِ ، وأنْ يَرى عَالَمَهَا فى صورةٍ واضحةٍ مَصَوَّرَةٍ بِمَهَارَةٍ ، ومَصْنُوعَةٍ بِأَسْلُوبٍ مُقْنِعٍ مَقْبُولٍ لا يَرُفُضُهُ عَقْلُهُ ، بل لعله يَرْضِيهِ كُلُّ الرَضَى . ولأنَّ هذا العَالَمَ الذى يراه مَصَوَّراً عَالَمٌ غَرِيبٌ عنه ، ولا سَبِيلَ لَهُ إلى معرفة الحقيقة فيه ، لولا الجُهدُ العَظِيمُ الذى بذلَهُ دهاقِينُ المُستشرقين الكبارُ فى تصوُّيره ، فهو غَيْرُ حَرِيصٍ بعد ذلك على التَحَقُّقِ من صَحَّةِ التَفَاصِيلِ التى تكونت منها الصورة ، ولا هو قادِرٌ على التَشَكُّكِ فى سَلَامَتِهَا من الآفَاتِ ، ولا يَحْطَرُّ بِبَالِهِ أنْ يَسْأَلَ نفسه : أهى صادقةٌ أم كاذبةٌ ؟ أهى مطابقةٌ للحقيقة أم غير مطابقةٍ للحقيقة ؟

أَمَّا من حيثُ هِى كُتِبَ أو دراساتٌ علميةٌ جَدِيدَةٌ باحترامِ مُثَقَّفٍ غَيْرِ أوربِيٍّ ، أى من أبنائِ العربِ والمُسلمين خاصَّةً ، أى أبناءِ لُغَةِ العربِ وأبناءِ دينِ الإسلامِ ، فهذا عندئذٍ موضعُ نَظَرٍ = لأنَّ الأمرَ ، ولا خيارَ لى أو لك فيه ، يَخْتَلِفُ اختِلافاً بَيِّناً حينئذٍ ، ويتَطَلَّبُ النظرُ فى أمرين : أمرِ الكاتبِ وأمرِ المَكْتُوبِ معاً ، وهذا يَرُدُّكَ لَا محالةً إلى ما كَتَبْتَهُ لك آنفاً فى شَأْنِ « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، (ما سلف ص : ٢١ - ٢٣) ، سواءً كان الكاتبُ عربياً

أو غير عَرَبِيٍّ ، (أى مستشرقاً أوروبياً) . ولذلك يحسنُ بك هنا أن تُعيد قراءته بتأنٍ وحذرٍ ، لأنه غير لائق أن أعيد ذكره في هذا الموضع مفصلاً ، وإنما هي الإشارة إليه لا غير . وأعلمُ أنني سأبينُ لك الأمر هنا في حالةٍ واحدةٍ ، هي حالة استحقاق الدراسة أن توصف بأنها « علمية » ، وهل هو أمرٌ ممكنٌ أن يكون ما كتبه « المستشرقون » دراسةً « علميةً » بمعناها الصحيح ، الموجب للاحترام والتقدير . وكُنْ أبداً على ذكرٍ بأن ما قلته عن « المنهج » و « ما قبل المنهج » هو : « أصلُ أصيلٌ في كُلِّ أُمَّةٍ ، وفي كُلِّ لسانٍ ، وفي كُلِّ ثقافة حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومللهم ونحلهم » (ص : ٢٣) ، فهو أمرٌ لا يختلف فيه اثنان من البشر مهما تباينا لغةً وثقافةً وديناً ، ولا تقوم في أمةٍ ثقافة أو حضارةٌ إلا بالالتزام بهذا الأصل الأصيل في ثقافتها أو حضارتها . (اقرأ بدقة ما كتبه آنفاً من ص : ٢١ - ٢٣) .

١٩ - « ما قبل المنهج » ، كما علمت ، مكّون من شطرين : « شطر جمع المادة » و « شطر التطبيق » ، فلننظر الآن أين يقع « المستشرق » منهما ليكون الأمر واضحاً لك كُلِّ الوضوح ، وأنا مُحدّثك عنهما بإيجازٍ شديدٍ جداً ، وفيما مضى قبلُ بلاغٌ يضيء لك الطريق .

• فالشرط الأول ، « شطر جمع المادة » كما قلت : « يتطلّب جَمْعَهَا من مظائرها على وجه الاستيعاب ، ثم تصنيف هذا المجموع » ، (ص : ٢٢) ، وهذا ممكنٌ للمستشرق إمكاناً ما ، مع ما فيه من العوائق الجليّة ، بلّة العوائق الخفية التي تحتاجُ إلى بسط وإيضاح = « ثم تمحيصُ مفرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزاء تراكيبه بدقة متناهية ، وبمهارّة وحذقٍ ، حتّى يتيسّر للدارس أن يرى ما هو زَيِّفٌ واضحاً جليّاً ،

وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ، وبلا هوى ، وبلا تسرعٍ ، (مر : ٢٢) . وهذا مبنى على ما سبقه ، فهو ممكنٌ للمستشرق بعضه بصورةً ما ولهدفٍ ما ، ومستحيلٌ بعضه أن يكون منه عنده مثقالُ ذرةٍ بصورةٍ أخرى ، لأنه يدخل في حديث آخرٍ سيأتي بعد قليل ، وهو حديث « اللغة » و « الثقافة » و « الأهواء » .

• وأما الشطرُ الثاني ، « شطر التطبيق » ، فكما قلتُ لك : « فيقتضى ترتيب المادة ، بعد نفى زيفها وتمحيص جيدها ، باستيعاب أيضاً لكل احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرع » ، (مر : ٢٢) . وهذا ، بلا شكٍ ، مترتبٌ على الشطر الأول كُله ، فما كان ممكناً فيه فهو ممكنٌ هنا ، وما كان غير ممكنٍ فهو هنا أيضاً غير ممكنٍ = ثم على الدارس أن يتحرى لكل حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقٌ موضعها ، لأن أخفى إساءةٍ في وضع إحدى الحقائق في غير موضعها ، خلیقٌ أن يشوهَ عمودَ الصورة تشويهاً بالغ القبح والشناعة » ، (مر : ٢٢) ، وهذا غير ممكن البتة ، بل هو ممتنعٌ ، بل هو مستحيلٌ ، لأن عمل « الاستشراق » كُله مبنى على رسم صورةٍ محدّدةٍ قائمةٍ في نفسه ، منصوبةٍ لعينه ، يرسمها لهدفٍ معيّنٍ مقصودٍ لذاته ، ومن أجل إحداثِ هذه الصورة المُقنعة للمثقف الأوربي يُعاني مشقة « جمع المادة » ، ويكبدُ كدّاً في ممارسة « التطبيق » . وقد بينتُ لك آنفاً « أهداف الاستشراق » ، (في الفقرتين : ١٦ ، ١٧) ، وكشفتُ لك حقيقة « الصورة » ، (في الفقرة : ١٨ ، مر : ٥٩ ، ٦٠) فهذا العملُ وحده ، أو هذا القصدُ المتعمّدُ وحده ، آفةٌ خبيثةٌ كافيةٌ وحدها في إسقاط عمل « الاستشراق » كُله إلى حضيض الفساد والإفساد في « ما قبل المنهج » ، ومُفضيةٌ بعد ذلك إلى قذِفِ عمله كُله منبذاً خارجَ حدود كُلِّ ما يمكن أن يوصف بوجهٍ ما أنه « عملٌ علميٌّ » خالصٌ . ومُحقّرٌ لعقله من لا يدرُكه ، فدع عنك من يريّضيه ؟ ومُعطى على بصره من لا يَبصره ، فما ظنُّك بمن يُنافح عنه ؟ فإنه كما قلت آنفاً : « أبينُ بياناً من البدائهِ المسلّمة ، وأظهرُ ظُهوراً من الشمس الساطعة » ، (فقرة :

١٨ ، ص : ٦٢) .

• والنازلون في مَيِّدَانِ « المنهج » ومَيِّدَانِ « ما قبل المنهج » من الكتاب والعلماء ، في كُلِّ لغةٍ ، وفي كُلِّ أُمَّةٍ ، وفي كُلِّ مِلَّةٍ ، وفي كُلِّ ثقافةٍ ، لهم شروطٌ مُحْكَمَةٌ لَا يُمَكِّنُ إغفالُها البتَّةَ ، فهي أركانٌ لَا يقومُ بناءٌ إِلَّا عليها ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يسمَّى « كاتباً » أو « عالماً » أو « باحثاً » إِلَّا مَنْ حاز أكبرَ قَدَرٍ من هذه الشروطِ ضَرِبَةً لَارِبٍ . ولم تُوجَدِ على الأرضِ أُمَّةٌ واحدةٌ سمحت لأحدٍ أَنْ ينزِلَ ميدانَ « ما قبل المنهج » وميدانَ « المنهج » في أَمٍّ عِلْمٍ كَانَ أَوْ فَنٍّ ، إِلَّا وَهُوَ مُطِيقٌ لِلنَّزُولِ فِيهِ بِحَقِّهِ ، فَإِذَا اجْتَرَأَ مَجْتَرِئٌ عَارٍ من الشروطِ وَقَعَلَ ، نُفِيَ وَطَرِدَ طَرْدًا ، وَأَبْوَأَ مَنْ أَنْ يَعُدَّهِ فِي الْكِتَابِ كَاتِبًا ، أَوْ فِي الْعِلْمِ عَالِمًا ، أَوْ فِي الْبَاحِثِينَ بَاحِثًا ، وَالتَّقَى عَمَلُهُ كُلُّهُ فِي سَلَّةِ الْمَهْمَلَاتِ ، كَمَا يَقُولُونَ . وَجَمَاعُ الشُّرُوطِ كُلُّهَا فِي هَذَا الشَّأْنِ مُنَوِّطٌ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ : لُغَتِهِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا صَغِيرًا ، وَثِقَافَةُ أُمَّتِهِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا وَارْتَضَعَ لِبَنَانِهَا يَافِعًا ، وَأَهْوَاؤُهُ الَّتِي يَمْلِكُ ضَبْطُهَا أَوْ لَا يَمْلِكُهَا بَعْدَ أَنْ اسْتَوَى رَجُلًا مُبِينًا عَنْ نَفْسِهِ ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) .

• أَمَّا « اللُّغَةُ » الَّتِي نَشَأَ فِيهَا صَغِيرًا ، فَشَرُطٌ نَزُولُهُ الْمِيدَانِ : أَنْ يَكُونَ مُحِيطًا بِأَسْرَارِهَا الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، وَبَيْنَ تَمَامِ الْإِحَاطَةِ بِهَا وَقُصُورِ هَذِهِ الْإِحَاطَةِ ، يَرْتَفِعُ قَدْرُ مَا يَكْتُبُهُ ، أَوْ يَنْزِلُ إِلَى حَضِيضِ الْإِسْقَاطِ وَالْإِهْمَالِ ، مَعَ مَخَافَةٍ ذَكَرَتْهَا لَكَ آنَفًا ، (ما سلف ص : ٢٧) .

• وَأَمَّا « الثَّقَافَةُ » ، وَهِيَ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْمَلْتَمَةِ ، وَحَقَائِقُهَا عَمِيقَةٌ بَعِيدَةٌ الْعُورِ مَتَشَعِّبَةٌ ، وَقَوَائِمُهَا « الْإِيمَانُ » بِهَا عَنْ طَرِيقِ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ = ثُمَّ « الْعَمَلُ » بِمَا تَقْتَضِيهِ حَتَّى تَذَوِّبَ فِي بُنْيَانِ الْإِنْسَانِ وَتَجْرِي مِنْهُ مَجْرَى الدَّمِّ لَا يَكَادُ يَحْسُ بِهِ = ثُمَّ « الْإِنْتِمَاءُ » إِلَيْهَا انْتِمَاءً يَحْفَظُهُ وَيَحْفَظُهَا مِنَ التَّفَكُّكِ وَالْإِنْهَارِ ، وَبَيْنَ تَمَامِ الْإِدْرَاكِ لِأَسْرَارِ « الثَّقَافَةِ » وَقُصُورِ هَذَا الْإِدْرَاكِ ، يَرْتَفِعُ أَيْضًا قَدْرُ مَا يَكْتُبُهُ ، أَوْ يَنْزِلُ إِلَى حَضِيضِ الْإِهْمَالِ ، (ما سلف ص : ٢٨) .

• وأما « الأهواء » فهي الداء المُبِيرُ ، والشرُّ المستطِيرُ ، والفسادُ الأكبر ، إن هو أَلَمٌ بِأَيِّ عَمَلٍ إِمَامَةً خَفِيَّةً دَيبِ بَلَّةِ الوَطءِ المتثاقِلِ ، أحواله إلى عمل مُسْتَقْدِرٍ منبُوذٍ كَرِيهِه ، حتى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه وحُلِيِّه وعطوره وأتممها زينةً ، من دَقَّةٍ واستيعابٍ وتمحيصٍ ومَهارةٍ وحِذْقٍ وذِكاٍ ، ثم يزدادُ بشاعةً إذا كان الكاتب مُلَمًّا تمام الإلمام بأسرار « اللغة » وأسرار « الثقافة » ، لأنه حينئذٍ منافقٌ خبيثُ النَّفاقِ ، وخائنٌ لقيمِ الخيانة ، (ما سلف ص : ٢٨ ، ٢٩) .

• وهذه شروط لا يختلفُ في شأنها أحدٌ قطُّ في كُلِّ ثقافةٍ وفي كُلِّ أُمَّةٍ . فإذا كَانَ لا يُعَدُّ كاتباً أو باحثاً أو عالماً من أبناء اللغة وأبناء الثقافة أنفسهم ، إلا من اجتمعت له هذه الشروط ، فإذا عَرِيَ منها لم يكن أهلاً للنزول في ميدان « المنهج » ، فإذا فعلَ فهو متكلِّمٌ لا أكثرُ ، ثم لا يُلْتَفَتُ إلى قوله ولا يُعْتَدُّ به عند أهل البحث والعلم والكتابة = إذا كان هذا هكذا ، فينبغي قبلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أن نعرِفَ من هو « المستشرق » الذي ينزلُ هذا الميدان ؟ وهل يمكنُ أن يكون داخلاً تحت هذه الشروط المحكِّمة المتَّفَقَ عليها في كُلِّ لغة وثقافة ؟

• و « المستشرق » فتى أعجميٌّ ، ناشيءٌ في لسان أُمته وتعليم بلاده ، ومغروسٌ في آدابها وثقافتها ، (ألماني ، أو إنجليزي ، أو فرنسي) ، حتى آستوى رَجُلًا في العشرين من عُمُرِهِ أو الخامسة والعشرين ، فهو قادرٌ أو مُفْتَرَضٌ أنه قادرٌ تمامَ القُدرة على التفكير والنظر ، ومؤهَّل أو مُفْتَرَضٌ أيضاً أنه مؤهَّل أن ينزلَ في ثقافته ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » بقدِّم ثابتة . نعم ، هذا ممكنٌ أن يكون كذلك = ولكن هذا الفتى يتحوَّل فجأةً عن سلوك هذه الطريق ليبدأ في تعلُّم لغةٍ أخرى ، (هي العربية هنا) ، مفارقةً كُلَّ المفارقة للسان الذي نشأ فيه صغيراً ، ولثقافته التي ارتضع لِبَناها يافعاً ، « يدخلُ قِسْمُ » اللغات الشرقية « في جامعة من جامعات الأعاجم ، فيبتدئ تعلُّم ألف باء تاء ثاء ، أو أبجد

هَوَّزَ ، في العربية . ويتلقَّى العربيةَ نحوها وصرفَها وبلاغَتها وشعرَها وسائرَ آدابها وتواريخها ، عن أعجميِّ مثله ، وبلسانٍ غيرِ عربيٍّ ، ثم يستمعُ إلى مُحاضِرٍ في آدابِ العربِ أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غيرِ عربيٍّ ، ويقضى في ذلك بضعَ سنواتٍ قلائلَ ، ثم يتخرَّجُ لنا « مستشرقاً » يُفتى في اللسانِ العربيِّ ، والتاريخِ العربيِّ ، والدينِ العربيِّ !! ^(١) عَجَبٌ ، وفوقَ العَجَبِ !

كَيْفَ يجوزُ في عَقْلٍ عاقلٍ أن تكونَ بضعُ سنواتٍ قلائلَ كافيةً لطالبٍ غريبٍ عن « اللغة » ، وهذه حاله ، أن يُصبحَ محيطاً بأسرارِ اللغةِ وأساليبها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبعجائبِ تصاريفها التي تجمَّعت وتداخلت على مرِّ القرونِ البعيدةِ في آدابها ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) = وأن يُصبحَ بينَ عَشِيَّةٍ وضُحَاها مؤهلاً للنزولِ في ميدانِ « المنهج » و « ما قبل المنهج » ؟ كيف ؟ مع أنَّ هذا الشرطَ صعبٌ عسيرٌ على الكثرةِ الكثيرةِ من أبناءِ هذه اللغةِ أنفسهم ، ولا يبلغُ هذا المبلغَ إلا القليلُ منهم ؟ كيف يجوزُ هذا في عقلٍ عاقلٍ ؟ هذا ، مع أنه أيضاً تعلَّمها تلقياً من أعجميِّ مثله ، ولم يخالط أهلها مخالطةً طويلةً متتاليةً تُتيح له التلقَّى عنهم تلقياً يبصرُهُ ببعضِ هذه الأسرارِ . غَايَةُ ما يمكنُ أن يجوزَهُ « مستشرق » في عشرين أو ثلاثين سنة ، وهو مقيمٌ بينَ أهلِ لسانه الذي يَقْرَعُ سمعَهُ بالليل والنهار : أن يكونَ عارفاً معرفةً ما بهذه « اللغة » ، وأحسنُ أحواله عندئذٍ أن يكونَ في منزلةِ طالبٍ عربيٍّ في الرابعةِ عشرةِ من عمره ، بل هو أقلُّ منه على الأرجح ، أى هو في طبقةِ العوامِّ الذين لا يَعْتَدُ بأقوالهم أحدٌ في ميدانِ « المنهج » و « ما قبل المنهج » . أليس

(١) ما بين القوسين منقولٌ من فصل كتبه في كتابي « برنامج طبقات فحول الشعراء » (ص : ١١٥ = ١٢٧) ، وفيه تفصيلٌ وبيانٌ وأدلةٌ على فسادِ عملِ « الاستشراق » ، وعلى التحويلِ في شأنِ علمِ « المستشرقين » بالعربية ، فاقرأه هناك .

كذلك ؟ هذا على أن « اللغة » نفسها هي وعاء « الثقافة » ، فهما متداخلتان ، فمحال أن يكون محيطاً بأسرارها ، دون أن يكون محيطاً أيضاً بثقافتها إحاطة تؤهله للتمكن من « اللغة » ، فمن أين يكون « المستشرق » مؤهلاً لنزول هذا الميدان ؟

• وإذا كان أمر « اللغة » شديداً لا يسمحُ بدخول « المستشرق » تحت هذا الشرط اللازم للقلة التي تنزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فإن شرط « الثقافة » أشدُّ وأعتى ، لأن « الثقافة » ، كما قلتُ آنفاً : « سِرٌّ من الأسرارِ المثلثة في كُلِّ أمة من الأمم وفي كُلِّ جيل من البشر ، وهي في أصلها الراسخ البعيد العُور ، معارف كثيرة لا تُحصى ، متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبة في كُلِّ مجتمع إنساني ، للإيمان بها أولاً من طريق العقل والقلب = ثم للعمل بها حتى تذوب في بُنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم لا يكاد يحسُّ به = ثم للانتفاء إليها بعقله وقلبه انتماء يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار » ، (ص : ٢٨) وهذه القيود الثلاثة ، « الإيمان » و « العمل » و « الانتفاء » ، هي أعمدة « الثقافة » وأركانها التي لا يكون لها وجودٌ ظاهرٌ محققٌ إلا بها ، وإلا انتقض بُنيان « الثقافة » ، وصارت مجرد معلومات ومعارف وأقوال مطروحة في الطريق ، متفككة لا يجمع بينها جامع ، ولا يقوم لها تماسكٌ ولا ترابطٌ ولا تشابكٌ .

• وبديهي ، بل هو فوق البديهي ، أن شرط « الثقافة » بقيوده الثلاثة ، ممتنع على « المستشرق » كُلِّ الامتناع ، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناءٍ واحدٍ ، كما يقول أبو الحسن التهامي الشاعر :

وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جُنُودَ نَارِ

وذلك لأن « الثقافة » و « اللغة » متداخلتان تداخلًا لا انفكاكَ له ، ويتراقدان ويتلاقحان بأسلوبٍ خفيٍّ غامضٍ كثير المداخل والمخارج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجاً

واحداً غير قابل للفصل ، في كُلِّ جيل من البشر وفي كُلِّ أمةٍ من الأمم . ويبدأ هذا التداخل والتراقد والتلاقح والتمازج منذ ساعة يولد الوليد صارخاً يتلمس ثدى أمه تلمساً ، ويسمع رَجْع صوتها وهي تُهذِّده وتُناغيه ، ثم يظلُّ يرتضع لبَّان « اللغة » الأوَّل ، ولبَّان « الثقافة » الأوَّل ، شيئاً فشيئاً ، عن أمه وأبيه حتى يَعْقِل ، فإذا عَقَلَ تولَّاهُ معهُما المعلِّمون والمُؤدِّبون حتى يستحصِدَ ، (أى يشتدَّ عودُهُ) ، فإذا استحصَدَ وصارَ مُطيقاً إِطاقةً ما للبصر بمواضع الصواب والخطأ ، قادراً قدرةً ما على فحص الأدلة واستنباطها فناظر وباحث وجادل ، فعندئذ يكون قد وَضَعَ قَدَمَهُ على أوَّل الطريق = لا طريق « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فهذا بعيدٌ جداً كما رأيتُ = بل على الطريق المُفضى إلى أن تكون له « ثقافة » يؤمن بها عن طريق العقل والقلب = ويعملُ بها حتى تنوَّبَ في بنيانه وتجري منه مَجْرى الدم لا يحسُّ به = وينتمى إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظُها من التفكُّك والانحيار ، كما أسلفْتُ . وهذا ، كما تَرَى ، شرطٌ لازمٌ للبدءِ في الإحاطة بأسرار « اللغة » ، ثم « اللغة » ، بعد ذلك ، هى التى تمهِّدُ له الطريق إلى الإحاطة بأسرار « الثقافة » ، لأنَّ أمر « الإحاطة » عندئذٍ منوطٌ كُلُّه بالقدرة على تمحيص مفردات « اللغة » تمحيصاً دقيقاً ، وتحليل تراكيبها وأجزاء تراكيبها بدقَّة متناهية ، وبمِهارة وحَذقٍ وحَذَرٍ ، حتى يَرى ما هو زَيْفٌ جليلاً واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ولا هوى ولا تسرُّع ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥) = ثم منوطٌ أيضاً بالقدرة الفائقة على النظر في « الثقافة » وعلى ترتيبِ مادَّتها بعد نفى زيفها وتمحيص جيدها ، باستيعابٍ لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع ، متحرِّياً وَضَعَ كُلِّ حقيقة من الحقائق في حقِّ موضعها ، لأنَّ أخفى إساءةٍ فى وَضْع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خَلِيقٌ أن يُشوِّه عَمُود الصورة تشويهاً بالغ القُبْح والشَّناعة ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥)

فَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَتَى لِلْمُسْتَشْرِقِ أَنْ يَحْوَزَ مَا لَا يَحْوَزُهُ إِلَّا مَنْ وُلِدَ فِي بُحْبُوحَةِ اللُّغَةِ وَثِقَافَتِهَا مِنْذُ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، ثُمَّ تُشَىءُ فِيهَا وَارْتَضَعَ وَأَدَّبَ حَتَّى عَقَلَ وَاسْتَحْصَدَ ؟ غَيْرُ مُمْكِنٍ . وَهَبُهُ مُمْكِنًا أَنْ يَأْتِيَ « الْمُسْتَشْرِقِ » عَلَى الْكِبَرِ فَيَعَاشِرُ أَصْحَابَ هَذِهِ اللُّغَةِ وَهَذِهِ الثَّقَافَةِ وَيَخَالِطُهُمْ دَهْرًا طَوِيلًا ، وَهَبُهُ مُمْكِنًا أَيْضًا أَنْ يَنْسَى كُلَّ مَا نَشَأَ هُوَ فِيهِ صَغِيرًا وَأَدَّبَ ، أَفْمُمْكِنٌ هُوَ أَنْ يَحْوَزَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَهُوَ مُقِيمٌ فِي بِلَادِهِ بَيْنَ أَهْلِ وَعَشِيرَتِهِ ، بَأَنْ يَتَعَلَّمَ عَلَى الْكِبَرِ مِنْ مُعَلِّمٍ يَعْلَمُهُ لُغَةً وَثِقَافَةً هُمَا مَعًا أَجْنَبِيَّانِ عَنْهُ وَعَنْ مُعَلِّمِهِ جَمِيعًا ؟ غَيْرُ مُمْكِنٍ . أَقْصَى مَا يَلْعُقه هَذَا « الْمُسْتَشْرِقِ » بَعْدَ عَشْرَاتِ السِّنِينَ مِنَ الذَّادِ وَالْجَهْدِ ، وَبَعْدَ أَنْ تَشَيَّبَ قُرُونُهُ ، (وَالْقُرُونُ ضِفَائِرُ شَعْرِ الرَّأْسِ) ، أَنْ يَكُونَ شَادِيًا لَا أَكْثَرَ ، (وَ « الشَادِي » ، الَّذِي تَعَلَّمَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، أَيْ أَخَذَ طَرَفًا مِنْهُ) ، أَيْ أَنَّهُ إِنَّمَا تَعَلَّمَ لُغَةً أَجْنَبِيَّةً عَنْهُ وَبَسَ . ^(١) هَذَا صَرِيحُ الْعَقْلِ ، إِذَنْ فَخَبِّرْنِي : أَهْوَى مُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ مَجْرَدُ تَعَلُّمِ لُغَةٍ أَنْتَ فِيهَا شَادٍ ، كَقِيلَ بَأَنْ يَجْعَلَكَ كَاتِبًا أَوْ بَاحِثًا فِي أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَفِي ثِقَافَتِهَا ، مَهْمَا كَانَتْ مَنَزِلَتُكَ أَنْتَ فِي لُغَتِكَ وَثِقَافَتِكَ ؟ أُمُمْكِنٌ هُوَ ؟ مَجْرَدُ خُطُورِ إِمْكَانٍ هَذَا فِي وَهْمِكَ ، مُخْرِجٌ لَكَ مِنْ حَدِّ الْعَقْلِ . فَأَعْجَبُ الْعَجَبِ ، إِذَنْ ، أَنْ يُعَدَّ أَحَدُ شَيْئًا مِمَّا كَتَبَهُ « الْمُسْتَشْرِقُونَ » فِي لُغَتِنَا وَثِقَافَتِنَا وَتَارِيخِنَا وَدِينِنَا ، دَاخِلًا فِي حَدِّ الْمُمْكِنِ ، وَأَنْ يَرَاهُ مُتَضَمِّنًا لِرَأْيِ حَقِيقِ بِالْاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ « عَمَلًا عِلْمِيًّا » أَوْ « بَحْثًا مَنِهْجِيًّا » نَسْتَرُشُدُ بِهِ نَحْنُ فِي شُؤُونِ لُغَتِنَا وَثِقَافَتِنَا وَتَارِيخِنَا وَدِينِنَا ، كَمَا هُوَ السَّائِدُ الْيَوْمَ فِي حَيَاتِنَا هَذِهِ الْأَدْبِيَّةِ الْفَاسِدَةِ . أَلَيْسَ هَذَا شَيْئًا لَا يُطَاقُ سَمَاعُهُ وَلَا تَصَوُّرُهُ ؟ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ كَاتِنٌ مَعْمُولٌ بِهِ بَلَا غَضَاضَةٍ ، أَلَيْسَ هَذَا غَرِيبًا ! أَلَيْسَ غَرِيبًا جَدًّا أَنْ لَا يَكُونَ لِمِثْلِ هَذَا شَبِيهٌ الْبَتَّةَ فِي أَى لُغَةٍ وَأَى ثِقَافَةٍ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ هِيَ كَائِنَةُ الْيَوْمِ ؟ وَقُلْتُ

(١) « بَسَ » بِمَعْنَى « حَسَبُ » وَ « فَقَطْ » ، مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْعَامِيَةِ ، وَلَكِنَّهَا قَدِيمَةٌ جَدًّا ، وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَهَا

فَارَسِيٌّ .

يوماً : « أرايتَ قطُّ رجلاً من غير الإنجليز أو الألمان مثلاً ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموعَ الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لُغتها ، وفي تاريخ الأُمّة الإنجليزية ، وفي حياة المجتمع الإنجليزي ، يدينُ له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم » ؟ ^(١) أليس غريباً أن يكون غيرُ الممكنِ ممكناً في ثقافتنا نحن وحدّها ، دون سائر ثقافات البشر قديمها وحديثها ؟ غريبٌ عجيبٌ لا محالة .

• وأشياءٌ قليلةٌ ، ولكنها عظيمة الخطر ، أحبُّ أن أنبّهك إليها ، ونحن في حديث « الثقافة » ، حتّى لا تختلط عليك الأمور . يوجبُ ذلك على علمي بفساد حياتنا الأدبية الحديثة حاضرها وغابرها ، ولأنّها تسيرُ بنا اليوم في طريق الغموض ، لا في طريق الوضوح . وقد استشرى خطرُ هذه السيّرة بما شاع في هذه الحياة من الثرثرة والادّعاء والتحكّم والعجرفة وقلة المبالاة والرّهو الفارغ ، فأدّى بنا ذلك كلّهُ إلى أن نألّف استعمالَ ألفاظٍ مُوهمةٍ غامضة الدلالة ، فضفاضة المعاني ، بُجراً وبلا أناة وبلا ضبط وبلا تعمق . فالأمر يحتاجُ منّي ومنك إلى وقفةٍ متأنّيةٍ ، ومراجعةٍ ضابطةٍ للفظ « الثقافة » ، لأنّ أمرها أجلُّ وأخطرُ ممّا توهمك به النظرة الأولى . بيد أنّي لا أستطيع هنا الإفاضة في بيانها ، وما هو إلّا الإشارة الخاطفة والتحديدُ لا غيرُ = وأيضاً لأنّ لفظ « الثقافة » لفظٌ مستحدثٌ في زماننا هذا ، تَفَشَّى استعمالُهُ على الألسنة بلا ضابطٍ وبلا دقّة وبلا مبالاة .

• « الثقافة » في جوهرها لفظٌ جامعٌ يُقصدُ بها الدلالة على شيئين أحدهما مَبْنِيٌّ على الآخر ، أي هما طُوران متكاملان :

(١) انظر كتابي « برنامج طبقات فحول الشعراء » ص : ١١٨ .

الطُّورُ الأوَّلُ : أصولٌ ثابتة مكتسبة تنغرسُ في نفس « الإنسان » منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدَّ الإدراك البين ، جماعُها كُلُّ ما يتلقَّاهُ عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه حتى يصبحَ قادراً على أن يستقلَّ بنفسه وبعقله ، وتفاصيل ما يتلقَّاه الوليد حتى يتعرَّعَ أو يُزَاهِقَ ، تُفَوِّتُ كُلَّ حَصْرِ بل تعجزُ . وهذه الأصولُ ضرورةٌ لازمةٌ لكلِّ حيٍّ ناشئٍ في مجتمعٍ ما ، لكي تكونَ له « لغةٌ » يُبينُ بها عن نفسه ، و « معرفةٌ » تُتيحُ له قِسْطاً من التفكير يُعينه على معايشة من نشأ بينهم من أهله وعشيرته . وهذا على شدة وضوحه عند النَّظَرَةِ الأولى لِأَنَّكَ أَلِفْتُهُ ، لا لِأَنَّكَ فَكَّرْتَ فيه وعمِّقْتَ التفكير ، هو في حقيقته سرٌّ مُلْتَمَّ يحيرُ العقولَ إدراكَ دَفْنِهِ ، لأنه مرتبطٌ أَشدَّ الارتباط ، بل مُتَغَلِّغٌ في أعماق سِرِّين عظيمين غامضين هما : سِرُّ « التَّنَطُّقِ » وسِرُّ « العقل » اللَّذَانِ تَمَيَّزَ بهما « الإنسان » من سائر ما حَوَّلَهُ من الخَلْقِ كُلِّهِ ، وتَحَيَّرَتْ عقول البشر في كيف جاء؟ وكيف يعملان ؟ لِأَنَّ « الإنسان » لم يَشْهَدْ خَلْقَ نَفْسِهِ حتَّى يستطيع أن يستدلَّ بما شَهِدَ ، لكي يصلَ إلى خَبِيٍّ هذين السِّرَّين المَلْتَمَّين المُسْتَغْلَقَيْنِ البعيدين ، وإن تَوَهَّمْ أحياناً بِالْإِلْفِ أَنهما قَرِيبَانِ واضِحَانِ .

ولأنَّ « الإنسان » منذ مولده قد استودِعَ فِطْرَةً باطنَةً بعيدة الغور في أعماقه ، تُوزِعُهُ ، (أَى ثَلَاثُهُمْ وَتَحَرَّكُهُ) ، أن يتوجَّه إلى عبادة رَبِّ يَدْرِكُ إدراكاً مبهماً أَنَّهُ خَالَقُهُ وحافظُهُ ومُعِينُهُ ، فهو لذلك سَرِيعُ الاستجابة لكلِّ ما يُلَبِّي حاجةَ هذه الفِطْرَةِ الخَفِيَّةِ الكامنة في أغواره . وكلُّ ما يُلَبِّي هذه الحاجة ، هو الذي هَدَى الله عبادَه أن يسمُّوه « الدِّينَ » ، ولا سَبِيلَ البَتَّةِ إلى أن يكونَ شَيْءٌ من ذلك واضحاً في عقل الإنسانِ إِلَّا عن طريق « اللُّغَةِ » لا غير ، لأنَّ « العقل » لا يستطيع أن يعملَ شيئاً ، فيما نَعْلَمُ ، إِلَّا عن طريق « اللغة » . فالدين واللغة ، منذ النشأة الأولى ، متداخلانِ تداخلاً غير قابل

للفَصْلِ ، ^(١) ومن أغفل هذه الحقيقة ضلَّ الطريق وأوغل في طريق الأوهام . هذا شأن كُلِّ البشر على اختلاف مِلَلهم وألوانهم ، لا تكاد تجد أُمَّة من خلق الله ليس لها « دين » بمعناه العام ، كتابياً كان ، أو وثيقاً ، أو بدعاً ، (« البدع » ، الدين ليس له كتاب أو وثقن معبود) .

ولذلك ، فكلُّ ما يتلقاه الوليد الناشئ في مجتمع ما ، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه ، من « لغة » و « معرفة » = يمتزج امتزاجاً واحداً في إناءٍ واحد ، ركيزته أو ثوابته وخميرته دينُ أبويه ولغتهما ، وأبلغهما أثراً هو « الدين » . فالوليد في نشأته يكون كُلُّ ما هو « لغة » أو « معرفة » أو « دين » متقبلاً في نفسه تقبُّل « الدين » ، أى يتلقاه بالطاعة والتسليم والاعتقاد الجازم بصحته وسلامته ، وهذا بينٌ جداً إذا أنت دققت النظر في الأسلوب الذى يتلقَّى به أطفالك عنك ما يسمعون منه ، أو من المعلم في المراحل الأولى من التعليم . ويظلُّ حال الناشئ يتدرج على ذلك ، لا يكاد يتفصَّى شيء من معارفه من شيء ، (« يتفصَّى » : أى يتخلص من هذا المضيق) حتى يقارب حدَّ الإدراك والاستبانة ، ولكنه لا يكاد يبلغ هذا الحدَّ حتى تكون لغته ومعارفه جميعاً قد غُمِسَتْ في « الدين » وصُبِغَتْ به . وعلى قدر شمول « الدين » لشؤون حياة الإنسان ، وعلى قدر ما يحصل منه الناشئ ، يكون أثره بالغ العمق في لغته التى يفكر بها . وفي معارفه التى يبنى عليها كُلُّ ما يوجبه عملُ العقل من التفكير والنظر والاستدلال . فهذه هى الأصول الثابتة المكتسبة في زمن النشأة على وجه الاختصار .

(١) في حياتنا الأدبية الفاسدة ، تروج دعوة خبيثة جاهلة لفصل « اللغة » عن « الدين » ، وهذا شيء لا ييسر إلا بفارقة دين ، والدخول في دين آخر يصنعونه لأنفسهم . وليبيان معنى « الدين » ، أرجو أن تقرأ أولاً ما كتبت في كتابي « أباطيل وأسمار » ص : ٥١٣ - ٥٥٢ ، فهو مهمٌ هنا جداً ، وأن « الدين » عندنا يشمل على الدلالة على الأصول الصحيحة المحكمة التى يسترشد بها العقل في التفكير والنظر والاستدلال .

الطور الثاني : فروع مُنبثقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة . وهي تنبثق حين يخرج الناشئ من إيسار التسخير إلى طلاقة التفكير . وإنما سُميت « الطور الأول » : « إيسار التسخير » ، لأنه طور لا آنفكاك لأحد من البشر منه منذ نشأته في مجتمعه . فإذا بلغ مبلغ الرجال استوث مداركه ، وبدأت معارفه يتفصى بعضها من بعض ، أو يتداخل بعضها في بعض ، ويبدأ العقل عمله المُستتب في الاستقلال بنفسه ، ويستبد بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجة التعبير عن الرأي الذى هو نتائج مُزاولة العقل لعمله ، فعندئذ تتكون النواة الجديدة لما يمكن أن يسمى « ثقافة » . وبين أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو « اللغة » و « المعارف » الأولى التى كانت في طورها الأول مصبوعة بصيغة « الدين » لا محالة ، حتى لو استعملها في الخروج على « الدين » الموروث ومناقشته رفضاً له أو لبض تفاصيله . هذه حال النشأ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقل المفصلي إلى حيز « الثقافة » .

• و « ثقافة » كل أمة وكل « لغة » هى حصيلة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع ، كلها مغموس في « الدين » المتلقى عند النشأة . فهو لذلك صاحب السلطان المطلق الحفى على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً ، سلطان لا ينكره إلا من لا يبالى بالتفكر في منابع الأول التى تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه ، ومستبيناً عن غيره . فت ثقافة كل أمة مرآة جامعة في حيزها المحدود كل ما تشعت وتشئت وتباعدت من ثقافة كل فرد من أبنائها على اختلاف مقاديرهم ومشارهم ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم في الحياة . وجوهر هذه المرآة هو « اللغة » ، و « اللغة » و « الدين » ، كما أسلفت ، متداخلان تداخلاً غير قابل للفصل البتة .

فباطل كل البطال أن يكون في هذه الدنيا على ما هى عليه ، « ثقافة » يمكن أن

تكون « ثقافة عالمية » ، أى ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً ويمتزون على اختلاف لغاتهم ومِلّتهم ونِحْلهم وأجناسهم وأوطانهم . فهذا تدليس كبير ، وإنّما يُراد بشيوع هذه المَقولة بين الناس والأُمم ، هدف آخر يتعلّق بفرض سيطرة أُمَّة غالبية على أُمم مغلوّبة ، لتبقى تبعاً لها . فالثقافات متعدّدة بتعدّد المِلل ، ومتميّزة بتمييز المِلل ، ولكلّ ثقافة أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال مُنتزَع من « الدين » الذى تدينُ به لا محالة . فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتناقش ، ولكن لا تتداخلُ تداخُلًا يُفضي إلى الامتزاج البتّة ، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئاً ، إلّا بعد عَرْضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال ، فإن استجاب للأسلوب أخذته وعدلته وخلّصته من الشوائب ، وإن استعصى نَبذته وأطرّخته . وهذا بابٌ واسع جدّاً ليس هذا مكان بيانه ، ولكنى لا أفارقه حتّى أثبّهك لشيء مهمّ جدّاً ، هو أن تفصل فصلاً حاسماً بين ما يسمّى « ثقافة » وبين ما يسمّى اليوم « علماً » ، (أعنى العلوم البَحْثة) ، لأنّ لكلّ منهما طبيعة مُباينة للآخر ، فالثقافة مقصورة على أُمَّة واحدة تدينُ بدين واحد ، والعلم مُشاعٌ بين خلق الله جميعاً ، يشتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت المِلل والعقائد .

• فإذا عرفت هذا واستبصرت حقيقته ، وأنعمت النظر فيه ، فعندئذٍ يُفضى بك النَّظَرُ إلى أمر « المستشرق » . فهو حين ينظر في « ثقافة » أُمَّة أخرى غير أُمته ، إنّما ينظر فيها لأحد أمرين : إمّا أن ينظر فيها ليَكْسِب منها شيئاً لأُمته وثقافته ، وإمّا أن ينظر فيها لينظر ويناقش . وكلا الأمرين حقٌّ لا ينازعه فيه منازع . وفي كلا الأمرين هو واقع في مَازِق ضيق : مَازِق « اللغة » ومَازِق « الثقافة » . لا يستطيع أن يأخذ إلّا على قَدَر ما فهم من « لغة » غريبة أصلاً عن لُغته ، ولا يستطيع أن يناقش إلّا على قَدَر ما يتصوّر أنه استبانهُ وأدركه من « ثقافة » غريبة عن ثقافته . ولكن ليس هذا شأنه وحده ، بل هو شأنى وشأنك أيضاً في ثقافة « المستشرق » وأُمته التى ينتمى إليها ، وعلى نفس القاعدة التى ذكرتها لك قبل أسطر .

• ولكن « المستشرق » ، وإن يكن قد فعل الأمرين جميعاً خدمة لأمته ، كما مضى ذكر ذلك في ثنايا كلامي ، فإنه قد جاء فدخل مَدْخِلاً آخر من غير هذين البابين ، ودخوله من هذا الباب الثالث هو موضع التّزاع بيننا وبينه ، دَخَلَ لا مستفيداً ولا مناقشاً ، بل دَخَلَ باحثاً ودارساً عليه طَيْلَسَان العلم ، (أى الرّداء المميّز لأساتذة الجامعات) في ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، وهو ميدان له شروط لازمة لا تختل . دَخَلَ في « لغة » هو فيها هجينٌ كُلُّ الهُجْنَةِ ، (« المهجين » الذى في نسبه عيب قاذح) ، وفي « ثقافة » هو غريبٌ عنها كُلُّ الغُربة . ودخوله هذا عمل مُسْتَشَنَعٌ في ذاته ، لأنه اجتراءٌ على دخول هذا الميدان بغير حقّه ، ولا يُسَمَحُ بمثله في ثقافة أُمّته هو نفسه ، لأنه لا يملك شيئاً ذا بالٍ من مُسَوِّغاته ، ولا تَسْمَحُ به طبيعةٌ ما يمكن أن يسمّى « بحثاً » أو « دراسة » ، كما بيّنت ذلك آنفاً (ص : ٦٦ - ٧٠) . أمّا « اللغة » فغيرُ ممكن أن يكون فيها إلا طالباً شادياً يعرفهما معرفةً ما ، لا تسمح بدخوله تحت شرطها ، كما بيّنت آنفاً . (ما سلف : ٦٦ - ٧٠) = وأمّا « الثقافة » ، وشرطها أشدُّ وأقسى ، (انظر ص : ٢٨ ، ٦٨) فيحول بينه وبينها أهوالٌ لا يجتازها إلا من عرف « اللغة » معرفةً أستاذٍ متمكّن ناشئ في هذه « الثقافة » وفي لغتها . وفوق ذلك كلّهُ ، « المستشرق » ناشئ في لغة وفي ثقافةٍ أخرى قد رسخت في نفسه وعقله ، وهى بطبيعتها ، كما بيّنت آنفاً ، مصبوغة صِبْغَةً شديدة في اليهودية والمسيحية ، وهما مِلَّتَانِ تُبَايِنُهُمَا مِلَّةُ الإسلام مُبَايَنَةً تبلغ حدَّ الرُّفْضِ والمناقضة . وثقافته هذه تُنَازِعُهُ حيث ذهب في البحث والدرس ، فممكن أن يناقش « ثقافة » الإسلام ، ممكنٌ ، لأن هذا حقّه ، ولكنه مستحيلٌ كُلُّ الاستحالة أن يكون في ثقافتنا نحن « باحثاً » أو « دارساً » يبدى رأياً يستحقُّ النظر والاحترام ، في قرآننا وحديثها وتفسيرها وفي تفسير شرائعها ، وفي تاريخها وفي آدابها ولغتها وشعرها إلى آخر ما ذكرته آنفاً ، (ص : ٥٩) ، مستحيلٌ ، لأنه ممتنعٌ عليه امتناعاً لا يملك الفرار منه .

بيد أن دوافع « المستشرق » إلى هذا الدخول الجريء المُستبشع وركوب هذا المركب الوعر ، كانت ضرورةً تحمله على أن يخدم أبناء جلدته وعشيرته وأهل ملته ، بما أوجبه الصراع المحتدم قروناً بين الإسلام والمسيحية المحصورة في الشمال ، فانبعث يكتب ما يكتب حاملاً هموم المسيحية الشمالية في أعماق قلبه ، (انظر ما سلف ص : ٥٨) ، لأسباب فصلتها آنفاً ، و « ليصور الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مقنعة للقارئ الأوربي (المسيحي) ، وبأسلوب يدل على أن كاتبها قد خبر ودرس وعرف وبذل كل جهد في الاستقصاء ، وعلى منهج مألوف لكل مثقف أوربي ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه ، بعد خيرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص ، حتى لا يشك قارئهم في صدق ما يقرؤه ، وأنه هو اللبّاب المصطفى من كل كذبر ، والمبرأ من كل زيف ، وأنه هو الحق المبين والصراط المستقيم » ، (اقرأ ص : ٥٩ وما قبلها وما بعدها) . وفعل « المستشرق » ذلك لأسباب تستطيع أن تُعيد قراءتها فيما سلف ، (ص : ٥٦ ، ٥٧) .

وهذا العمل على ما فيه من المعابة ، هو بلا شك أيضاً ، حق خالص للمستشرق لا ينازعه فيه منازع ، لأنه كتب ما كتبه للمثقف الأوربي المسيحي وحده لا لغيره (انظر ما سلف : ٦١) ، حتى ما كان من ذلك كله سفاهة وبذاءة لا غير (ص : ٦١) ، كل ذلك حقه ، وما كان فيه من إنثم فحسابه على الله سبحانه لا علينا . وكل ذلك أيضاً لا يوجب عندي أن يوصف عمل « المستشرق » هذا بأنه مبني على حُب الطوية ، لأن حُب الطوية يقتضي أن تكون تعرف الحق أبلغ مستنيراً ، ثم تطمسه مُريداً لإفساد الحق على غيرك . و « المستشرق » بعيد كل البعد عن أن يعرف الحق مُعتمداً دامساً ، فكيف يعرفه أبلغ مستنيراً . و « المستشرق » ، كما علمت ، لم يعمد إلى إفساد حق على المثقف الأوربي المسيحي ، بل عمّد إلى حياطته حتى لا ينبهر بدين عدوه المسلم انهاراً مجرّية

عاقبته على مرّ القرون الطوال بالتساقط في الإسلام . وفوق ذلك كلّهُ ، فإن هذا المسلك ، مسلك « الغاية تسوّغ الوسيلة » ، مسلك مألوف مستحسن محبّب إلى الحضارة الأوربية السائرة على هُدى « مكيا فيلي » الذي هداهم إليه ، ونزل عندهم منزلة « الدين » ، وإن كان ديننا ، نحن المسلمين ، يُنكره ويأباه علينا كلّ الإباء . وإذا كان من حقنا أن نصف « المستشرق » بحُبّ الطويّة ، فذلك جائز لنا في عمل آخر من أعماله ربّما أشرت إليه فيما بعد .

• أما الأمر الثالث ، وهو أمر « الأهواء » ، (انظر ما سلف ص : ٦٦) ، فلن أضيع وقتي ووقتكم في الحديث فيه ، وإن كان شرطاً مهماً ، حتّم أن يبرأ منه كلّ من ينزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، لأن بديهة الفطرة في الإنسان تقضى بأن « الأهواء » مرفوضة في كلّ عمل يستحقّ أن يوصف بأنه عمل شريف أو عمل علمي . وظهر من كلّ ما كتبه لك آنفاً أن « الاستشراق » ، من قرع رأسه إلى أخمص قدميه ، غارق في « الأهواء » . والثقافة الأوربية والحضارة الأوربية تستقبل « الأهواء » بلا نكير ولا أنفة ، بل هي تسوّغ استعمال رذيلة « الأهواء » في الدنيا وفي الناس بلا حرج ، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسلب ونهب الأمم وإخضاعها بكُلّ وسيلة لسلطانها المتحضّر !! والدلائل على ذلك لا تحصى على بصير ذي عينين تبصران ، فهي تسوّغ ذلك في العلم وفي الثقافة وفي السياسة وفي الدين وفي كلّ شيء ، ما دام جالباً للمنفعة أو دافعاً للمضرة ، بل تسوّغها أيضاً في الدعوى الغريبة العجيبة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمم ، دعوى أنها « حضارة عالمية » ، وفحواها أن العالم كلّهُ ينبغي أن يخضع لسلطانها وسيطرتها ، ويتقبّل برضى غطرستها وفجورها الغنى الأخاذ الفاتن !

وأخيراً ، هذا تمام خبر « الاستشراق » وحقيقة « المستشرق » الذي انتفض بهموم المسيحية الشمالية ، فكتب من الكتب ما كتب لأهل ملته وخاض في معمعان حياة

أُمَّته الثقافية والسياسية مدافعاً شديداً الحميّة ، ومحامياً عن أقوامه أبلغ المحاماة ، وهو شيء لا يَعْنِينَا ، أو كان ينبغي أن لا يعنينا هو ولا ما كتبه في ثقافتنا قَلَامَةً ظُفِرَ ، لما عرفت من استحالة قدرته على معرفة العَرَبِيَّةِ إلا مثلَ تَجَلَّةِ الْقَسَمِ ، (أى قليلاً ، بمقدار ما يُكْفِرُ المرءُ قَسَمَهُ ولا يُبَالِغُ) ، ومن عجزه المُطْلَق عن استبانة وجه الحق في ديننا وثقافتنا ، لأنه مكفوفٌ عنهما بحجابٍ من ثقافته التي نشأ فيها وليداً واستمرَّ حتى شابت قروئُه . فما بالُه شَعَلَ نَاسَنَا بالحديث عنه ؟ أجل ، كيف كان ذلك ؟ ولم كان ما كان ممَّا أَفْضَى إلى انتدابه إلى إلقاء محاضرات في جامعاتنا العربية والإسلامية ؟ وأعجبُ من ذلك استلحاقه بهيئات المجامع اللغوية في بلاد عربية إسلامية ، يا للعجب ! أيُّ ناسٍ نحنُ !

٢٠ - كيف كان ذلك ؟ ولم كان ما كان ؟ قصّة طويلة عريضة ملوها الغرائب والعجائب ، والمضحكات والمبكيات ، والحسرات والآهات ، من مبدئها إلى منتهاها . ليتنى أستطيع على المكان ، (أى الآن) ، أن أقصّها عليك كاملةً بتفاصيلها ، ولكن أنّى يكون لي ذلك الآن ؟ فأقنع منّي بالاختصار المُفْهِم ، والإيماء الخاطف ، واللّلمحة الدالّة ، إبراءً للذمّة ، ذمّتي أنا ، وأداءً للأمانة التي حُمِّلْتُهَا لأستودعها بين يديك . وأنت مخير بين حُطّتين لا ثالثَ لهما : إمّا أن تتقصّى المكنونَ الغائبَ من تفاصيلها المشتّتة في تاريخك وكُتُبك ، بعقل وهمةٍ وجِدٍّ وَيَقَظَةٍ وَبَصَرٍ وإدراكٍ ، وبأنفَةٍ من قَبُولِ الدُّلِّ والعارِ والمهانة = وإمّا أن تَمَلَّها فتطرّحها عن كاهلك قابلاً لِمَزِيدٍ من الدُّلِّ والعارِ والمهانة ، مُستحلياً حِذَاعِ النفس بأوهامِ سَوَّلَتِها لك حياتنا هذه الأدبيّة الفاسدة ، والتي أَلَقْتَ بكلِّ فسادها في حياتنا اللّغوية والثّقافية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية ، بل في صميم حياتنا الدينيّة أيضاً ، حتى أوْشَكَ أن يضيّع كُلَّ شيءٍ كان غيرَ قابلٍ

للضياح . فأخترَ لنفسك منهما ما شئت . فإن اخترت الخطّة الأولى ، فاصبر على لأوائها ومشقتها ولا تجزع ، وكن رابط الجأش لا تستحوذ عليك المخاوف والرّهبة ، ولا تهولتَك أسماء الرجال المُحدّثين الكبار ، والتي لها دوى وضخامة ، فإنّما هى طبل فارغ ، وزق منفوخ ملؤه هواء . وأعلم أن الأمر جدّ كله ، فإن داخله الهزل خرجت منه صفر اليدى . ولا يغررك زخرف الألفاظ الوسيمة المتلافة ، مثل قولهم : « الجديد والقديم » و « الأصالة والمعاصرة » ، و « التجديد والتقدّم » ، و « الثقافة العالمية » و « الحضارة العالمية » و « التخلف والتحصّر » ، فإنّما هى ألفاظ لها رنين وفنّة ، ولكنها مليئة بكلّ وهم وإيهام وزهو فارغ مُميت فاتك ، توغل بنا في طريق المهالك ، وتستزلّ العقل حتى يرتطم في رذغة الخبال ، (أى طينته اللزجة) ، فإن استبان لك أول الطريق ولكن هبت وتردّدت ، فاستمع عندئذ لتصيحة الحسن البصرى رضى الله عنه : « إن من يُخوّفك حتّى تلقى الأمن ، أشفق عليك من يؤمّنك حتّى تلقى الخوف » ، كان الله فى عونى وعونك .

• غبر ما غبر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشاخص المنيع ، وعلى تدفق كتائب الإسلام فى قلب أوربة العارقة فى حمأة قرونها الوسطى ... غبر ما غبر على فرحة أذهلت دار الإسلام عن فجيعتها بسقوط الأندلس كلّ بعد أربعين سنة فى قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غرناطة آخر حصون الإسلام فى الأندلس ، (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ... وغبر ما غبر على جزع المسيحية الشمالية وشعورها بالإخفاق والمذلة والعار ، (اقرأ ما سلف : ٤١ وما بعدها) ، وعلى ما كان من توغل محمد الفاتح فى قلب أوربة وتساقط رعايا الرهبان فى الإسلام طواعية واختياراً ، ودخولهم بحماسة وبقين فى جحافل الإسلام الزاحفة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦) ... غبر ما غبر ، ودخلت دار الإسلام فى سنيّة

لذيذة أورتها نشوة النَّصْر المؤرَّر ، ودخلت أوربة كُلُّها في عزيمَةٍ حاسمة لتردَّ عن عِزِّها العارِّ ، وبلغ السَّيْل الزُّبى ، فكانت يقظةً محسوسةً في جانب ، وغفوةً لا تُحسُّ في جانب ، وشال الميزان ، (اقرأ ما سلف : ٤٤ ، ٥٠) ، وانطلقت الأساطيل الأوربية تطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، فإذا دارُ الإسلام محصورةً في الجنوب ، بعد أن كانت حاصرةً للمسيحية في الشمال ، وشيئاً فشيئاً فقدت دارُ الخِلافة في القسطنطينية هيبتها وسيطرتها ، وصارت لأوربة هَيْبَةً مرهوبةً وسيطرةً ، (اقرأ ص : ٥٢) .

يومئذٍ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قرنان ، مئتا عام ويومئذٍ آنس قلبُ دار الإسلام رِكْزاً خفياً فأرهفَ لَهُ سَمْعُهُ . سَمِعَ نَقِيضَ أركانِ دارِ الخلافة وهى تتقوَّض ، فتوجَّسَ توجُّساً غامضاً لشرِّ مستطير آتٍ لا يدرى من أين ؟ فهبَّ من جوف الغفوة الغامرة أشتات من رجالٍ أبْقَظَتْهُمْ هَذِهِ هَذَا التقوُّض ، فانبعثوا يحاولون إيقادَ الجماهير المستغرقة في غفوتها . رجالٌ عظامٌ أحسُّوا بالخطر المُبْهِم المُحْدِق بِأَمَّتِهِمْ ، فهبُّوا بلا تواطؤٍ بينهم . كانوا رجالاً أيقاظاً مُفَرِّقِينَ في جَنَبَاتِ أرضٍ مترامية الأطراف ، متباعدة أوطانهم ، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجَّسُوهُ في قرارة أنفسهم مبهماً من خطرٍ مُحْدِقٍ . أحسُّوا الخطرَ فرأوا إصلاح الخَلَلِ الواقع في حياة دار الإسلام : خَلَلِ « اللُّغَةِ » و « خَلَلِ العقيدة » و « خَلَلِ علوم الدين » و « خَلَلِ علوم الحضارة » . وبأناة وصبرٍ عَمِلُوا وَالْفَوْا وَعَلَّمُوا تلاميذهم ، وبهمةٍ وجدِّ أرادوا أَنْ يُدْخِلُوا الأُمَّةَ في « عصر النهضة » ، نهضة دار الإسلام من الوَسَنِ والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام . من هؤلاء خمسةٌ من الأعلام أذكركم لك هنا مجرَّد ذِكْرٍ باختصار : (١)

(١) كتبت في مجلة الهلال في عددي مايو ويونيه سنة ١٩٨٢ ، فضلاً عنهم ، وقطعتنى الشواغل عن إتمام القول في شأنهم وشأن « النهضة » التى أحْدَثوها ، وأسأل الله أن يوفقنى لإتمامها بعونه سبحانه .

١ - « البغدادى » ، « عبد القادر بن عمر » ، صاحب « خزانة الأدب »
(١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) فى مصر .

٢ - « الجبرتي الكبير » ، « حسن بن إبراهيم الجبرتي العقيلي » ، (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) فى مصر ، وسأحدثك عنه بعد قليل .

٣ - « ابن عبد الوهاب » ، « محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدى » ،
(١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) فى جزيرة العرب .

٤ - « المُرْتَضَى الزَّيْدِيُّ » ، « محمد بن عبد الرزاق الحسيني » ، صاحب
« تاج العروس » (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) فى الهند وفى مصر .

٥ - « الشَّوْكَانِي » ، « محمد بن على الحَوْلَانِي الزَّيْدِيُّ » ، (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) فى اليمن .

وإذا أنعمت النظر فى هذه التواريخ ، علمت أن « عصر النهضة » عندنا واقع بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، تذكر هذا ولا تنسهُ أبداً ، فهو الذى يكشف لك اللثام عن التغير الفاضح الذى طَفَحَتْ به حياتنا الأدبية الفاسدة المهلكة .

هَبَّ « البغدادى » فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، فألَّف ما ألَّف ليردَّ على الأمة قُذْرَها على « التدوِّق » ، تدوِّق اللُّغة والشَّعر والأدبِ وعلوم العربية ^(١) = وهبَّ « ابن عبد الوهاب » يكافح البدع والعقائد التى تخالف

(١) اقرأ ما كتبه عن « التدوِّق » فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٣٤ ، وفى مواضع من هذا الكتاب

الذى بين يديك .

ما كان عليه سلف الأمة من صفاء عقيدة التوحيد ، وهي ركن الإسلام الأكبر ، ولم يقنع بتأليف الكتب ، بل نزل إلى عامة الناس في بلاد جزيرة العرب ، وأحدث رجّة هائلة في قلب دار الإسلام = وهب « المرتضى الزبيدي » يبعث التراث اللغوي والديني وعلوم العربية وعلوم الإسلام ، ويحيى ما كاد يخفى على الناس بمؤلفاته ومجاليه = وهب « الشوكاني الزبيدي الشيعي » محيياً عقيدة السلف ، وحرّم « التقليد » في الدين ، وحطّم الفرقة والتناؤد الذي أدى إليه اختلاف الفرق بالعصبية = أما خامسهم ، وهو « الجبرتي الكبير » ، فكان فقيهاً حنفياً كبيراً نابهاً ، عالماً باللغة ، وعلم الكلام ، وتصدّر إماماً مفتياً وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، ولكنه في سنة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م) ، ولّى وجهه شطر « العلوم » التي كانت تراثاً مستغلّقا على أهل زمانه ، فجمع كتبها من كل مكان ، وحرص على لقاء من يعلم سرّ ألفاظها ورؤوسها ، وقضى في ذلك عشر سنوات (١١٤٤ - ١١٥٤ هـ) ، حتى ملك ناصية الرموز كلها ، في الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلها ، حتى التجارة والخراطة والحداة والسّمكرة والتجليد والنقش والموازين ، وصار بيته زاخراً بكل أداة في صناعة وكل آلة ، وصار إماماً عالماً أيضاً في أكثر الصنائع ، ولجأ إليه مهرة الصناع في كل صناعة يستفيدون من علمه ، ومارس كل ذلك بنفسه ، وعلم وأفاد ، حتى علّم خدّمه في بيته ، ويقول ابنه عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ ، (تاريخ الجبرتي ١ : ٣٩٧) :

« وحضر إليه طلاب من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة ، وذلك في سنة تسع

وخمسين (١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل ، وأستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء ، وجرّ الأثقال ، واستنباط المياه ، وغير ذلك » .

وهؤلاء « الإفرنج » ، هم « المستشرقون » ، كما قصصتُ عليك من أخبارهم ، ومن اتّصلهم بالعلم الحىّ عند علماء دار الإسلام ، حلّ رموز الكتب العربيّة ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ ، ٥٣ - ٥٥) . و « الجبرتيّ الكبير » رحمه الله ، كان على خُلُق أهل الإسلام ، فلم يَضُنَّ على أحدٍ من هؤلاء الإفرنج بشيءٍ من علمه ، ولا أساءَ بهم الظنَّ ، (اقرأ ما سلف : ٤٨) ، بل عمل بما أدبه به نبيّه ﷺ إذ يقول : « مَنْ سئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتُمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » ، ^(١) ولو علم « الجبرتيّ » بحبيّة أنفسهم وهم يتملقونه ويتخشعون بين يديه ، فلا أدري ماذا كان يفعل ، وهو الفقيه المُفتي رحمه الله ؟

هذا طَرَفٌ لا يجزىء عن « النهضة » التي كانت في دار الإسلام في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (السابع عشر والثامن عشر الميلادى) ، قصصته عليك خَطْفاً ، لتعرف بعد ذلك ما كان كيف كان ؟

• دَوَّتْ أسماء هؤلاء الخمسة في أرجاء دار الإسلام ، وأشتاتٍ غيرهم ، مُؤَذِّنَةٌ بيقظةٍ جديدة ، وإحياءٍ لعلم الأُمّة ولُغتها وثقافتها ، واستعادةٍ لسيطرة الأُمّة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمة ، وإرادةٍ لبعثها بعثاً جديداً ، دون شعورٍ واضحٍ أو علمٍ مستبين ، بالذى كان يجرى في ديار المسيحيّة الشماليّة من يَقْظَةٍ ونهضةٍ وَبَعْثٍ جديد . ونصيحةٌ وتنبيهٌ : لا تنظر إلى الفرقِ الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحي والجنوب الإسلامى ، فإنّك إن فعلتَ ضَلَلْتَ عن الحقيقة . والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كانَ خُطْوَةً واحدةً تُستدركُ بالهَمّةِ والصَّبْرِ والدَّأْبِ والتصميم لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإنَّ اليَقْظَةَ الأوربيّة كانت بعدُ في أوّل الطريق وتتكىء اتكاءً شديداً على ما كان عندنا من

(١) هو حديث أنى هريرة ، رواه أبو داود في السنن ، « كتاب العلم » والترمذى في « كتاب العلم » ، ورواه أحمد في مسنده في مواضع مختلفة أهمها برقم : ٧٥٦١ (١٤ : ٥ من شرح أخى رحمه الله) ، وكتب أخى فضلاً مهماً جدّاً في حلِّ مشكلة تحيط بهذا الخبر .

العلم المسطور في كتبنا برموزه التي تحتاج إلى استبانة وفهم ، وعلى العلم الحى الذى عند أهل دار الإسلام ، كما حدثك الجبترى المؤرخ عن أبيه الفقيه الجليل الجبترى الكبير ، (انظر ما سلف قريباً) ، وقراءة « المستشرقين » عليه ليهتدوا به اهتداءً ما إلى حل هذه الرموز واستبانتها وفهمها . وكُلُّ الفرق بين اليقظتين يومئذ هو أن يَقْظَتْنَا كانت هادئةً سليمةً الطويةً منبعثةً من داخلها ، ليس لها هدفٌ إلا استعادة شبابها ونضرتها في حدود الإسلام ، وإن كانت يومئذ « يقظةً » متباعدة الديار ، غير متماسكة الأوصال ، ولكنها كانت قرية التوصل ، وشبكة الالتئام = وأما يَقْظَتْنَهُم هم ، فكانت متفجرةً بحقد قديم مكظوم شيمته السطو الخفى ، وشملها مجتمع بالضغينة المتقادمة ، وهدفها إعدادُ العدة لاختراق دار الإسلام بالدهاء والخداع والمكر ، كما حدثك آنفاً فأطلت الحديث ... أى هما يقظتتان كانتا في زمن واحد ، إحداهما من طبيعتها الرقُّ المَهْدَب ، والأخرى من طبيعتها العدوان الفاجر ، فأنظر الآن ماذا كان بعد ذلك ، لأمرٍ أراد الله أن يكون . ودَعُ عنك ما تقوله اليوم حياتنا هذه الأدبية الفاسدة .

• كما قلت لك آنفاً ، كان « المستشرقون » منذ نأناة « الاستشراق » = وإلى هذا اليوم = يَجُوبُونَ دارَ الإسلام من أطرافها إلى قلبها ، يُلاقُونَ الخاصة من العلماء ، ويخالطون عامة المثقفين والذَّهَماء ، (اقرأ ص : ٤٨) ، وفي قلوبهم حَمِيَّة الحقد المكتم ، وفي النفوس العزيمة المصممة ، وفي العيون اليقظة ، وفي العقول التنبه ، وفي الوجوه البشر والبراءة ، وفي الألسنة الخلاوة والتملق ، ولَبِسُوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيٍّ ، وتوغَّلُوا يستخرجون كُلَّ مخبوءٍ ، (اقرأ ص : ٥٣ وما بعدها) = وكانت بلادهم يومئذ قرية عهدٍ بعصر النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياء ، فَهَمُّهم على أتمِّ معرفة بأسرار اليقظة كيف تبدأ وإلى أين تنتهى ، فأدركوا إدراكاً واضحاً لا لُجاجة فيه أن ما كان يجرى في دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرى ، (السابع عشر الميلادى) ، إلى منتصف القرن الثانى عشر

الهجرى ، (الثامن عشر الميلادى) ، إنما هو « يَقْظَةُ » حَقِيقَةٌ ، و « نَهْضَةٌ » كاملة ، و « إحياءٌ » صحيحٌ ، مُنبثقُ كُلِّهِ من يُنبِوِج صَافٍ عَتِيقٍ ، طَمَسَتْ معالمه كُرُّ الدُّهورِ والقرونِ ، هو جميعُهُ فى حوزةِ دارِ الإسلامِ ، وهم فى يَقْظَتِهِمْ هذه يومئذ عالةٌ عليه ، ولا يَسْتَقُونُ إلَّا من ثَمادِهِ بعد جُهدٍ جهيدٍ ، (« الثَّادُ » ، حُفِرَ فيها ماءٌ قليلٌ) ، فوجِفَتْ قلوبُهُمْ وَرَجَفَتْ من هَوْلٍ ما هم مقبلون عليه ، إذا تَمَّتْ لدارِ الإسلامِ « اليَقْظَةُ » واستوت وبلغتْ أَشَدَّها ، واستقامتْ خُطُواتُها على سَنَنِ الطريقِ .

• وعلى عادة « المستشرقين » التى حَدَّثْتُكَ عنها ، (اقرأ ص : ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٦) ، وهُم حَمَلَةُ هُمومِ المسيحية الشمالية ، والذَّادَةُ عنها وَحَمَاتُهَا المستبسلون ، هُبُوا هَبَّةَ الفَرَعِ من هذه « اليقظة » ، فتسارعُوا ينقلون كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ممَّا هو جارٍ تحت أَعْيُنِهِمْ فى دارِ الإسلامِ . ووضعوه بَيْنًا جَلِيًّا ، مشفوعاً بمخاوفِهِمْ ومُلاحظاتِهِمْ ونُصَحِهِمْ وإرشادِهِمْ ، تحت أبصارِ ملوكِ المسيحية الشمالية وأَمَرائِها ورؤسائِها وقادَتِها وسَاسَتِها ورُهبانِها ، وبصُرِّوهم بالعواقبِ الوَخِيمةِ المَخُوفَةِ من هذه « اليقظة » الوليدة التى بدأت تَنسَاحُ فى أرجاءِ دارِ الإسلامِ . وتناجَوا بينهم نَجْوَى طويلةً ، يُقَلِّبونَ النَّظَرَ فى أَهْدافِهِمْ ووسائلِهِمْ ، (اقرأ ما سلف ص : ٤٥ وما بعدها) ، وتَبَيَّنوا الخطَرَ الداهِمَ الذى جَاءَ يَتهدَّدُهُمْ ، إذا ما تَمَّتْ هذه « اليقظة » ، واشتدَّ عَوْدُها ، واستقامتْ خُطُواتُها على الطريقِ اللائحِ . وببديهةِ العقلِ ، لم يكن للمسيحية الشمالية يومئذٍ خيارٌ ، طريقٌ واحدٌ لا غيرٌ ، هو العملُ السَّريعُ المحْكَمُ ، واهتِبَالُ الغَفْلةِ المحيطةِ بهذه « اليقظة » الوليدة ، كما حَدَّثْتُكَ آنفاً ، ومعاجلتُها فى مَهْدِها قبل أن يَتَمَّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتصبحَ قُوَّةً قادِرةً على الصِّراعِ والحركةِ والانتشارِ ، فإنَّ تَمَّ ذلك ، فما هو إلَّا أن تعودَ الحربُ بين الشمالِ والجنوبِ جَدْعَةً ، وعندئذٍ لا يَضْمَنُ أَحَدٌ مَغْيَةَ الصِّراعِ المشتعلِ بين سِلَاحِيْنِ متكافئِيْنِ ، وثقافتِيْنِ مُتكاملَتِيْنِ . لا يَضْمَنُ أَحَدٌ لِأَيِّ الفِئَتَيْنِ تكونُ الدُّولةُ والغَلَبَةُ والسِّيَادَةُ = ومرةً أُخرى أقول

لك : لا تنظر الآن إلى الفرق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحي والجنوب الإسلامي ، فإنك إن فعلت ضللت عن الحقيقة ، والحقيقة يومئذ أن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تُستدرك باليقظة وبالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر . ولعلم « الاستشراق » يومئذ بهذه الحقيقة ، كان فرغهم الأكبر . لا تنس هذا أبداً ، وكُنْ على حذرٍ من الضلال ، ومن التضليل والتغريب الذي تعجُّ به اليوم حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، وألسنتها الغرثارة المشدقة بأوهام « الأصالة والمعاصرة » و « القديم والجديد » و « الثقافة العالمية » ، وبالقصية الهزلية : « قضية موقفنا من الغرب » ! يالهُ من عارٍ فاضح ، ويالهُ من عبثٍ رزين مُتعاقل ! ما علينا ؟

• « الاستشراق » كما رأيت قبل هو عينُ « الاستعمار » التي بها يُنصِرُ ويحدِّقُ ، ويده التي بها يُحسُّ ويبطِشُ ، ورجله التي بها يمشى ويتوغَّلُ ، وعقله الذي به يفكرُ ويستبينُ ، ولولاه لظلَّ في عميائه يتخبَّط . ومنَّ جهل هذا فهو ببدائه العقول ومسلَّماتها أجهل . فلما فرغ « الاستشراق » فرغت معه كلُّ المسيحية الشمالية ودولها التي كانت أساطيلها تطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، وتتوغَّل بسيطرته على سواحلها ، متحسِّسةً طريقها إلى قلب هذه الدار المترامية الأطراف ، بالدهاء والمكر وبالخدعة ، وبالتنمر أحياناً حين يتطلَّب الأمر التنمر والترويع .

كانت دُول أوربة كُلُّها في صراعٍ مستميتٍ فيما بينها على نهش أطراف دار الإسلام ، واستنزاف ثرواتها وكنوزها وخيراتها بشراسة لا تشبع . وكان أكبر الصِّراع المتوحِّش على الطرف البعيد في الهند ، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام في دار الخلافة (تركية) أن تصنعَ لإنقاذها شيئاً ذا بالٍ ، بل هي يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وجودها وهيبتها لا أكثر . كان أكبر دولتين يومئذ : إنجلترا وفرنسا ، وكان السبق لإنجلترا ،

فأنشأت ما يسمونه « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، وهو أول جهاز استعماري قوى وذلك في سنة (١٦٠٠ - ١٨٥٨ م / ١٠٠٩ - ١٢٧٥ هـ) ، وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعماري باسم « شركة الهند الشرقية الفرنسية » (١٦٦٤ - ١٧٦٩ م / ١٠٧٥ - ١١٨٣ هـ) ، ولا يغرك لفظ « شركة » ، فإنه في الحقيقة جيش غاز مسلح ، مهمته النهب والسلب وقطع الطريق ، وتخويف الضعفاء الذي لا يملكون عن أنفسهم دَفْعاً . بدأ الصراع بين « الشركتين » في الهند = أى « اللصين » = صراعاً مستحراً مستميتاً ، وظلّ محتدماً حتى قضت « الشركة البريطانية » على « الشركة الفرنسية » قضاءً مبرماً ، على يد القائد البريطاني المحنك « روبرت كلايف » (١٧٢٥ - ١٧٧٤ م / ١١٣٨ - ١١٨٨ هـ) في معركة فاصلة سنة ١٧٥٧ م / ١١٧١ هـ) وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فخرجت هى والأسبان وغيرهم من حلبة الصراع في الهند دامية وجوههم وأكبأدهم ، واستأثرت إنجلترا وحدها بالصيد الغزير .

ففى ذلك الوقت جاءهم النذير ، نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدْهِم الذى تهددهم به « يقظة » دار الإسلام بقيام محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، وظهور الجبترى الكبير (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) في مصر هو والزبيدى ومن قبله البغدادى (انظر ص : ٨١ ، ٨٢) . كان نذير « الاستشراق » مروّعاً وحاسماً . أمّا إنجلترا صاحبة « الشركة الهندية الشرقية البريطانية » فأسرع مُستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، وبالذّهاء والمكر والدسائس جاءت في زى الناصر والمعين لتندسّس إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » = يقظة تنقية « الدين » مما تراكم عليه من البدع المفسدة لعقيدة التوحيد = لتتخذ بذلك عندها يدًا ، وبهذه اليد تسيطر عليها وتحتويها ، وأبعدت إنجلترا الرحلة من ناحية أخرى ، تولّب عليها من حولها لتطوّقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . وهذا هو أسلوب بريطانيا حيث حلّت من الأرض .

وأما فرنسا التي عادت من الهند تلغق جراح هزائمها ، فكان وَقَع النذير مختلف الأثر ، مختلف الأسلوب ، في قصة طويلة من تنبه « الاستشراق » لما يجري في دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرت بنصيب الأسد في الهند ، فإن لفرنسا لتصيباً قريباً تُعَدُّ العُدَّة للظفر به ، لا يفصل بينها وبينه إلا بحر ضيق ، ممكن أن يكون لها عليه السلطان الأعظم . ومن قبل ظلت تدبر الأمر زمناً طويلاً لتظفر بهذا النصيب في مصر وفي الجزائر ، ومعنى ذلك أنها عادت مرة أخرى تفكر في اختراق دار الإسلام ، الأمر الذي كان مستعصياً نحو عشرة قرون أو أكثر . وكان نذير « الاستشراق » يومئذ يحذر المسيحية الشمالية من هذه « اليقظة » المخوفة العواقب ، يقظة « اللغة » على يد الشيخين الكبيرين البغدادى والزبيدى وتلاميذهما ، ويقظة « علوم الحضارة » على يد الشيخ الجبى الكبير وتلاميذه . « يقظة » في ديار تضم أقدم بيتين من بيوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا جميعاً متواصليْن اثني عشر قرناً مؤيلاً للعلم والعلماء ، هما « الجامع العتيق » بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه) و « الجامع الأزهر » بالقاهرة ، وهما اسمان يترددان في أرجاء دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . فاليقظة التي تأتي من قبلهما سوف تؤدي إلى يقظة دار الإسلام كلها ، بما فيها اليقظة المتفجرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب . فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير ؟

وقبض الله لفرنسا قائداً أورياً محنكاً مظفراً شديد البأس ، خوَّاصاً لغمرات الموت ، ضرسته الحروب في أوربة حتى صار اسمه مثيراً للرعب في القلوب بأنه قائد لا يقهر ، هو الصليبي المكيافلى المغامر المفتون الفاجر : « نابليون » ، (١٧٦٩ - ١٨٢١ م / ١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ) ، فلما فرغ من حروبه في أوربة منصوراً نصراً مؤزراً ، أصاح سمعه لنذير « الاستشراق » ، ولئنصحه وإرشاده ، فقدّر أن الحين قدحان

ليكونَ أوَّلَ قائدٍ أوربيٍّ استطاعَ بقوّته التي لا تُقهر ، أن يَخترقَ قلبَ دار الإسلام من الشمال ، وأن يَدَاهِمَ « اليَقْظَةَ » التي أُرْقَتْ مِنَام « الاستشراق » ، وأن ييطشَ بها في عُقر دارها بَطْشَةً جَبَّارٍ عاتٍ لا يُنْقَى على شيءٍ ، وفوق ذلك كُلّه : أن يُردَّ لفرنسا هيبَتها التي ضاعت يوم طردتها بريطانيا طرداً مخزياً من دار الإسلام في الهند القصيّة البعيدة ، وبذلك تنفردُ فرنسا وحدها بالمجدِ السنّي كُلّه ، وتكلّلها المسيحية الشمالية عندئذ بأكاليل الغار .

وفي أوّل يولييه سنة ١٧٩٨ م / ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هَوَى نابليون هُوًى العُقَاب على مَهْد « اليقظة » في الديار المصرية ، هَوَى على الإسكندرية فجأةً بجحافله وأساطيله مزوّدة بكلِّ أداة للحرب جديدةٍ مما تمخّض عنه علم أوربة يومئذٍ ، مصطحباً معه عشرات من صغارِ « المستشرقين » وكبارهم ، وطائفةً من العلماء في كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، معهم كُلُّ غريبةٍ مما كشف عنه العلم المُستحدث . فاستباح الإسكندرية ودمّر ما دَمَّر ، ثم طوى الأرض طيًّا مكتسحاً في طريقه شمالَ مصر ، حتى دخل القاهرة في العاشر من صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٤ يولييه ١٧٩٨ م) . وذَعِرَ الخَلْقُ ، فبدأ يَدَاهِنُ الناس ، وحاول أن يستميل « المشايخ » في رجال الأزهر ، كي يستجيبوا لِمَحَالِهِ ومخاتلته ، فلمّا رأى امتناعَهُمْ على تطاول الأيام ، عَجَلَ فأطلق جنوده الغزاة ، ليطفئوا ما استقرَّ في قلوبِهِمْ من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام ، وأترك الجبرتي المؤرخ يصف لك ما حدثَ في يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ ، (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، قال الجبرتيّ ، (تاريخ الجبرتي ٣ : ٢٦) بلفظه :

« بعد هَجْعَةٍ من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسَّيْل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جُنْد إبليس ، وهَدَمُوا ما وجدوه من المتاريس ... ثم دخلوا إلى « الجامع الأزهر » وهم راكبون الخيول ، وبينهم المُشاة

كالوعول ، وتفوقوا (أى : قاعوا) بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاصع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشنتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه تغوطا ، وبألوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيها ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عرّوه ، ومن ثيابه أخرجوه » . (١)

وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك ، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقها ونهبها ، بحقدٍ وشراسة . وبالطبع ، وظاهرٌ جداً ، أن « الحملة الفرنسية » بقيادة نابليون ، ومعها مستشرقوها وعلماءها ، لم يتكبدوا المشقة فما فوقها بقطع البحار ، والبرارى والقفار ، إلا ليخرجوا هذه الأمة من الظلمات إلى النور ، أى من عصر الجهالة المظلمة إلى عصر العلم المضئ ، أى لنبدأ « عصر النهضة الحديثة » فى بلادنا نحن ، أو كما يقال !! هكذا ينبغي أن نقول لأبنائنا فى المدارس والجامعات !! ألم أقل لك آنفاً إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والحسرات والآهات ؟

...

• « قصة مقحمة » ، وأنا أصحح تجارب هذه الرسالة لطبيعتها ، وقفتُ على فصل مهم جداً ، كتبه الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام ، (الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٥) ، فرأيتُ أن أقحمها بين الكلامين ، لكى تصحح بها الأخطاء التى وقعت أنا فيها فى سياق الحديث عن « الحملة الفرنسية » بتسرعى وحِدَّتِي يقول الدكتور زكى :

(١) للأستاذ محمد جلال كشك كتاب سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » ، فقرأه لأنه مفيد .

« جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ، ووصلت إلى شواطئ الإسكندرية سنة ١٧٩٨ ، أى قبيل فاتحة القرن التاسع عشر بستين ، وكان مع الحملة جماعة من العلماء الفرنسيين في تخصصات علمية مختلفة ، فكان ممّا صنعه أولئك العلماء ، أن استدعوا كبار علماء الأزهر الشريف ، جماعة بعد جماعة ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة . من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفوهم صفّاً ، مشبكي الأيدي جاراً مع جاره ، ثم يمسون الواقف بسلكٍ مكهرب ، فتسرى رعدة الكهرباء في جميعهم ، وأما هم فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضحك . ولقد حدث يوماً أن اغتاز من تلك الألعاب الصبائية أحد الشيوخ ، فقال لهم ما معناه : هل في علمكم الجديد ، ما يجعل إنساناً موجوداً هنا موجوداً في بلاد الغرب في وقت واحد ؟ فأجابوا بقولهم : إنه ليس في علومهم ذلك ، لأنه محال ، فردّ هو قائلاً : لكن ذلك ممكن في علومنا الروحانية .

« وإني لأنظر إلى تلك اللحظة التي قال فيها الشيخ ذلك الذي قاله للعلماء الفرنسيين على سبيل التحدي ، أنظر إليها على أنها لحظة البدء في أحد طريقين اتخذناهما من ذلك الحين وإلى هذه الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمات . فطريق منها اختاره الرافضون للغرب ، أى الرافضون للعصر وما أنتجه من علوم ترتب عليها ما ترتب من حضارة جديدة = وطريق آخر اختاره من أراد ممّا ألاّ تُثقل أمام العصر الجديد أبوابنا ونوافذنا ، وكانت نقطة البدء في الطريق الثاني هي رفاعة رافع الطهطاوى .

انتهى ما كتبه الدكتور زكى ، وأنا لا أستطيع أن أعلق عليه إلاّ بالتسليم الخاشع لبراعته في تأريخ الحملة الفرنسية والمشايخ المصرية وعلماء الأزهر الشريف ، وإنما أقحمته لك هنا متبرّعاً ، لتستفيد عقلاً جديداً لا يملك مثلى أن يُفدِكَ إِيَّاه . ونعود إلى ما كنّا فيه

(ثم اقرأ ما سيأتى في الفقرة رقم : ٢٢) .

• فاقراً الآن معى تاريخك بعين عربيّة بصيرة لا تغفل ، لا بعين أوروبية تخالطها نخوة وطنية ، كما فعل أستاذنا عبد الرحمن الرافعى ، غفر الله له ذنوبه ، فى كتابه « تاريخ الحركة القوميّة ، وتطوّر نظام الحكم فى مصر » .

قضّى نابليون بحملته الصليبية التى غزت مصر ، على أكبر قوّة مقاتلة فى دار الإسلام بعد قوّة دار الخلافة . قضى على بأس المماليك المصرية وشتّهم ومزقهم كلّ ممزق ، وتتبعهم ينهب القرى فى الأقاليم ويبيد من أهلها ما يبيد . وبقي جمهور الأُمّة فى القاهرة أعزل بلا سلاح يدفع به عن نفسه ، وبلا حكومة تدير شؤونه . واضطرب أمر الناس ومآج ، فأنشأ نابليون حكومة جديدة سماها « الديوان » ، وهو مهزلة من المهازل السخيفة ، ولكنّ حياتنا الأدبية الفاسدة تعدّ « الديوان » نظاماً جديداً جاء يصلح فساد نظام المماليك المصرية !! تعدّه كذلك ، لأنها تنظر بعين أوروبية تخالطها وطنيّة غافلة . وكلّ ما فى الأمر أن نابليون وضع هذا النظام الهازل الماكر ، لأنه كان قد قرّر فى نفسه أن فرنسا ينبغى أن تبقى فى مصر إلى الأبد . ومعنى هذا : أن يكون مصير مصر ، هو مصير « الجزائر » التى اقتحمها الفرنسيون بعد ذلك سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦) ، وفعلوا بأهلها ما فعلوا ، ولا أظنّك تجهل ما فعلوا بدار الإسلام فى الجزائر .

بقى هذا القائد المفتون نحو سبعة أشهر فى القاهرة يخرب ويفعل الأفاعيل ، وفى فبراير سنة ١٧٩٩ م (رمضان ١٢١٣ هـ) خرج منها ليدوّخ سورية بقوّته التى لا تُقهر ، وظلّ يقاتل بها نحو ثلاثة أشهر ، وحاصر « عكا » ، ولكنّ المقاومة التى لقيها هناك ، اضطرتّه إلى رفع الحصار عنها فى ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ م (ذى الحجة ١٢١٣ هـ) بعد أن فقد آلافاً من جيشه وعشرات من قوّاده وعلمائه ومستشاريه ، وعلى رأسهم المستشرق الداهية « فانتور » خليله ومستشاره فى شؤون دار الإسلام . كانت

هزيمته في « عكا » هزيمةً منكراً ، فآبَ إلى القاهرة وفي قلبه الخوف من العواقب التي تَفْجُوهُ بها دار الإسلام ، واستشفَّ ببصيرته وذكائه أنَّ أمر الحملة قد انتهى إلى غير رجعة ، وأحسَّ بما تغلَّى به القاهرة غلياناً سوف يُفضي إلى الانفجار ، فانتهاز فرصة اضطراب الأمور في بلاده فرنسا ، واتَّخذ الليل جَمَلاً ، وكرَّ راجعاً إلى فرنسا في ١٨ أغسطس ١٧٩٩ ، (١٨ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) ، وترك الأمر كُلَّهُ لخليفته « كليبر » ليعانى منه ما يُعانى ، وقد كنَّتم عنه عزيمته على السَّفر ، ثم راوغه حتَّى رحل قبل أن يلقاه .

• وما كاد « كليبر » يستقرُّ على عرش خلافة نابليون أشهراً قلائل ، حتى أفاقت القاهرة من ذُهلها واستعدت لمقاومة الغزاة ، وانفجرت الثورة فيها شهراً كاملاً ، (٢٠ مارس - ٢١ إبريل ١٨٠٠ م / ٢٣ شوال - ٢٤ ذى القعدة ١٢١٤ هـ) وارتكب « كليبر » في سبيل إخمادها أفظع ما يرتكبه قاطع طريق مجنون من الفظائع والجرائم ، وضرب القاهرة بمدفعه فخرَّب الدُّور والقصور والمساجد والحمامات والزوايا والقباب والأسوار ، « حتى بقى ذلك كُلُّه خراباً متصلاً » ، كما يقول الجبرتي ، مما لا تزال آثاره شاهدةً باقيةً إلى يوم الناس هذا ، لمن ينظر بعين عربية ، لا بعين أوربية تخالطها وطنية ! وأُحمدت الثورة ، وظنَّ « كليبر » أن مصر كُلَّها قد دانت له بالطاعة ، ولكنه لم يهنأ بظنِّه هذا شهرين حتى انقضَّ عليه عُقابُ كاسرٍ ، هو المجاهد « سليمان الحلبي » ، فعاجله بطعنة خنجرٍ في قلبه فخرَّ وهو يصيحُ : « إلى أيُّها الحراس » ، « وخرَّ صريعاً لليديْنِ وللقيم » ، وذلك في يوم السبت (٢١ من المحرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيه ١٨٠٠ م) . ما كان أذكى نابليون ! لقد توقَّع هذا المصير ، فتجأ بجلده هارباً ، وهو يُنشد ما قاله بشَّار بن بُرْد :

إِذَا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَّةٍ أَوْ نَكِرْتَهَا خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادٍ (١)

(١) « أنكرته ، ونكرتُه » ، كرهته وأوجست منه خيفة ، و « البازي » ، ضربٌ من الصقور الجارحة ، وهو يخرجُ من وكرة بغلس قبيل الفجر . و « على سواد » ، يعنى خرج فجراً يلقه سواد الليل . وكذلك فعل نابليون .

• ثم خلف « كليبر » على عرش نابليون في مصر ، « مينو » القائد المكيافلي الشقي الكذاب المنافق الأرعن في يونيو ١٨٠٠ م (المحرم ١٢١٥ هـ) . كان حاكماً لرشيد من قبل نابليون ، فأصاخ سمعه لسخفاء « الاستشراق » ومخادعيهم الكبار ، فقرر ، أو قرروا له ، أن يتقرب إلى شعوب دار الإسلام ، بإعلان إسلامه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه « أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما ، تاركاً لدين النصرانية والأديان الرديئة » ، ^(١) ثم ظن أكذب الظن أنه من أسرة فرنسية عريقة ، فهو خليف بأن يصاهر أسرة من أهل رشيد ، شريفة النسب ، من بيت النبوة ، فأجمع أمره على محاولة التقدم إلى الشيخ الجارم العريق النسب ، أن يزوجه إحدى أبنائه ، فلم يكذب الخبر ينمى إلى الشيخ حتى أسرع مبادراً فزوجهما رجلين من المسلمين قبل أن يتقدم إليه هذا الخبيث العريق الحباثة ، ولكن وقع في حبال « مينو » السيد محمد البواب أحد أعيان رشيد ، ولا ندري كيف كان ذلك ، ^(٢) فزوجه ابنته المطلقة « زبيدة » في الخامس والعشرين من شهر رمضان ١٢١٣ هـ ، (٢ مارس ١٧٩٩ م) . وطير « مينو » الخبر يومئذ إلى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا ، فما أنكر ذلك عليه . ولكن انظر يا سيدي إلى رجل عربي مسلم ، في حياته هذه الأدبية الفاسدة ، يكون كل تعليقه ، بعد أن روى خبر زواج هذا الخبيث بهدوء وأناة فقال : « وكانت حادثة زواج مينو ، فريدة في بابها ، لم يسبقه إليها أحد من قواد الجيش الفرنسي ، فلا غرو أن كان موضع تهكم زملائه » . يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسماحة في التعبير ، يعبر العربي المسلم ! ويقول : « تهكم زملائه » ؟ . ^(٣) ألم أقل لك إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكميات ، والآهات والحسرات ؟

(١) ما بين القوسين هو نص ما جاء في وثيقة زواجه .

(٢) ولكن من الممكن أن ندري ، بل نستيقن ، إذا نحن أحسننا معرفة ما فعله جهاز الاستشراق فيما قبل

مجيء الحملة ، كما سأشير إليه في قضية المشايخ والديوان في الفقرة الآتية رقم : (٢٢) .

(٣) هو نص كلام الرافعي في « تاريخ الحركة القومية » ٢ : ٢١٤ .

وبقى « مينو » في إمارته ، يلاقى الأمرين ، وينزل بالناس المصائب والبلايا ، ويعيثُ هو وبقايا الحملة الفرنسية في الأرض فساداً وتخريباً ، حتى انتهى جلاء هذه الحملة الجاهلة التي جاء بها الفتى الصليبيّ المُخترق « نابليون » ليخترق دار الإسلام في أعظم معقل من معاقلها ، حيث « الجامع العتيق » بالفسطاط و « الأزهر الشريف » بالقاهرة ، وليدمر « اليقظة » التي كانت فيها تدميراً لا يُبقى ولا يذر ، ثمَّ كان الجلاء الأخير من الإسكندرية ، يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر ١٢١٦ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٠١ م ، وخرجت فرنسا من مصر على عَجَلٍ ، ولكن ...

...

٢١ - ولكن ، هل يليقُ بي أن أكُفِّ ، وأدعَكَ مُصْنِئاً إلى تترقُب بقية

الحكاية ؟

... رحلت فلؤل جيش الفتى السفّاح المغرور « نابليون » ، وجَلَّتْ عن بلادٍ واسعةٍ عريضةٍ تركتها بَلْقَعاً تَصْفِرُ فيه الرِّيحُ ، وأنكشَحَتْ عن عاصمةٍ عتيقةٍ تركتها خراباً .^(١) كان خراباً شاملاً ، وتدميراً لمدينة زاهرةٍ من أجمل مُدُن العالم يومئذٍ ، بعمارتها وفنونها ، وبركها ومتنزهاتها ، أقدمَ على تدميرها تدميراً كاملاً بَرَبْرِيٍّ جاهلٍ مُسْتَحْفٍ في زِيٍّ متحضرٍ ! ولكن صار هذا التدمير ، في عَيْنِ حياتنا الأدبية الفاسدة ، هو رسولُ الحَضَارَةِ الذي جاء ليخرجنا من ظُلُمَاتِ الجهل إلى عصرِ النور والتَّنوير !! لا تضحك ولا تبك ، ولكن أطرقِ إطراقةَ الخِزْيِ والمهانةِ والعار . وكيف لا تطرقِ إطراقةَ الخِزْيِ إذا انكشف لك الحجابُ عن نيةِ هذا المكيافلِي الخبيث . كان

(١) لا تحسب أن « انكشع » عامية ، بل هي عربية صحيحة . « أنكشع القوم » ، ذهبوا وتفرقوا .

هدف هذا البريرى المتحضر (!!) أن يخرب عاصمة من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها ، ويتركها تاريخاً يزوى في وثائق « علماء الحملة الفرنسية » ، ^(١) أى يتركها أثراً بعد عين ، حتى إذا تمكّن في الأرض هو وجنسه ، أنشأ على أنقاضها البائدة مدينة فرنسيّة جديدة ، تعبّر تعبيراً فصيحاً عن العبقرية الفرنسية ، والفنّ الفرنسى ، والجمال الفرنسى ، والرقّة الفرنسية !! يعمرها يومئذ شعب فرنسى أصيل كريم المحنّد ، يخدمه شعب عربى مستأنس مروّض ترويضاً حسناً على إلف العادات الفرنسية الشريفة ، والتقاليد الفرنسية النبيلة ، والفجور الفرنسى الخالد كما سأحدثك عنه فيما بعد ، وليس الذى حدث في دار الإسلام في « الجزائر » عنك ببعيد .

ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخربة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثروته بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات ، حتى سرق « المستشرقون » المصاحبون للحملة الفرنسية ، و « مستشرقون » آخرون من كل جنس ، سرقوا كلّ نفيس من الكتب ، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قائم بين أعيننا إلى هذا اليوم ، يصبح شاهداً على نفسه بالسّطو على ذخائرنا التى يمتنون علينا بعد ذلك ، في حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها ، (اقرأ ما ذكرته عن هذا النشر فيما سلف ص : ٥٤ ، ٥٥ ، والتعليق عليه) . دليل السرقة قائم في جميع مكاتب أوربة ، صغيرها وكبيرها ، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وروسية وغيرها من البلدان ، وفي الأديرة والكنائس ، وفي جميع أرجاء العالم المتحضر !! وكان همهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب « علوم الحضارة » أولاً ، ثم على كتب « التاريخ » ، ثم على كتب « الآداب » كلّها بلا تمييز . ورحم الله

(١) هو كتاب « علماء الحملة الفرنسية » المعروف باسم « وصف مصر » وقد سجلوا فيه كلّ صغيرة وكبيرة في مصر ، لكى يصبح وثيقة تاريخيّة ، يتلذذون بها حين يقرؤونها .

الشيخ الجبرتي المؤرخ ، فإنه أرخ لدمار القاهرة ، ولكنه بغفلته لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كُتُب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمرء والممالك المصرية إلا في مواضع متفرقة قليلة بلا بيان واضح ، وإنما هي الحسرة لا غير . من ذلك أنه ذكر في مقدمة كتابه (تاريخ الجبرتي ١ : ٦) بعد أن عدّد أسماء كتب التاريخ التي كانت في القاهرة ، ثم قال :

« قلت : وهذه أسماء من غير مسمّيات ، فإننا لم نَر من ذلك كلّهُ إلا بعض أجزاء مدسّنة بقيت في بعض خزائن الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدي الصحّافين ، وباعها القوّة والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيّس ما وجدوه إلى بلادهم » ، انتبه لهذا النص فهو مهم .

ثم قال أيضاً (تاريخ الجبرتي ٣ : ١٨٣) ، وهو يذكر قصة شروط الصلح للجلاء عن القاهرة ، ومن الشروط : أن الفرنسيين : « يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبهم ، ولو التي سرّوها من مصر » ، هكذا في الشرط ، والصحيح : « ولو التي سرّوها من مصر » . ورحم الله الشيخ الجبرتي ما كان أشدّ غفلته عن أمور كثيرة لم يذكرها واضحة ، بما فيها مكتبة أبيه « الجبرتي الكبير » ، ماذا فعلوا بها ؟ وذلك لأنه كان مشغولاً عنها بتدبير أمر نفسه في مَعْمعة هذا التدمير الشامل للقاهرة وبيوتها وقصورها ومساجدها وعمائرهما . و « لعل له عُذراً وأنت تلوم » .

• لم يكن هذا السطو الجائح على كُتُب دار الإسلام في القاهرة ، والذي تولّى كِبَرُهُ « مستشرقو » الحملة الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرق سائر بلاد المسيحية الشمالية = لم يكن هذا سطواً لمجرد رغبة « الاستشراق » في أداء عمله ، من استمداد لثقافة أمّيه من علم دار الإسلام المسطور في الكتب ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ - ٤٩ ، ٥٤ -

٥٦) ، ولشدة حاجة يقطّهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا العلم ، لا ، بل كانت الغاية الأولى المقدمة على كُلِّ غايةٍ ، هي تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب « البقطة » التي جاءت الحملة الفرنسية لَوَادِها في مَهْدِها ، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم . ووفرة هذه الكتب النفيسة في القاهرة يومئذ ، هي التي يَسَّرَتْ الطريقَ إلى هذه « البقطة » التي حمل عِبَاءَ الْبَدءِ بها « الجبرتي الكبير » وتلاميذته ، و « البغدادي » و « الزبيدي » وتلاميذتهما ، فكان لا بُدَّ للاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله ، فهو الهدف الأكبر : وأد « اليَقْطَة » في عُقْرِ دارها . وبلا شك كانت سنوات الحملة الثلاث ، وما أصاب القاهرة فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماء ، وما عمَّ أحياءها من التَّوَارِثِ والْفِتْنِ الكبارِ والصَّغارِ ، ثم قَمْعُها بفجورٍ وشراسةٍ ، وتحضُّرٍ أيضاً ، = كان ذلك كُلُّهُ حَدَثًا متبادياً كافياً أدَّى إلى تشتيت شَمْلِ تلامذة « الجبرتي » و « البغدادي » و « الزبيدي » وتفرُّقهم في الأرضِ ، وضَيَاعِهم في الهَرَجِ والمَرَجِ . بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السِّفَّاحين العُتاة ، أن يكون ذُهاةُ « الاستشراق » على عِلْمٍ بأعيانهم وأسمائهم ، منذ كان « المستشرقون » يتردّدون على البيت العاِمِرِ بالصَّنَادِقِيَّةِ ، (حارة قرب الجامع الأزهر) ليقروا على صاحبه « الجبرتي الكبير » ، كما حدثتكَ آنفاً ، (اقرأ ص : ٨٣) = لا أستبعد أن يكون وَكُرُّ « الاستشراق » قد أغرى سُفْهَاءَ السِّفَّاحين بتعمُّد قَتْلِ بعضهم غيلةً أو جَهرةً ، لا أستبعد ، والله أعلمُ أيُّ ذلك كان . فكان السببُ الأكبر الدافع إلى هذا السطو الجائع ، هو أن يحولوا بين « بقايا البقايا » من تلامذة أئمة « اليَقْطَة » الثلاثة الكبار ، وبين أسباب « اليَقْطَة » ، وهي الكُتُب النفيسة ، وأن يتركوهم في خربة القاهرة حَسَرَى حيارى حيرةً « الجبرتي » الصغير المؤرخ ، حين شرع في تأليف تاريخه ، فاقتقد كتب « التاريخ » التي « ذهبت بقايا بقاياها في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسييس ما وجدوه إلى بلادهم » ، أو كما قال . حسرةً قاتلةً ، ولكن حياتنا

الأدبية ، أو نهضتنا الحديثة ، كما يسمونها ، لا تلقى بالاً إلى حسرة مسكين بائس حائر كالجيتى الصغير !

• وُئِدَت « اليقظة » أو كادَتْ ، وَخُرِبَتْ ديارُها أو كادَتْ ، واستُوصِلَتْ شَأْفَةُ أبنائها أو كادَتْ ، واقتُلِعَتْ أسبابُها بالسَّطو أو كادَتْ ، والحمدُ لله على نَعْماءِ « الحملة الفرنسية » التى كان سَفَاحُها المُبِيرُ « المتحضّر ! » ينوى أن ينشِئَ لبقايا السَّيفِ والتدمير من أبناء القاهرة العتيقة المهْدَمة « قاهرةً جديدةً » ، يستمتعون فيها بجماها وفنونها ، ومسارحها وملاهيها ، وقصورها ومتنزهاتها ، ويتبخترون فى شوارعها خَدَمًا فارِهِين للسَّادة الأحرارِ أبناءِ « الحرية والإخاءِ والمساواة ! »

لقد شغلتنى قِصَّةُ وَادِ « اليقظة » وقِصَّةُ الخرابِ والتدمير ، وقِصَّةُ السَّطوِ الدنى = شغلتنى عن نذالة هذا السَّفَاحِ الصليبيِّ المُبِيرِ ، وما كَانَ من بشاعة سفحه الدَّمَاءِ فى القاهرة ، وأوامره إلى قُوَّاده فى الأقاليم أن يُوغِلُوا فى سَفَكِ دماءِ « التُّركِ » ، أى المُسلمين المصريين ، وأن يتشبهوا به ، إذ يقتل فى القاهرة وحدها كُلَّ يومٍ خمسة أو ستة ، ويأمر أن يُطَافَ برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، ويقول : « هذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجَّهُوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، ^(١) فى قصة طويلة فظيعة ليس لها شبيهة ، هى أفضعُ من بلايا « جنكيزخان » .

... وشغلتنى أيضاً عن « جهاز الاستشراق » ، وهو الجهازُ المستكنُّ فى أحشاء « جهاز الاستعمار » و « جهاز التبشير » ، يَرَبُّهُما ويهديهما الطريق ، (« يربأ ») ، يَرْقُبُ من

(١) اقرأ أخبار ذلك كله فى كتاب الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » ١ : ٢٨٣ وما بعدها . والذى قرأت

هنا من نص بعض رسائل نابليون إلى قُوَّاده فى يولييه سنة ١٧٩٨ .

مكان عال ويتطَّلَع) ، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهامًا في أودية الضلال . كان هذا الجهاز الخبيث المتخفّي في عباءة العلم والبحث ، قد اكتسب خبرةً واسعةً جدًا بدار الإسلام وأهلها وسكانها ، منذ انساح في قلب دار الإسلام في تركية وهو يدبّ مستخفياً في أرجائها ، ثم في الشام ومصر وجوف إفريقيا وممالكها المسلمة ، (اقرأ ما سلف : ٥٣) = ومنذُ مقامه في دار الإسلام في الهند أكثر من مئة وخمسين سنة ، في ظلّ الشركتين الكبيرتين : « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، و « شركة الهند الشرقية الفرنسية » ، وغيرهما من « شركات » دول المسيحية الشمالية ، (اقرأ ما سلف : ٨٧ ، ٨٨) . كانت خبرة متغلغلةً بجماهير الأمة مجتمعةً ، ثم بطوائفها المختلفة ، ثم بأفراد رجال بأعيانهم واحداً واحداً ، معروف الاسم والمكان والحركة . كانت خبرةً بمواطن الضعف والقوة ، وبمكامن الهوى الميال الذي يستجيب ، والإرادة المصمّمة التي تمتنع عن الاستجابة ، أى كانت خبرةً مدروسةً منظّمةً واضحةً المعالم في ذهن « الاستشراق » . ومع تطاول السنين عليه ، اكتسب لنفسه أعواناً من اليهود وشذاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، يستأجرهم لتوسيع رُفعة خبرته تارةً ، ولبت أفكار مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصتها وعامتها ، وللتحكّم في تصريف أموره وبلوغ غاياته تارةً أخرى = ثم للتمكّن من إشعال نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداث فتن تفرّق شمل الناس وتمزّقهم وتشغلّهم عن الكيد الخفّي الذي يُراد بهم . كلُّ هذا كان يتمّ في هدوء وصبرٍ وتسترٍ ، ومن وراء الغفلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم ، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع في كلّ زيّ زيّ التاجر ، وزيّ السائح ، وزيّ الباحث المتّقّب ، وزيّ العالم الذي لا يشغله شيء غير العلم ، وزيّ المهمل الذي رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً !! (اقرأ ما سلف ص : ٥٣) .

فالحملة الصليبية الفرنسية التي استجابت لنذير « الاستشراق » ، كان « الاستشراق » مستكنًا في أحشائها وأحشاء قائدها العظيم « نابليون » ، يُرشده « الاستشراق » ويهديه . وهي لم تُقدِّم على اختراق دار الإسلام في مصر ، إلا وهي مُزوَّدة بأدق التفاصيل عن هذه الأرض وسُكَّانها ، ومداخلها ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامتها وسوقها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبها . جاءت ومعها الدَّجالون العُتاة « علماء الحملة الفرنسية » ومستشرقوها وخبرائها وأعوانها من اليهود وشذاذ الآفاق ، وكلُّهم يدّ واحدة على إحداث انبهارٍ مفاجيء يصدمُ وعيَ الشعب خاصته وعامته صدمةً تذهله عن المكر المَسْتور المُفضي إلى تدمير رُوح المقاومة أو إضعافها إضعافاً يُتيح للغزاة تثبيت أقدامهم في الأرض والسيطرة عليها سيطرةً كاملةً ، حتى لا تدع للمقاومة طريقاً إلا طريق الاستسلام العاجز للمصير المُظلم ، مصيرٍ مُعتمٍ لا يستفيق الشعب إلا وهو مُرتكسٌ في ظلماته عاجزاً غير قادرٍ على طلب المخرج من ظلماتها المدهمة ، في « القاهرة جديدة » زاهرة زاهية الألوان ، قامت على أنقاض « القاهرة قديمة » مدمّرة غابت في قتام الذكريات !!

• كان أوَّل الطريق إلى هذا المصير المُظلم إنشاء « الديوان » ، ^(١) وليس يعنيني هنا من أمره شيءٌ إلاَّ خَبْوه المدفون فيه ، والخُدعة التي ينطوى عليها ، فيما تصوِّره « الاستشراق » . وهذا « الديوان » ، أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة ، (الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣ / ٢٤ يوليه ١٧٩٨) ، وذكر في أمر إنشاءه أسماء مشايخ

(١) « الديوان » صورة هزلية « لحكومة دستورية ! » ، كما يتوهم الرافعي ! ، تحكم القاهرة ، وكان لكل مدينة أخرى ديوانها الحاكم ، وتستطيع أن تقرأ هذه المهزلة في « تاريخ الجبري » ، أو في « تاريخ الحركة القومية » للرافعي ، ولكن أقرأها بعين عربية بصيرة ، لا بعين أوربية تخالطها وطنية قومية ، كما فعل الرافعي وغيره .

بأعيانهم يتكوّن منهم « الديوان » . وهذا الذكر المفاجيء وحده دليل على أن الأمر كان مُعدّاً إعداداً كاملاً قبل أن تطلّ قدمه أرض مصر ، وأنّ الأسماء قد آخِثِرَتْ بعد تدبير مُحكَم ودراسة قام بها « الاستشراق » وأعوّاه منذ فكر في شَنّ الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : « أن يكونوا من أعيان البلاد الذين امتازوا بمركزهم العلمي وكفائتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين » . ^(١) ومعنى ذلك أنّه يريد أن يُودِع سُلطة الحكومة الظاهرة المموّهة ، في يد فئة ذات هَيْئَةٍ عند الناس ، وأن يكونوا جميعاً ممّن يُمكن أن يستجيبوا بشكلٍ ما استجابةً تدين بالولاء لجيشه الغازي ، ليروّضَ بهم قُوَى المقاومة ويخدعها ويفتّ في عَصْدُها . وهذا شيء لا يُقدّم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خبرة سابقة بأصحاب هذه الأسماء وبمواطن ضَعْفِهِم التي تقعدُ بهم عن المقاومة ، وتُسَوِّل لهم أن يُحَسِّنُوا « استقبال الفرنسيين » الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كلّهُ إلاّ عن طريق جهازٍ مدربٍ قد طال عَهْدُهُ باختبارِ النَّاسِ وتقصّي أحوالهم من قريب . وهذا الجهاز هو « جهاز الاستشراق » الذي كان يعرف لغة أهل البلاد ، والذي كان يتجوّل في الأرضِ المصريّة من قبلُ ويلبسُ لأهلها كلّ زيٍّ ، كما حدثتكَ آنفاً . وكلّ المنشورات التي كان أصدرها هذا المكيفلّي ، لِيُثَلَقَى وتذاعَ على المصريين منذ أوّل دخوله أرض مصر ، تدلُّ صياغتها على أنّ صاحبها وصاحبَ مَضْمُونِها له خبرةٌ طويلةٌ بألفاظ أهل الإسلام ، وبمعقائدهم ومشاعرهم . فبيّن أنّ صاحبها هو « الاستشراق » لا غيرُ ، وهو يظنُّ أنّه قادرٌ بتمويهه ومكره ومداهنته ، أنّه بهذه الصغائر السخيفة قادرٌ على أن يخدعَ أُمَّةً كاملةً عن قتال عَدُوّها الغازي ، فكان ردُّ الأمة على هذا الخداع السخيف والتمويه الساذج بألفاظ أهل الإسلام = ثم على خديعة « الديوان » الفاضحة ،

(١) « تاريخ الحركة القومية » ١ : ١٠٤ .

هو اندلاع الثورات في أقاليم الوجه البحرى والصعيد ، وأكبرها ثورة القاهرة وأحيائها في يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) ، أى بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض دار الإسلام بحجافله وعُدِّه ، فارتكب في قَمْعها من القسوة والتدمير وذبح الرجال والنساء أيضاً ، وسَفَح الدماء الغزيرة ما ارتكب ، ولكنه نَذَر وأَوْفَى بَنَذَرِه أن يَزِيدَ ، فَيُضَحِّىَ عند مَشْرِقِ كُلِّ شمس بخمسة أو ستة ، تُقَطَّعُ رؤوسهم ويُطَاف بها في أنحاء القاهرة ، كما أسلفت (ص : ١٠٠ : تعليق : ١) . ولا شكَّ عندى أن هؤلاء الخمسة أو الستة هُم من طُلَّاب العلم في الأزهر ، ومن المحرِّضين على مقاومة هذا الغازى المنتهك لحرمه دار الإسلام = وأنَّ « الاستشراق » هو الذى كان يقدِّمهم لهذا الجزّار المُشَمَّعِلَ ، (أى السريع النشيط) ، وأنه كان يتخيَّرهم له ، لأنه كان على معرفة سابقة بهم ، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة « الجبريتى الكبير » و « الزبيدى » ، أى أنهم كانوا من طلائع « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية قبل كُلِّ شىء لَوادِها في مهدها . وإلا فحدَّثنى ما كان معنى اختصاص خَمْسَةِ أو ستة بالذبح عند مَشْرِقِ كُلِّ شمس ، وهذا هو وجنوده يعيثون فى الأرض ويذبحون المئات من صَنَائد المقاومة ومَعَاوِير ثورة القاهرة ؟ ورحم الله « الجبريتى المؤرخ » ، فإنه سقط عَنْهُ فى كتابه أن يقيّد لنا أسماء القتلى ، وصِفَاتهم ، وأسماء هذه الذبائح الذى كان يُضَحِّى بها جزّار القاهرة . « لعلَّ لَهُ عُدْراً وَأَنْتَ تَلُومُ » !

• كان « الاستشراق » كامناً فى أحشاء نابليون . هو الذى يُوجِّهه ويلقِّنه ويدرِّبه على أساليب المداينة التى يظنُّ أنها تروجُّ على أهل دار الإسلام ، وكان رأس الاستشراق فى الحملة الفرنسية هو « فانتور » المستشرق الداهية المحنَّك المتستّر الخفيُّ

الوطء^(١) (انظر ما سلف ص : ٩٣) ، كان خليل نابليون وَنَجِيَّهُ الذي لا يفارقه في الحَلِّ والترَّحال ، فهو الذي أَوْحَى إليه ما أَوْحَى ، وَأَوْهَمَهُ أَنْ « تدجين » المشايخ الكبار من رجال الأزهر في « الديوان » = (« التدجين » ، الاستئناس ، من قولهم « داجنٌ » لكل ما يَأْلَفُ البيوت من طائر أو بهيمة مستأنسة) = ضمانٌ كافٍ لكسب ثقة جماهير دار الإسلام في مصر حتى تستكين له وتخضع ، وظلَّ هذا الوُحَى الجاهل الساذج كامناً في أحشاء الجزائر ، ولم تعظه ثورة القاهرة والأقاليم بعد ثلاثة أشهر من مجيئه ، ولا وعظته هزيمته في « عكا » ، فإنه بعد فراره بنفسه من مصير محتوم ، كما أسلفت (انظر ص : ٩٤) كتب رسالته إلى « كليبر » كبش الفداء (!!) يقول له فيها :

« يجب أن تحذر رُوح التعصُّب وتؤمِّمها إلى أن تتمكن من استئصالها . إذا حُزَّت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنَّك تجمع حولك أفكار مصر بأجمعها ، وأفكار كلِّ زعيم من زعماء الشعب . لا شيء أقلَّ خطراً من المشايخ الذين يرهبون القتال ولا يعرفون طرقه ، ولكنهم مثل القسيسين ، يُوحون بالتعصُّب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين » . (٢)

ومسكين هذا الجزائر ، فإنَّ تدجين المشايخ الكبار في « الديوان » ، لم يمنع الثورة أن تقوم ، وذلك لأنَّ « المشايخ الكبار » لهم عند عامة المسلمين ، هيبة العلم ، وطاعتهم

(١) قضى « فانتور » أربعين سنة يتجول في دار الإسلام قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسية ، قال عنه الجبرتي : « كان ليبياً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطلبياني والفرنساوى » ، تاريخ الجبرتي ٣ : ٦٨ ، وسماه « فتوره » .

(٢) هذا من نص ترجمة الرسالة كاملة في كتاب أحمد حافظ عوض ، (فتح مصر الحديث : ٤٠٩ ، ٤١٠) ، أما الراجعي في « تاريخ الحركة القومية » ، (٩٧ - ١٠١) فإنه يعثر الرسالة بعثرة مفسدة ، لينزع منها سُمُّها ، غفر الله ذنوبه ، وسيأتي بعد قليل ما هو أشنع من هذا من فعل الراجعي .

واجبة علينا فيما هو طاعة لله ولرسوله ، ولكن هيئة العلم ليست بمناجعة جماهير الأمة من عصيانهم وترك طاعتهم إذا هم خالفوا صريح أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ بقتال الغزاة لدار الإسلام ، فإن قتال الغزاة عند المسلمين واجب وفرض عين على كل قادر على القتال ، إلا في حالة واحدة : إلا أن يخافوا أن يضطلبهم العدو قلعة عددهم وكثرة عدد العدو ، (« اصطلمهم العدو » ، استأصل شأفتهم وأبادهم) ، فجائز عندئذ أن يلقوا إليهم السلم ، (« ألقى إليه السلم » ، استسلم له وصالحه) ، بيد أن في قتالهم الشهادة ، وهي إحدى الحسنيين ، (« الحسنين » ، النصر أو الشهادة) . وفي حالة هذا الجزر ، أن جيشه قلعة فاجرة تغزو كثرة مسألة تفرق عنها حماها من جيش الممالك المصرية ، فصار واجبا على الكثرة أن تقاتل هذه القلعة بكل سلاح ما استطاعت إليه سبيلا . ولذلك لم تستمع الأمة عامتها وخاصتها للمشايخ المدجنين في « الديوان » لمهادنة الغازي ، واستمعت لصغار طلبة العلم في الأزهر الذين رفضوا نصيحة المشايخ الكبار بمهادنة الفرنسيين . رفضوها طاعة لله ولرسوله ﷺ ، وقامت ثورة القاهرة والأقاليم . وموقف « المشايخ الكبار » له تفسير ليس هذا مكانه الآن ، ولكنهم ضعفوا وجبنوا وأخطأوا على كل حال (اقرأ الفقرة الآتية رقم : ٢٢) .

وأرجح أن هذا الجزر وشيطنائه المستشرق « فانتور » ، لم تنفعهما عظة ثورة القاهرة وهزيمة « عكا » ، لأن غياب « الاستشراق » وغطرسته وتعاليمه لم تمكنهما من فهم هذه الحقيقة التي دلت عليها الثورة الجائحة التي هدّدت مصير الحملة الفرنسية وحددته تحديداً ظاهراً أدى إلى أن يلوذ جزاؤها بالفرار ، تاركاً مصير حملته وخليفته « كليبر » للمقادير تقضى فيهما قضاءها . لم يفهم هذان العلجان ، (« العلج » الرجل الشديد من العجم) ، هذه الحقيقة على صورتها الصحيحة ، فسميها « تعصبا » ، مع أنها إحدى

البدائه المسلمة ، لأن دفع عُدوان الغازي وكراهيته حقّ طبيعيّ لكلّ جماعةٍ من البشر يغزوها غازٍ في عُقرِ ديارها ، بديهةً مُسلمة بلا ريبٍ = وأخطأ أيضاً في تشبيه مشايخ دار الإسلام بالقسيسين في ديار المسيحية الشمالية ، لأنّ المشايخ لا حُرّيّة لهم وراء الكتاب والسنة ، والأمة كلّها مطالبةٌ أن تحاكمهم بما يوجبُه الكتاب والسنة . أما القسيسون فالإله وحدهم الحكم المطلق بآرائهم ، ليس لأحدٍ من رعاياهم أن يسألهم ، وليس في أيدي رعاياهم شيءٌ يحاكمونهم إليه ، وإنما هي الطاعة المُصنّعة لحُكم الرهبان والقسيسين . وهذا فرق ظاهرٌ بين رعايا الإسلام ورعايا المسيحية ، لا يعمى عنه إلا « مستشرق » ، وجزّار .

• أيقنَ الجزائرُ وشيطانهُ « فانتور » أن تدجينَ المشايخ الكبار في « الديوان » قليلةٌ جدواه فيما كانوا يُؤمّلان من طاعة الجماهير وخضوعها ومهادنتها للغزاة . أرقتهما خيبةُ الأمل في تدجينَ المشايخ ، فلمّا خرجا إلى سورية لتدوينِها وطال حصارُ « عكا » ، وأيقنا بأخيرة أن الدائرة ستدور عليهما وعلى جيشهما = أيقنا أيضاً أن محاولة اختراق دار الإسلام بالسلاح كانت زلّة لا تُقال عثرُها ، ولكن لا سبيل إلى التراجع . وكلّ الدلائل كانت تدلّ على أن دار الإسلام في مصر = بعد تمزّق جيش المماليك المصرية ، وهم حُماة مصر = قد بدأت تُخرجُ من غمار الجماهير المصرية جيشاً جديداً قادراً على الفتك بالحملة القليلة العدد ، وإن كانت مُزوّدة بأحسنِ العدد . ومع ذلك لم يئأسَ الجزائرُ المغرورُ أن تجري المقادير على وفقِ آماله ، وعسى ولعلّ ، فربّما كانت الغلبة لهذه القلّة المزوّدة بما ليس في أيدي الجماهير الكثيفة مثله من سلاح متفوّق . عسى ولعلّ ، وبيّنا النيّة على هذا الأمل ، وبحنا عن وسيلةٍ أخرى يُقدّران أن تكون أبلغ أثراً ، وأجدى في السيطرة على الجماهير الكثيفة . وانتهى حصارُ « عكا » بالهزيمة الفادحة ، (انظر ما سلف

ص : ٩٣ ، ٩٤) ، وتغلّى عن الجزار شيطائه ، وهلك « فانتور » فيمن هلك من قوّاده وعلمائه ومستشرقيه والآلاف من جُنده الغزاة ، وعاد إلى مصر كاسفّ البال ، ثم رحل عنها بعد قليل إلى فرنسا ناجياً بحُشاشةٍ نَفْسِهِ من مَصِيرٍ كان كأنه يراه ماثلاً عياناً . ولم يكد يستقرّ حتى أرسل إلى « كليبر » ، خليفته على مصر ، رسالةً طويلةً مُتفاوتةً مضطربةً عجيبة الاضطراب ، ليسكن رَوْعَ « كليبر » ويسدّد حُطاهُ في سياسته في مصر !! والذي يهمنى هنا من هذه الرسالة ^(١) = وقد اقتبستُ منها آنفاً ، (ص : ١٠٥ / تعليق : ٢) = ما جاء في خواتيمها ، وهو قوله لكليبر ، (هذا النص من ترجمة حافظ عوض) :

« ستظهر السفنُ الحربيّةُ الفرنسيّةُ بلا ريبٍ في هذا الشتاء أمام الإسكندرية
أو البرُّلس أو دمياط . يجب أن تبني برجاً في البرُّلس .

« اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصٍ من المماليك ، حتّى متى لاحت السفنُ
الفرنسيّة تقبضُ عليهم في القاهرة أو الأرياف وتسفّرهم إلى فرنسا . وإذا لم تجد عدداً
« كافياً من المماليك ، فاستعِضْ عنهم برهائن من العرب ومشايخ البُلْدان ، فإذا ما وصل
« هؤلاء إلى فرنسا يُحجزون مدةً سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثناءها عظمة الأُمّة
« (الفرنسيّة) ، ويعتادون على تقاليدنا ولُغتنا ، ولَمّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم
« حزبٌ يُضمُّ إليه غيرهم .

« كُنْتُ قد طلبتُ مراراً جوقة تمثيلية ، وسأهتُم اهتماماً خاصّاً بإرسالها لك ،
« لأنها ضرورية للجيش ، وللبَدءِ في تغييرِ تقاليد البلاد » .

...

(١) ينبغى دراسة هذه الرسالة بعناية ، ونظّر صحيح غير النظر الذى ذهب إليه الرافعى في كتابه .

• وقبل كُلِّ شيء ، ينبغي أن أقطع سياق الكلام ، لأقف بك على ضرب شنيع من ضروب فساد حياتنا الأدبية وتلوئها بالأهواء الغالبة التي تستخفى ، ثم تستهين بعقلي وعقلك . فأول من وقف على هذه الرسالة أحمد حافظ عوض في كتابه « فتح مصر الحديث » (ص : ٤٠٧ - ٤١١) فقال :

« وهذا الكتاب (يعنى الرسالة) محفوظ بالنصّ الأصلي في وزارة الحربية الفرنسية (وثيقة نمرة ٤٣٧٤) ، ولأهمية هذا الخطاب ، وعدم وجود أثر له في اللغة العربية ، رأينا أن نأتى على تعريبه بدقة وإتقان » ، ثم ساق نص الرسالة . وكتاب أحمد حافظ عوض منشور في سنة ١٩٢٥ ، فجاء الراجعي ، غفر الله له ذنوبه في ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، فذكرها في كتابه « تاريخ الحركة القومية » (٩٧ : ١٠١) ، أى بعد أربع سنوات ، فقال :

« أما رسالته (نابليون) إلى الجنرال كليبر ، فهي وثيقة على جانب عظيم من الأهمية ، كتبها بإمعان وتفكير ... وهي رسالة مطوّلة أشبه بتقرير وإف ، لذلك رأينا أن نعرّبها مع شيء من الشرح والبيان » .

وألغى ذكر أحمد حافظ عوض وكتابه وترجمته ، مع أنه يعرف الكتاب وصاحبه بلا شكّ عندي أنا خاصّة ، ^(١) واستأنف للرسالة ترجمة جديدة ولم يسقها متكاملة ، بل بعثرها وقطّعها وجزّأها في نحو خمس صفحات من كتابه ، استناداً إلى ما سماه شرحاً وبياناً . فلما جاء عند النص الذي نقلته لك آنفاً ، قال ما يأتي :

(١) بل أقول لك : إن كتاب الراجعي إن هو إلا تطبيق للبرنامج الذي وضعه أحمد حافظ عوض لتأليف كتاب في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر . اقرأ مقدمة كتاب « فتح مصر الحديث » تعلم أنه هو الذي سنّ للراجعي الطريق بلا شكّ ولا ريب ، ومع ذلك فلم يذكره الراجعي بكلمة واحدة في مقدمته أو في كتابه !

« وتعرّضَ في رسالته إلى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية لم يفتّه التفكير فيها في تلك الأوقات العصيبة ، فأوصاهُ باعتقال خمسمئة أو ستمئة من المماليك أو من رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) ، وإرسالهم إلى فرنسا ، في حالة استئناف المواصلات البحرية ، ليقبوا بها سنة أو سنتين ، وغاية نابليون من ذلك : [أن يروا عظمة الأمة الفرنسية ، ويقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ولُغتنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم] .

« ثم وعدَ الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقة من الممثلين كان قد أوصى عليها من قبل [لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألف البلاد شيئاً جديداً من العادات الغربية] » .

والاختلاف بين النصّين بيّن جدّاً ، ودلالة أحدهما غير دلالة الآخر ، ومعناه غير معناه . فرق بين : « يعتادون على تقاليدنا ولُغتنا ، ولما يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم » = وبين : « يقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم » ، لأنّ الأول دالٌّ على أنه يريد أن يستفسدهم ويُبهرهم ويَعِدِّهم ويمَنِّهم ، ويكون منهم في مصرَ حزباً تحت سيطرته يكون نواةً لحزبٍ أكبر منه . فهذه سياسة متبعة مؤسسة على مكيافلية نابليون = أما الثاني فإنه ينزعُ سَمَّ هذه العبارة ، ويجعل الأمر كُلَّهُ أمر « اقتباس » من عادات فرنسا وأفكارها وأخلاقها ولُغتها ، ونشر ما يقتبسونه بين المواطنين المصريين ، وهذه مجردُ أمنية ساذجة تكون أو لا تكون .

وكذلك القول في قوله في شأن فرقة الممثلين . فرق بين : « إنها ضرورية للجيش ، وللبداء في تغيير تقاليد البلاد » ، وبين : « لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألف البلاد شيئاً جديداً من العادات الغربية » ، فالأول دالٌّ على غرضٍ مقصودٍ لذاته هو « تغيير تقاليد البلاد » ،

فهذه أيضاً سياسة مكيفلية = أمّا الثاني فإنه ينزَعُ أيضاً سَمَّ العبارة ، ويجعلُ الأمر كُلَّهُ مجردَ عرضٍ شيءٍ جديدٍ على الناس حتى إذا استحسّنوه أَلْفَوْه ، وهذه مجردُ أمنيّةٍ ساذجة تكون أو لا تكون . هذا كُلُّه فضلاً عن مقدّمة الراجعي التي تجعل هذه السياسة المكيفلية الخبيثة ، مجرد مسألة ثانوية لا خطرَ لها ، يا سبحان الله !!

فنصُّ ترجمة أحمد حافظ عوض أولى بالثقة من نصِّ ترجمة الراجعي ، وأدُلُّ على سياسة جزّار القاهرة ومدّمّرها ومُفسِدِ أخلاقِ الشذاذِ من أبنائها مدة إقامة جيشه فيها . وليس النصُّ الفرنسي بين يديّ الآن ، ولكنّي أرى في أولهما الأمانة وسلامة الطويّة ، وفي ثانيهما ترك الأمانة وتبييت النية على نزع سَمِّ العبارة إكراماً لنابليون العظيم !! مع أن كلا الرجلين في كتابيهما كان كاتباً مُدجّناً ، وكان صَعُوه ، (أى مِيلَه) إلى نابليون العظيم !! وإلى فرنسا مصدرِ الثور والتنوير !! وكما يقول المثل العامي : « ما أسخّم من سِتّي إلا سيدي » !

هذه بين يديك تقاليدُ حياتنا الأدبية الفاسدة فساداً يستعصى على الإصلاح الشّامل السّريع الأمين . وقبيحٌ جدّاً أن تتغاضى حياةً أدبيّةً عن مثل هذا القُبْح ، فضلاً عن أن ترضاه ، فضلاً عن أن تتواصى به حتى يكون سنّة مألوفة ، لا يكادُ ينكرها قارئ أو أديب أو أستاذ ، وإلْف القبيح متلفّة للإحساس والعقل جميعاً ، ولكن لهذا كُلُّه سببٌ واضحٌ ، سوف أحدثك عنه في الفقرة التالية :

...

٢٢ - لمّا مضى مئتا عامٍ على فتح القسطنطينية ، حصن المسيحية الشمالية الشاخ في يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، غرقت دار الإسلام في غفلة هائلة شاملة أحدثها الغرور بالنصر القديم على المسيحية الشمالية ، وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية وتدقّ جيوش دار الإسلام في قلب أوربة ، وعميت دار الإسلام يومئذ عن اليقظة الهائلة الشاملة التي أحدثتها الهزائم القديمة

والحديثة في ديار المسيحية ، والتي قامت على الإصرار والمجاهدة والمثابرة وإصلاح خلل الحياة المسيحية الشمالية ، حتى آنفكت عنها أغلال « القرون الوسطى » بعتة ، وانبعث نهضة « العصور الحديثة » ، فارتفعت كفة المسيحية الشمالية ، وانخفضت كفة دار الإسلام ، وبدأت « المرحلة الرابعة » للصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٣ - ٤٥) .

ويومئذ تحدت أهداف المسيحية الشمالية ، وتحدت وسائلها ، ولم يغب عن أحد منهم قط أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة ، لا بقعة السلاح ، وما هو إلا سلاح العمل والعلم والتفوق واليقظة والفهم والتدبير ، ثم الصبر والمكر والدهاء واللين والمداهنة وترك الاستشارة ، استشارة عالم ضخم مجهول ما في جوفه ، ولا قبل لهم بتدقيق أمواجه الزاخرة ، والتي كان « الترك » الظافرون طلائعها الظاهرة لهم عياناً في قلب أوربة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦ - ٥١) . وبدأ الزحف البطيء المتتابع الخفي الوطء يخترق دار الإسلام في تركية والشام ومصر والجزائر لابساً كل زي : زي التاجر ، وزي السائح ، وزي العالم الباحث ، وزي المسلم طالب العلم ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفي الألسنة الحلاوة والخلاصة والمماذقة . وعلى مر الأيام والشهور والسنوات ، توغلوا زرافات ووحدانا في قلب دار الإسلام يأخذون أهلها من وراء الغفلة ، ويستخرجون كل مخبوء كان عنهم من أحوال الخاصة والعامة ، والعلماء والجهلاء ، والحلماء والسفهاء ، والملوك والسوقة ، والجيوش والرعية ، ويروزون (أى يختبرون) القوة والضعف ، والدكاء والغفلة ، وتدسسوا حتى إلى أخبار النساء في خدورهن ، ولم يتركوا شيئاً إلا خبروه وعجموه ، وقتشوه وسبروه ، وذاقوه واستشفوه ، متعاونين متآزرين ، تحت رعاية « المستشرقين » حملة هموم المسيحية الشمالية ، وإرشادهم وتوجيههم ، (اقرأ ما سلف : ٥٣ - ٥٦ / ٨١ - ٨٦) .

...

مضت السُّنُونُ و « الاستشراق » في عَمَلٍ دائِبٍ وتديِيرٍ متناهٍ ، وسياحَةٍ في دار الإسلام ، ولا يَكْفُونُ عن إمداد ملوك المسيحية الشمالية بِكُلِّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأَوْه عِياناً فيها ، وما خبرَوْه من الغفلة المطبقة على دار الإسلام ، فنشأت بفضلهم طبقة « الساسة » الذين صاروا يُعَدُّون ما استطاعوا من عُدَّةٍ لردِّ غائلة الإسلام ثم قَهَره في عُقر داره ، وتحقيقِ الأحلام والأشواق التي كانت تُخامِرُ قلب كُلِّ أوربيٍّ ، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام . وهذه الطبقة من الساسة هم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » ، (اقرأ ما سلف : ص ٤٨ ، ٤٩) . فلما كاد القرن السابع عشر الميلاديُّ ينصرم ، كانت تركية لم تفقد بعدُ هيبتها في قلوب ساسة المسيحية الشمالية ، ولم تنس ساسة فرنسا خاصة الحرب الصليبية السابعة المعروفة باسم « واقعة المنصورة » والتي انتهت بهزيمة الفرنسيين ، والتي هلك فيها ثلاثون ألفاً منهم ، وأُسِر فيها لويس التاسع ملكُ فرنسا وطائفةٌ من ضباطه ، وجُعِلوا في « دارِ ابن لقمان » ، وتولَّى أمر حراستهم الطواشي « صَبِيح » ، وذلك كان في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلاديِّ ، أي بعد أربعة قرون ، كان أوَّل من حَرَّض فرنسا على اختراق دار الإسلام في مصر ، هو الفيلسوف الرياضي الألماني « ليبنتز » (جوتفريت فلهلم) (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) ، وكان قد التحق بالسلك الدبلوماسي ، وقضى أربعة أعوام في باريس (١٦٧٢ - ١٦٧٦ م) ، في بلاط لويس الرابع عشر ، فقدم إليه في سنة ١٦٧٢ م تقريراً يحَرِّضه فيه على اختراق دار الإسلام في مصر ، ويقولُ له فيه : « إنَّكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد المشرق (أي في دار الإسلام) ، إلى ما شاء الله ، وتكسبون عَطْفَ المسيحية وتستحقُّون ثناءها ، وهنالكَ لا تخسرون عَطْفَ أوربة ، بل تجدونها مجمعةً على الإعجاب بكم » ، فأعجَبَ

لفيلسوف رياضي ألماني لم تشغله رياضته ولا فلسفته عن تحريض فرنسا على غزو مصر ، لتكسب عطف المسيحية الشمالية وتستحق ثناءها ، وتضمن بسط سلطانها على دار الإسلام إلى ما شاء الله !! ، وذلك قبل حملة نابليون بأكثر من مئة سنة .

كان تقرير « لينتزر » الفيلسوف الرياضي !! منبهةً لسانا فرنسا على غزو دار الإسلام في مصر ، وذلك بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يكن ذلك من « لينتزر » عفو الخاطر ، بل كان عن متابعة واعية لملاحظات « المستشرقين » الذين كانوا يجوبون دار الإسلام ، ويؤيدون مثقفي المسيحية الشمالية بما خبروه وسبروه من دخائل دار الإسلام في مصر وغير مصر ، لأن « المستشرقين » كانوا هم حملة هموم المسيحية الشمالية ، والمجاهدين المتبئلين في سبيلها ، كما حدثتلك آنفاً في مواضع متفرقة .

وظل هذا التحريض كامناً في قلب ساسة فرنسا منذ منتصف القرن السابع عشر ، وهو ينمو على الأيام ، وينمو معه الإعداد لغزو دار الإسلام في مصر . ومضت مئة عام حتى كان عهد لويس الخامس عشر ، وكبير وزرائه « الدوق دي شوازل » ، الذي طمع أن تحتل فرنسا مصر ، عن طريق المفاوضة مع تركيا ، التي بدأت تضمحل قوتها وهيبتها ، والتي شجب سلطانها على مصر وكاد ينحل ، ولكنه لم يفعل شيئاً حتى سقطت وزارته في سنة ١٧٧٠ م . وجاء عهد لويس السادس عشر (سنة ١٧٧٤ م) ، وكان الكونت « سان بريست » سفير فرنسا في الآستانة منذ سنة ١٧٦٨ م ، وأقام فيها ست عشرة سنة يرقب اضمحلال تركيا ، وكان شديد الاهتمام بدار الإسلام في مصر ، فكتب غير مرة إلى حكومته يحضها على احتلال مصر ، تحقيقاً لمطامع « دي شوازل » . فأوفدت الحكومة الفرنسية « البارون دي ثوت » ، المجرى الأصل الذي استوطن فرنسا ، أوفدته إلى تركيا ، فلما عاد سنة ١٧٧٦ م ، قدم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية ، بأن تركيا في سبيل الانحلال لا محالة ، ونصح الحكومة بالإقدام على احتلال مصر ، فأوفدته

الحكومة مرة أخرى إلى ثغور الدولة العثمانية ، وبدأ رحلته سنة ١٧٧٧ م ، فدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدم تقريراً إلى الحكومة يبين فيه مزايا احتلال مصر وسهولة تحقيق هذا الاحتلال . ثم انتهت أيضاً سفارة « الكونت سان بريست » وعاد من الآستانة سنة ١٧٨٣ م ، فقدم إلى حكومته تقريراً ثانياً في شأن احتلال مصر ، ونصح حكومته بأن ذلك يَكسِبُ فرنسا مركزاً ممتازاً في العالم . وفي هذا الوقت نفسه ، كان قنصل فرنسا في الإسكندرية المسيو « مور » ، فقدم إلى حكومته تقريراً يتضمن رأيه في قرب تفكك السلطنة العثمانية ، وينصحها بضرورة احتلال مصر ، فجاء تقريره مؤيداً لتقارير « دى سان بريست » و « البارون دى ثوت » ، ولكن الحكومة الفرنسية ترددت ، ولم تأخذ بنصائحهم . احتفاظاً بسياستها حيال تركيا ، القائم ظاهراً على الود والصداقة ، وتحسباً ، للبؤادر التي ظهرت مقدّمة للثورة الفرنسية .

وبدأت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، وانتهت بإعدام لويس السادس عشر في يناير ١٧٩٣ م ، وتتابعت شكاوى التجار الفرنسيين المقيمين بمصر إلى حكومة الثورة ، يشكون ما أصابهم من سوء معاملة الممالك المصرية وما يلقونه من العنت ، فعينت الحكومة المسيو « شارل مجالون » قنصلاً عاماً لفرنسا في مصر سنة ١٧٩٣ م ، وكان « مجالون » هذا تاجراً فرنسياً أقام بمصر أكثر من ثلاثين سنة مشغلاً بالتجارة ،^(١) فأخذ يرسل إلى حكومته التقارير والمذكرات ، مبيناً فيها عن عبث الممالك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين في مصر ، ومصرحاً بأن هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة في ردعهم ، وحرّض حكومة الجمهورية على أن تتأهب لاحتلال

(١) انظر أى خبرة يستفيدها هذا التاجر المثقف من مقامه في دار الإسلام بمصر أكثر من ثلاثين سنة !! وهو بلا شك قد أجاد العربية ، بل لعله لم يدخل مصر إلا وهو عارف بالعربية ، وهو الأرجح ، أى هو في حيز الاستشراق « بلا شك ، كما سترى .

مصر . وفي سنة ١٧٩٧ م ، ارتحل « مَجَالون » إلى فرنسا ، وأخذ يحضُّ رجال الدولة على احتلال مصر ، ويبين لهم المزايا التي تنالها حكومة الجمهورية بهذا الاحتلال . واقتنع المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية بآراء « مجالون » ، هو ونابليون بونابرت ، فقدم تقريراً إلى حكومة الديركتوار ، ونصح الحكومة بإنفاذ الحملة . فكان ما كان من حملة نابليون على مصر في سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أي بعد تحضيض « مجالون » بسنة واحدة .

لم يكن « الاستشراق » غائباً طرفة عين عن مقدّمي هذه التقارير والمذكرات التي رُفعت إلى الحكومة الفرنسيّة ، بل كان حاضراً حضوراً كاملاً بيديه العقل ، لأنّه صاحبُ الفضل الأوّل في نشأة طبقة الساسة الذين هم رجالُ « الاستعمار » ، والذين توجّهوا كلّ التوجّه لإعداد العُدّة لاختراق دار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٩) ، و « الاستشراق » هو الذي كان يُمدّهم بخبرته الواسعة المتأدية بأحوال دار الإسلام ، ولولاه ما عرفوا قبلاً من دَيرٍ = ولأنّه أيضاً كان دائم الحضور في دار الإسلام أبداً ، يلاقى الخاصة من العلماء ، ويخالط العامة من المثقفين والدّهاء ، ويستخرجُ حَبءَ ما في هذه الدار من أحوال خاصته وعامته ، وعلمائه وجهاله ، وملوكه وسوقته ، وجيوشه ورعيته ، وكلّ دقيق وجليل يوماً بعد يوم ، في ملاحظة واعية لا تغفل ولا تنام ، (اقرأ ما سلف : ٤٨ ، ٥٣) .

ولو تأملت قليلاً تواريخ تقديم هذه التقارير والمذكرات ، منذ عهد « ليبنتز » سنة ١٦٧٢ م ، ثمّ ما جاء بعد مئة عام ، من طَمَع الدوق « دى شوازل » في مفاوضة تركية في أمر التنازل عن مصر لفرنسا في سنة ١٧٦٩ م ، وبعده الكونت « سان بريست » والكونت « دى ثوت » وتقاريرهم منذ سنة ١٧٣٦ م إلى سنة ١٧٨٣ ، وبعدهما المسيو « مجالون » من سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٧ ، قبل حملة نابليون بعام واحد ، بل قبل ذلك أيضاً حضورُ طلاب الإفرنج ، (وهم المستشرقون) ، إلى مصر وقراءتهم علم

الهندسة على الشيخ الجبّرتي الكبير في سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م ، (ما سلف : ٨٣) =
لو تأملت هذه التواريخ لرأيتها جميعاً واقعة وقوعاً تاماً في عصر يقظة دار الإسلام ونهضتها
الصحيحة التي تولّى أمرها الخمسة الكبار من رجالنا ، وهم : « البغدادي » في مصر ،
(١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) ، ثم « الجبّرتي » الكبير في مصر ،
(١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) ، و « ابن عبد الوهاب » ، في جزيرة
العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، و « المرتضى الزبيدي » في
مصر ، (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) ، و « الشوكاني » في اليمن
(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) ، (اقرأ ما سلف : ٨٢) . فهذه
« النهضة » وهذه « اليقظة » ، لا يعرفها على حقيقتها ، ولا يعرف مَعْبَتها غير
« الاستشراق » ، فيومئذ هَبَّ « المستشرقون » ، حملة هموم المسيحية الشمالية ، هَبُوا هَبَّةً
الفرع ، وتسارعوا ينقلون كُلَّ صغيرة وكبيرة ، ووضعوه بيناً جلياً تحت أبصار ملوك
المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها وعلمائها ورُهبانها ، وبصروهم
بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه « اليقظة » الوليدة ، وبينوا لهم الخطر الداهم الذي جاء
يتهددهم إذا ما تمّ تمام هذه « اليقظة » واشتدَّ عودها ، واستقامت خطواتها على الطريق
اللاحب = وأنَّهُ ليس للمسيحية الشمالية خيارٌ سوى العمل السريع المُحكّم ، واهتبال
الغفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، ومُعَاجَلَتها في مَهْدِها قبل أن يتمّ تمامها ويستفحل
أمرها ، وتُصبح قُوَّة قادرة على الصراع والحركة والانتشار ، فإنه إن تمّ ذلك ، فما هو
إلا أن تعود الحرب بين الشمال والجنوب جَذَعَةً ، وعندئذ لا يضمن أحدٌ مَعْبَةَ الصراع
المشتعل بين سلاحيين مُتكافين ، وثقافتين مُتكاملتين . لا يضمن أحدٌ لأى الفتين
تكون الدُّولة والغلبة والسيادة . فرع « الاستشراق » لعلمه أن الفرقَ بيننا وبينهم كان
يومئذ خطوة واحدة تُستدرك باليقظة وبالهمة والصبر والدَّاب لا أكثر ، (اقرأ ما سلف : ٨٦ ،
٨٧) . وكما ترى عياناً ، فإن « الاستشراق » هو عينُ « الاستعمار » التي بها يُنصير

ويحدِّق ، ويدهُ التي بها يُحسُّ ويبطش ، ورجلُهُ التي بها يمشى ويتوغَّل ، وعقلُهُ الذي به يفكِّر ويستبين ، ولولاهُ لظَلَّ في عَمَيَّائه يتخبَّط ، (ما سلف : ٨٧) .

وقد حدثتْكَ من قَبْلُ ، (اقرأ ما سلف : ٨٨ ، ٨٩) أن نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدْلِم الذي تهَدِّدهم به يقظة دار الإسلام كان نذيراً مروَّعاً حاسماً . أما إنجلترا فأُسرع مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، حيث قام « محمد بن عبد الوهاب » ، وبالدِّهَاءِ والمكر والدسائس جاءت في زِيِّ الناصر والمعين ، لتندسَّسَ إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » ، لتتخذ عندها يداً ، وبها تسيطر عليها وتحتومها ، ومن وراء ستار كانت تؤلِّب تركية وتؤلِّب جاراتها وتخوفهم ، لتطوق اليقظة تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . أما فرنسا التي طردتها إنجلترا من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فأبَت إلى ديارها تلَعَقَ جراحها ، وجعلت تُعَدُّ العُدَّة وتفكِّر في اختراق دار الإسلام في مصر ، لوأد « اليقظة » المخوفة العواقب التي بعثها « البغدادى » . و « الزبيدئى » و « الجبرئى الكبير » في مصر ، فهى « يقظة » يُخشى أن تؤدَّى إلى يقظة دار الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليقظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب ، فإذا تمَّ اندماج اليقظتين فلا يعلم إلَّا الله كيف يكون المصير ؟

أظنُّه بات الآن منكشفٌ لك كلُّ الانكشاف ، حَبُّ العلاقة بين تواريخ « اليقظة » و « النهضة » يومئذ في دار الإسلام ، وتواريخ التقارير والمذكرات التي كتبها رجال « الاستعمار » من ساسة المسيحية الشمالية = وبات منكشفاً لك أيضاً كلُّ الانكشاف ، أنه لولا خبرة « المستشرقين » حملة هموم المسيحية ورهبانها المبتلين الذي كانوا يجوبون دار الإسلام ويُقيمون فيها فيُطِيلون الإقامة ، ثم يُمدُّون هؤلاء الساسة بالملاحظات والمخاوف ، لَمَا اتفقت هذه التواريخ هذا الاتفاق البين الذي عَمِيَتْ عنه اليوم حياتنا الأدبية الفاسدة كلُّ الفساد ، وألستُها الثَّائرة المتشدِّقة بأوهام « الأصالة

والمعاصرة» و « القديم والجديد » ، و « الثقافة العالمية » ، وبالقضيه الهزليه « قضيه موقفنا من الغرب » ، على الصورة التي لا يزال يرددها الدكتور زكى نجيب محمود فيما يكتب ، مستدلاً بحادثة لم تحدث قط بين مشايخ الأزهر وعلماء الحملة الفرنسية ، ليس لها سند تاريخي صحيح ولا باطل ، وإنما هي كذب مُصنعت ، لا أدري من تكذبه ، ففتن به الدكتور زكى وحُجِبَ إليه تردّاده مرّات فيما يكتب ، (انظر ما سلف : ٩١ ، ٩٢) .

والذى لا شك فيه أن « جذور قضيتنا » كامنة في نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية ، والذى أدى إلى انقضااض الفتى الصليبيّ المُحترق المُبِير « نابليون » بغتة على دار الإسلام في مصر ، لواد « اليقظة » و « النهضة » ومعاجلتها في مهدها قبل أن يشتدّ عودها وتستفحل ، فيسفح الدماء سفحاً لم يفعل مثله « جنكيزخان » ، فيضحي عند مشرق كلّ شمس بخمسة أو ستة ، ويُطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ويأمر قواده أن يتشبهوا به ، (ما سلف : ١٠٠ ، ١٠٤) ، ويهديه « الاستشراق » أن يختارهم من الطلبة النابيين من ورثة « الزبيدي » و « الجبرتي الكبير » ، (ما سلف : ١٠٤) ، ليستأصل بذلك « اليقظة » من جذورها ، ويشتت بإرهاب من أفلت من برائته الملوثة الدامية . ولكي يضمن هذا الجزار بعد ذلك أن لا يشبّ الصراع المشتعل بين سلاحين متكافئين ، وثقافتين مكتملتين . وضع هذا الفتى الأهوُج المحترق مشروعه الذى بينه لخليفته « كليبر » : « أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد عدداً كافياً من المماليك ، فليستعص عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفّرهم إلى فرنسا ، فيحجزوا فيها مدة سنة أو سنتين ، ليشاهدوا في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادوا على لغتنا وتقاليدنا . فإذا عادوا إلى مصر كان لنا منهم حزب يُضَمُّ إليه غيرهم » ، ووعدّه كليبر أن يرسل إليه جوقه تمثيلية « لأنها ضرورية للبدء في تغيير تقاليد البلاد » ، (ما سلف : ١٠٨) = وأراد بذلك أن يضمن تمزيق « الثقافة المتكاملة » التى هى ثقافتنا ، وأن

يقتلعها من جذورها ، ويحفر لها قبراً تتألق أنواره الفرنسية الساطعة ، ويدفن فيه « اليقظة » و « النهضة » إلى غير رجعة .

ثم يكتب إلى الجنرال « زايبو نشك » قومندان المنوفية ، في ٣٠ يولييه ١٧٩٨ م :
« يجب أن تعاملوا التُرك ، (أى المسلمين) ، بمتبى القسوة ، وإني هنا أقتل كُلَّ يوم ثلاثة ، أُمُرُ أن يُطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجَّهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ،
(ما سلف : ١٠٠) ، وكذلك فعل نابليون نفسه في القاهرة بالإرهاب ، فسارع الناس إلى إخفاء الأسلحة ، وكانت أسلحة الأهالى والجند الفرنسيين متكافة ، أما تفوق الفرنسيين فكان فيما عندهم من المدافع التى استعملوها في هدم الدُور والمساجد ودكَّ القاهرة دكاً متواصلاً . فأراد نابليون « بتجريد البلاد قاطبة من السلاح » ، أن يضمن بهذا « التجريد » أن يُبطل قدرة « السلاح المتكافىء » على مقاومة جُنده وإبادتهم جَهرةً واعتيالاً ، وأن يصل بسفحه الدماء إلى إخضاع الناس ، كما قال .

هذه هى « جذور القضية » التى غفل عنها الناس يومئذٍ ، ولا تزال حياتنا الأدبية الفاسدة اليوم غافلةً عنها كُلَّ الغفلة ، فكتَّابنا ومؤرِّخونا اليوم هم كما قال المتنبى في ملوك زمانه :

أَرَانُبُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مُلُوكُ ، مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمْ نِيَامُ

والأَرْنُبُ تنامُ مفتوحة العين ، فرمما جاءها القنَّاصُ فوجدها كذلك ، فيظنُّها مستيقظة ، فإن كان على علم بحالها أخذها من قريبٍ أخذاً هيئاً بلا مؤونة ولا تعب !!

ولكن ، لا أستطيع أن أتركك حتى تكون على بينة واضحة من عمل

« الاستشراق » في دار الإسلام ، فإنه كان عملاً دائماً طويل الأمد ، متعدّد وجوه النشاط ، منذ أخذ يدبّ ديباً مستخفياً في ثأناً زحفه الخفيّ الوطء على دار الخلافة في تركية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (ما سلف : ٥٣ ، ١٠١) . فعلى تطاول السنين ، ومع ازدياد خبرته يوماً بعد يوم بكلّ صغيرة وكبيرة في دار الإسلام ، ومع شعوره بالأمن وهو يجوب دار الإسلام غير مُروّع ، ولسماحة أهل الإسلام عامتهم وخاصتهم مع مَنْ دينه يُخالف دينهم من اليهود والنصارى ، لأنهم أهل كتاب وأهل ذمة من أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، فيسرّ ذلك لهم خاصة أن يُداهنوا العلماء والعامة وينافقوهم ويوهموهم بالمر واليحال أن صدورهم بريئة ، وقلوبهم خالصة لحُب العلم والمعرفة = وأيضاً لما كانت دار الإسلام غارقة فيه من الغفلة المُطبقة التي أورثتهم إياها الاستقامة إلى النصر القديم على المسيحية الشمالية ، واغترارهم بالنصر الحادث القريب بفتح القسطنطينية وتدفع جيوش الترك المظفرين في قلب ديار المسيحية الشمالية ، (انظر ما سلف : ٤٨) = كل ذلك زاد « الاستشراق » أماناً واطمئناناً ، وأغراه إغراءً شديداً بإعداد العدة لتحقيق « الأهداف » و « الوسائل » التي طوى عليها قلبه ، بفهم وبصيرة وإخلاص وعقل وصبر ودهاء ورفق وتستر ، (اقرأ ما سلف من : ٤٧ - ٥١) .

ومن يومئذ بدأ « الاستشراق » تحقيق الزحف الشامل الذي يُعدّ لاختراق قلب دار الإسلام بلا قعقة سلاح ، زحف صامت مصمّم خفيّ الوطء ، سوف يضمّ ألوفاً مؤلفة من أشتات الناس على اختلاف أجناسهم ، ما بين تاجر وصانع ومغامر وسائح ومبشر وسياسي وراهب وطالب معرفة وأفاقي وصفّاق ومتكسّب ، والنية أن تتكون على الزمن من هؤلاء الأشتات جاليات كبيرة تقيم في دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطول عِشرتهم أو تقصر ، (اقرأ ما سلف : ٥٦ ، ٥٧) . كان « الاستشراق » هو الذي يُعنى هذه الجيوش ويُحمّل أفرادها ما يحمله هو من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذيهم بكلّ ما في

قلبه من الأحقاد المكتّمة ، ولهب البغضاء الغائرة في العظام ، ويدربهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والتّفاق في معاشرّة أهل دار الإسلام ، ويُعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبّه ، ومراقبة كلّ صغيرة وكبيرة من أحوال مَنْ يخالطونهم من العامّة والخاصّة ، والملوك والسُّوقَة ، والرجال والنساء .

وتطاوَلت السّنون حتى استطاعَ « الاستشراق » أن يكوّن في قلب دار الإسلام جالياتٍ صغيرة متخيرةً بفهم ودقّة من شعوب المسيحية الشمالية ، عمادها الرجال الذين يحترفون التجارة ، ويعرفون العربية وغيرها من لغات دار الإسلام ، ويقيمون في دار الإسلام مُدداً طويلاً ، حتى يألّفوا الناس ويألّفهم الناس ، ويتقوّض جدارُ التوجّس والتخوّف والشكّ في هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع آمنةً غير مفزعة ولا مروعة . فلما كان زمان « اليقظة » و « النهضة » في دار الإسلام في مصر خاصّة ، في القرن الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادى) ، (انظر ما سلف : ١١٦) ، هبّ « الاستشراق » هبةً الفزع الأكبر ، وكان نذيره الحاسمُ المروّعُ للمسيحية الشمالية بالخطر المدهمّ الذى تهدّدها به « اليقظة » و « النهضة » التى انبعثت من مصر خاصّة = يومئذ كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جالياتٍ كبيرة من تُجّار شعوب المسيحية الشمالية ، وتفاقم أمرها حتى أفزع المماليك المصرية ، وارتابوا في هذه الكثرة التى أخذت تتوافد زرافاتٍ ووحداناً باسم التجارة ، وخامرهم الشك في مقاصدهم وفى تحرّكاتهم ، فأخذوا يفرضون الإتاوات الثقيلة المختلفة على متاجرهم ، ويسومونهم الغنّت والمشقة حتّى تُبور تجارتهم ، وحتى يضطروهم إلى الرحيل عن مصر . فأوعز « الاستشراق » الفرنسى خاصّة إلى التجار أن يَجأروا إلى حكومتهم بالشكوى من سوء ما يصيبهم من معاملة المماليك المصرية ، وعلى رأس هؤلاء التجار « مجالون » الذى كان تاجراً مقيماً في مصر أكثر من ثلاثين سنة ، (انظر ما سلف : ١١٥) ، والذى ظل يقدّم إلى حكومة فرنسا التقارير والمذكرات عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار

الفرنسيين ، وأنه لا سبيل إلى إزالة هذا العبث إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة في ردعهم ، وذلك (سنة ١٧٩٣ م) وما بعدها ، ثم رحل « مجالون » إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ م ليحضّر رجال الدولة على احتلال مصر . فاستجاب له « تاليران » وزير الخارجية ، و « نابليون بونابرت » ، فكانت « الحملة الفرنسية » على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيضه بسنة واحدة ، (ما سلف : ١١٦) .

وفي خلال هذه الفترة ، ما بين ما كان من تحريض الفيلسوف الألماني « ليبنتز » لويس الرابع عشر الفرنسى على غزو مصر في سنة ١٦٧٢ م ، (انظر ما سلف : ١١٣ ، ١١٤) ، وبين صرخة « مجالون » في سنة ١٧٩٣ م وسنة ١٧٩٧ م = كان « الاستشراق » يتولى في مصر عملاً خبيثاً آخر ، ويجنّد فيها جنّداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحملهم ما في قلبه من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذّيهم بالأحقاد المكتّمة ، وبلهيب بغضائه الغائرة في العظام ، ويدبرّهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والنفاق في معاشرة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبّه والمراقبة = ويحشّد معهم أيضاً طوائف من يهود الشمال ومن اليهود المقيمين في دار الإسلام في مصر ، ويستزلّ طوائف من شذّاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسفلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ، وتارة أخرى لبث أفكار دَرسها « المستشرقون » ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول « الاستشراق » أن يُشيعها بين جماهير دار الإسلام في مصر خاصّتها وعامّتها ، وللتحكّم في تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكّن من إشعال نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداث فتن تُفرّق شمل الناس وتمزّقهم وتشتعلهم عن الكيد الخفيّ الذى يُراد بهم . وكلّ هذا كان يتمّ في هدوء وصبرٍ وتسكّرٍ ، ومن وراء الغفلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم ، (اقرأ ما سلف : ١٠١) . وقد ظهر أثر هذه الحشود جليّاً واضحاً في زمان الحملة الفرنسية ، وفي البلايا التى حدثت منهم خلال ثورات القاهرة التى اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما

كأن يفُت في عَضُد الثَّوَر ويبيّث خطاهم ويشتت شملهم . وتستطيع أن تقف على جليّة أمر هذا البلاء فيما أثبتته الجبرتيّ الصغير في تأريخ الحملة الفرنسية من كتابه ، وفي الجزء الأول والثاني من تاريخ الحركة القومية للرافعي ، ^(١) لولا ما في هذا الكتاب من الغفلة وسوء التأويل للأحداث والألفاظ ، فأحذره أشدّ الحذر .

...

وفي خلال هذه الفترة أيضاً ، تكاثرت عدد « المستشرقين » حملة هموم المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر في كل زِيّ : زِيّ طلبة العِلْم والمعرفة ، وزِيّ السائح المتجول في ربوعها شمالاً وجنوباً ، وأخطروهم شأناً مَنْ لبس منهم زِيّ أهل الإسلام ، وجاور في الأزهر ، ولازم حضورَ دروس المشايخ الكبار ، وصلى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم ، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلماً لا يرتاب فيه أحدٌ ، ولا يعرف أحدٌ حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها ، وإنما هو مسلم كسائر المسلمين الذي يجاورون في الأزهر من كل جنس ولون . وكثيرٌ من هؤلاء من أقام في دار الإسلام إقامةً طويلةً متهاديةً ، كالمستشرق الداهية المحنك المسترّ الخفيّ الوطء « فانتور » ، الذي قضى أربعين سنةً يتجول في دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكانَ شيطانَ نابليون ومستشاره وخليفه ونجيه الذي لا يفارقه في الحلّ والتّرحال ، (انظر ما سلف : ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) ، وكان ، كما قال الجبرتيّ : « لبيّاً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطلاياني والفرنسي » ، (تاريخ الجبرتيّ ٣ : ٦٨) . ومع أن الجبرتيّ الصغير لم يحدّثنا عنهم قطُّ في تاريخه قبل الحملة الفرنسية ، لأنه كان غافلاً كلّ الغفلة ، إلّا أنه حدّثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية فقال :

(١) انظر ما كتبه عن الرافعي فيما سلف : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ - ١١١ .

« وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ، ويُعَبِّرون عنه بقولهم : « شفاء شريف » ، والبُرْدَةُ للبوصيرى ، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سُوراً من القرآن ، ولهم تطلُّع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ، ويذَّابون في ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مُفَرَّدَة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت » ، (تاريخ الجبرتي ٣ : ٢٤ ، ٣٥) .

وهذا الذى حدثنا عنه الجبرتي بعد الحملة لا يتم لأحد إلا بعد أن يكون قد أطلال الإقامة في دار الإسلام ، وبعد التلقّي الطويل عن المشايخ الكبار والصغار ، وبعد الاندماج الكامل بأهل الإسلام . وإغفال الجبرتي الحديث عن أحد منهم قبل الحملة ، دليل بَيِّن على أن ذلك كله قد تم في خفاء وتستر ، لم يُتَحَ لمثل الجبرتي أن يتنبه لهم ، أو أن يعرف من أمر وجودهم في مصر شيئاً يحمله على التنبيه . و « فانور » الذى أقام في دار الإسلام في مصر وغيرها أربعين سنة ، لم يعرف الجبرتي عنه شيئاً إلا بعد مجيئه مرافقاً للحملة الفرنسية ، فلقى عندئذ مكشوف القناع ، فوصفه لنا بما وصفه ، كما مرّ آنفاً .

ولم تكن إقامة « المستشرقين » في دار الإسلام في مصر ، لمجرد طلب العلم والمعرفة ، بل كانوا يتجولون ويراقبون عمل الجاليات التى حشدوها وتولوا تغذيتها وتربيتها على ما في قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية ، وإعانتها بخبرتهم الواسعة على اليقظة والتنبيه والمراقبة = وأيضاً كانت إقامتهم لمراقبة « يقظة » دار الإسلام التى أفرجتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاسم المروّع للمسيحية الشمالية = وأيضاً لتكون خبرتهم بمجماهير الأمة مجتمعة وبطوائفها المختلفة ، خبرة متغلغلة تفضى إلى خبرة بأفراد رجال بأعيانهم واحداً واحداً ، معروفاً عندهم باسمه ومكانه وحركته ، وبموطن ضعفه وقوته ، وبمكامين

الهوى الميَّال الذى يستجيب ، والإرادة المصمَّمة التى تمتنع عن الاستجابة . فهى خبرة مدروسة منظَّمة واضحة المعالم فى ذهن « الاستشراق » ، (ما سلف : ١٠١) .

• وفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م) ، لا يُدرى كيف اختلَّت هبة المشايخ الكبار فى قلوب بعض المماليك ، فأخذوا بالعسف القبيح أحد المشايخ ، (هو الشيخ عبد الباقي بن الشيخ عبد الوهاب العفيفى) ، أهانوه وقبضوا عليه ، ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه ، وأحضره فى صورة منكِّرة ، وحبسه الأمير المملوك فى حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين . فركب الشيخ على الصعيديّ العدوى والشيخ الجدَّوى وجماعة كثيرة من المتعمِّمين . وقال الشيخ الصعيديّ العدوى للأمير : ما هذه الأفعال وهذا التجارى (أى الجرأة) ؟ فقام الأمير على أقدامه وصرَّخ : والله أكسيرُ رأسك . فصرخ عليه الصعيديّ وسبَّه وقال له : « لعنك الله ولعن اليسرَّجى (تاجر الرقيق) الذى جاء بك ، ومن اشتراك ومن جعلك أميراً » . وتوسَّط بينهما الحاضرون من الأمراء يسكتون جدَّته وجدَّتهم ، وأحضره الشيخ عبد الباقي من السجن ، فأخذوه (أى المشايخ) وخرجوا به وهم يسبُّونه وهو يسمعهم . (الجبري ٢ : ١٨) .

• واتفق فى ذلك الوقت أيضاً أن امرأة ذهبت تشكو الشيخ عبد الرحمن العريشى (مفتى الحنفية) إلى المملوك يوسف بك ، فأحضره وحبسه عند الخازن دار ، فركب إليه شيخ السادات ، وكلمه فى أمره وطلبه من محبسه . فلما رأى العريشى شيخ السادات رمى عمامته وصرخ وخرج يعدو مسرعاً مكشوف الرأس وهو يقول : « بيتك خراب يا يوسف بك » ، وكان يوسف جالساً مع شيخ السادات فقام على أقدامه ، وصار يصرخ على خديمه : « أمسكوه ، اقتلوه » ، وشيخ السادات يقول له : « أى شيء هذا الفعل ؟ اجلس يا مبارك » . ونزل الشيخ وأخذ العريشى فى صحبته إلى داره ، وتلافوا القضية وسكتوها . يقول الجبري : « ثم حصل ما حصل فى الدعوى المتقدمة وما ترتب عليها من الفتنة ، وقفل الجامع (الأزهر) ، وقتل الأنفس » (الجبري ٢ : ١٨) .

• وقد نقلتُ هاتين الحادتين لأنهما بدءُ الانشقاق الذي حدث بين المماليك والمشايخ ، ولأنهما نبَّها المشايخ إلى عسف المماليك وجَوْرهم ، ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك ، وكانت ثورة الجماهير على مظالم المماليك ، وذهابهم إلى الجامع الأزهر ، وشكواهم إلى المشايخ ، فترك المشايخ دروسهم ، ويغلقون الجامع الأزهر ، ويخرجون على رأس الجماهير ، ويطالبون المماليك برفع الظلم عن الناس ، حتى كانت آخر حادثة وقعت بينهم في سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م ، (أى قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات) ، حين جاء أهل قرية بشرقية بليس يشكون الأمير محمد بك الألفى وأتباعه الذى ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ الشرقاوى ، فاحتفظ حين سمع شكواهم ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ ، ووقفوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والخوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم ومعهم خلق كثير من العامة وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات . فأرسل لهم المماليك أميرًا يسألهم عن مطالبهم ، فقال المشايخ : « نريد العدل ، ورفع الظلم والجور ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها . فقال لهم : « حتى أبلغ » ، وانصرف ولم يعد لهم بجواب ، وانفض المجلس . وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية ، وباتوا بالمسجد . وفى اليوم الثالث اجتمع الأمراء وأرسلوا إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والسيد النقيب (نقيب الأشراف عمر مكرم) ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، ومنعوا العامة من السير خلفهم ، ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحطَّ الأمر على أنهم تابوا ورجعوا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح بينهم على أن يرفعوا عن الناس المظالم المحدثه والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة . وكان

القاضى حاضراً بالجلس ، فكتب حُجَّة عليهم بذلك . فوقع الأمراء عليها ، ^(١) ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون : « حَسْبَ ما رسم ساداتنا العلماء ، بأنَّ جميع المظالم والحوادث والمكوس بَطْألة من مملكة الديار المصرية » = ويعقب الجبرتي على ذلك بقوله : « وفرح الناس وظنُّوا صحَّته ، وفتحت الأسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهر ، ثم عاد كُلُّ ما كان مما ذُكر وزيادة » (الجبتي ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

• وأخفى الجبرتي عنَّا كُلَّ ما كانَ في سنة ١٢١٠ / ١٧٩٥ م ، وبدأها بقوله : « لم يقع فيها من الحوادث التى يُعْتَنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » ، وبدأها بسطر واحد في غُرة ذى الحجة ، ثم شرع يذكر الوفيات ، (٢ : ٢٦٢ إلى ٢٦٧) . ثم جمع الستين ١٢١١ ، ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ م ، معاً وقال أيضاً : « لم يقع فيهما من الحوادث التى تقيّد في بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه ... وحضر طائفة الفرنسيين إثر ذلك في أوائل السنة التالية ، كما سيأتى خبر ذلك مفصلاً » ، ثم شرع في ذكر الوفيات (٢ : ٢٦٧ - ٢٧٥) ، ختامَ الجزء الثانى من تاريخه . وهذا أمر غريبٌ جداً ، كأنَّ مظالم المماليك التى عادت جَذعة ، ونَقَضَهم الحُجَّة التى وقَّعوها بعد شهرٍ واحدٍ من تحريرها ، لم يكنْ لها وقعٌ عند جماهير الناس ولا عند المشايخ . هذا أمرٌ مستبعدٌ بلا شك ، وإنما شُغل الجبرتي عن سرِّد حوادثها بما نزل بالبلاد من البلاء الماحق بحضور الفرنسيين ، فاختصر السنوات الثلاث اختصاراً ليس له شبيه في كتابه .

(١) أخطأ الجبرتي خطأ كبيراً حين لم يثبت في كتابه نصَّ هذه الوثيقة كاملةً وعليها توقيع الأمراء ، ولكن مضمونها على كل حال أفضل مئات المرات من وثيقة « الماجنا كارتا » (سنة ١٢١٥ م) ، التى حاول الإنجليز ، فيما بعد ذلك بقرون ، تفسيرها على أنها ضمانة للحريات . وقد ضاعت هذه الوثيقة فيما ضاع وأتلف في زمان الحملة الفرنسية .

• كُلُّ هذا كان يَقَعُ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ من « المستشرقين » وأَعوانِهِمْ ، وأَدْرَكَ « المستشرقون » أن هذه الحوادث المتتابعة التى انتهت بإعلانِ المماليكِ تَوْبَتَهُمْ وَرَجوعَهُمْ عن مَظالمِهِمْ ، حتى اضْطُرُّوا إلى تَوْقِيعِ وثيقةٍ يشهدون فيها على أنفُسِهِمْ بالتَّوْبَةِ ، وتَعَهَّدُوا فيها برفعِ المَظالمِ عن الناسِ ، إنَّما كان نَتِيجَةً مَتَوَقَّعَةً نابعةً من « اليقظة » و « النهضة » التى أَخَذَتْ تُعَمُّ دارَ الإسلامِ فى مصر = وتَبَيَّنُوا أَيْضاً أَنَّ مشايخَ الأزهرِ قد صاروا طليعةَ هذه « اليقظة » وقادَتِها ، وأن سُلطانَهُمْ على العامةِ والجماهيرِ ، قد أَرهَبَ المماليكَ وأَفْزَعَهُمْ . ولولا أن الجَبْرِتَى قد أَخْفَى عَنَّا مَوقِفَ المشايخِ والجماهيرِ فى ثلاثِ سنواتٍ بعد تَوْبَتِهِمْ ، ثم نَقَضَهُم العَهْدَ وَعَوَدَتِهِمْ إلى الجورِ والظُّلمِ ، لرَأَيْنَا الصِّراعَ واضِحاً جَلِيّاً بين المشايخِ قَادَةِ الجماهيرِ ، وبين المماليكِ الذين غَرَّهُمْ ما كانوا يَتَمَتَّعون به من السلطانِ على الجماهيرِ ، وما استمرُّوا من إيقاعِ الجورِ والمَظالمِ ، وسكوتِ الجماهيرِ واستكانَتِهِمْ لَهُمْ زمناً طويلاً قبل ذلك = ولَعَرَفْنَا أَيْضاً أسماءَ كثيرٍ من المشايخِ الذين كانوا طليعةَ « اليقظة » وقادَتِها فى هذه المُدَّةِ من تاريخِ دارِ الإسلامِ فى مصر = ولربَّما عَرَفْنَا أَيْضاً أسماءَ مَنْ آنَحازَ من أمراءِ المماليكِ يومئذٍ إلى المشايخِ والجماهيرِ ، وأنشَقَّ عن جَمْهَرَةِ الأمراءِ المماليكِ الذين أَصْرُوا على جورِهِمْ ومَظالمِهِمْ وعِنادِهِمْ ، وَرَجَعُوا عَن تَوْبَتِهِمْ التى شهدوا بها على أنفُسِهِمْ فى الوثيقةِ أَنَّهُمْ تابوا وَرَجَعُوا عَنِ المَظالمِ .

• ومع ذلك ، فقد أَوْقَفْنَا الجَبْرِتَى على أسماءِ ستة من المشايخِ الكبارِ الذين شاركوا فى الثورةِ على المماليكِ وهم : « الشيخُ العَرِيشَى » مفتى الحنفية ، و « الشيخُ السادات » ، والسيد نقيب الأشراف « عمر مكرم » ، و « الشيخ عبد الله الشرقاوى » شيخ الأزهر ، و « الشيخ البكرى » ، و « الشيخ محمد الأمير » . وهؤلاء الستة كانوا ضمن التسعة الذين سَجَّلَ أسماءُهُمْ « نابليون » فى أمرِهِ الذى أَصْدَرَهُ بتكوينِ « الديوان » فى أوَّلِ ساعةٍ وَطِئَتْ قَدَمُهُ فيها القاهرةُ ، (يومِ الثلاثاء ١٠ صَفَرِ سنة ١٢١٣ هـ / ٤ يولييه سنة ١٧٩٨ م) ، وكان تمامِ التسعة : « الشيخ مصطفى الصاوى » ، و « الشيخ سليمان

الفيومي » و « الشيخ موسى السرسى » ، فرفض ثلاثة من الستة الأول أن ينضموا إلى الديوان ، وهم : « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » ، فأحلّ محلهم نابليون ثلاثة آخرين هم : « الشيخ مصطفى الدمنهورى » و « الشيخ يوسف الشبراخيتى » و « الشيخ محمد الدواخلى » .

كيف استجاب هؤلاء التسعة من المشايخ العلماء الكبار لغازٍ مسيحيّ بهذه السرعة العجيبة ؟ كيف استجابوا وهم يعلمون صريح أوامر الله وأوامر رسوله يقتال الغزاة لدار الإسلام ؟ كيف استجابوا وهم كانوا بالأمس القريب قد ثاروا على الأمراء المماليك يطالبونهم بإقامة الشرع ؟ كيف خافوا وضعفوا وأخطأوا الطريق ، وكان لهم مندوحة فى رفض الاستجابة ، كما فعل ثلاثة من إخوانهم العلماء الكبار ؟ ينبغى أن يكون لهذه السرعة فى الاستجابة بلا تردد تفسير يقبله العقل ، ويمهد لهم عُذراً يقبله العقل أيضاً على مَضْضٍ .

• لما أطلَّ زمانُ مجيء الحملة الفرنسية ، وكان معلوماً بلا شك للمستشرقين المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، نَشِطَ « الاستشراق » وأعوانه وجالياته من شذاذ الآفاق الذين عبّأهم وجنّدهم ، كما أشرت إليه فيما سلف (ص : ١٢٣) = نَشِطَ « الاستشراق » نشاطاً سريعاً خفيّ الوطء فى ميادين مختلفة ، لبث أفكار درسوها وأحكموها ، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام فى مصر ، للتحكُّم فى تصريف أموره وغاياته ، وللتمكن من إشعال نيران الفتن حين تنزل الحملة الفرنسية أرض مصر ، ليفرقوا بهذه الفتن شمل الناس ويمزقوهم ويشغلوهم عن الكيد الخفى المكيفلى الذى يُرادُّ بهم ، (ما سلف : ١٠١ ، ١٢٣) .

كان أكبر نشاط « الاستشراق » مَوْجَهاً إلى المشايخ الكبار الذين ثاروا بالأمس القريب على طائفة الأمراء من المماليك المصرية مرّات ، حتّى خضعوا ووقّعوا على وثيقة

يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، ويتعهدون فيها برفع المظالم التي أوقعوها على جماهير الأمة ، وبالتزام أوامر الشرع ، ولكنهم لم يفؤا بذلك ، فنقضوا الوثيقة ، وعادوا بعد شهر واحد إلى جورهم ومظالمهم وزيادة ، كما قال الجبرتي فيما سلف قريباً . ولا شك أن نقض هذه الوثيقة ، قد أورث قلوب المشايخ الكبار غضباً وكرهية لطائفة الأمراء المماليك الذين لا يرعون الله إلاً ولا عهداً ولا ذمةً ، ولا يقيمون للشرع حرمةً ، ولا للمشايخ هبةً ولا كرامة . كان هذا كله معلوماً واضحاً عند « الاستشراق » وأعوانه وحواشيه .

فلما دنا نزولُ جُند الفرنسيين ثغر الإسكندرية ، كانت الأخبار قد وصلت إلى القاهرة غامضةً ، فلم يهتم أمراء المماليك بشيء من ذلك ولم يكثرثوا به اعتماداً على قوتهم ، فقالوا وزعموا : أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم ، (الجبرتي ٣ : ٣) . وعندئذ خرج « الاستشراق » من مكانه ، وخرج « المستشرقون » الذين كانوا يتزيّون بزي أهل الإسلام ، ويجاورون في الأزهر لطلب علم الدين والدنيا مسلمين ، وبخالطون المشايخ الكبار في دروسهم وبيوتهم ، لا يميّزهم شيء عن سائر المسلمين المجاورين في الأزهر من كل جنس ولون = وطافوا على المشايخ الكبار ، وبرفق ودهاء ومكر فاتحوهم في شأن الفرنسيين الذين شاع أنهم قد دنا نزولهم أرض مصر ، فنصيحةً لله ولرسوله وللمسلمين بيّنوا لهم أنهم على علم بشأن هؤلاء الفرنسيين ، وأن الذي يحملهم على القدوم إلى الديار المصرية هو ما كان المماليك يعاملون به الجالية الفرنسية بإذلال واحتقار ، ويظلمون تجارهم بأنواع الإيذاء والتعدي ، كما يظلمون جماهير أمة الإسلام في مصر بألوان من الجور والظلم والمهانة ، وإقدامهم على مخالفة الشرع ، وعلى نقض العهود والمواثيق ، وجراأتهم على هبة المشايخ الكبار بلا رعاية لكرامتهم = وأن كل هدف الفرنسيين هو رفع الظلم الواقع على تجّارهم ، وتخليص حق الأمة الإسلامية من يد الظالمين ، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة الظالمة ، ووضع أمور البلاد في يد العلماء والفضلاء من أهالي مصر .

وظلُّوا يَفْتُلُون لهم في الذُّرْوَةِ والغاربِ برفقٍ ودهاءٍ ، حتى انتهوا إلى أن الفرنسيّس لم يُقَدِّموا على نيّة القضاء على دولة الممالك ، إلّا باتفاقٍ مع السلطان العثماني ، لأنهم أحباؤه المخلصون ، والممالك كثيراً ما امتنعوا عن طاعة السلطان ولم يمتثلوا لأمره = وأنهم يحترمون النبي ﷺ والقرآن العظيم ، وأنهم هم الذين نزلوا في رومية وخربوا كرسى البابا الذى كان دائماً يَحُثُّ النصارى على محاربة المسلمين . واستمع المشايخ لهذا وأمثاله ، ولِقَلَّة علمهم بما هو خارج عن حدود القاهرة ، ألانَ مثل هذا الحديث قلوب أكثرهم وغرَّتْهُمُ الأمانى ، وعُدُّوه نصيحةً لله ولرسوله وللمؤمنين .

وكان آخرون من « المستشرقين » لهم مودةٌ بالممالك ، يُفَاوضونهم ويهْوَنون عليهم شأن الفرنسيّس ، ويُمْنُونهم بالظفر عليهم إذا هم أقدموا على دخول القاهرة ، ويزيدونهم إصراراً على الغرور بقوتهم ، وأنهم إذا جاءت الإفرنج ، فهم قادرون على أن يدوسوهم بخيولهم . أمّا الذين كانوا منهم يطوفون بالمشايخ ، فكانوا يخوفونهم من تهوُّر الممالك ، وأنهم لا علم لهم بقوة الفرنسيّس ، وما في حوزتهم من المدافع والأسلحة ، مما لا يملك مثله الممالك ، وأنّه إذا وقعت الواقعة ، لم تُغن عن الممالك مدافعهم وأسلحتهم ، وأنهم سرَّعان ما يفرون من وجه الفرنسيّس ، ثم يتفرقون شَذَرٍ مَذَرٍ ، ويتركون القاهرة مكشوفةً بلا حامٍ يحميها أو يدافع عنها .

وكان آخرون من « المستشرقين » يتأهَّبون لإحداث فتنةٍ كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيّس القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أن يستثيروا حِمِيَّتِها ، وأن يُغرَّوها بأن استجابتهم للفرنسيّس إنما هو نُصرةٌ لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجبه ديانة أن يناصروا الفرنسيّس ، ويناصبوا المسلمين العداء ، حتى تعلُّو راية المسيحية ، ويصبح المسلمون أتباعاً لهم ورعيةً لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعة المستكنة لدين المسيح . بيد أن الكنيسة القبطية أعرضت عنهم وعن إغرائهم ، لسبب بيّنه لنا المستشرق الإنجليزي « إدوارد ولیم لين » في كتابه « المصريون

المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم » ، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر بأربع وثلاثين سنة (سنة ١٨٣٤) فقال :

« ومن أكثر الخاصيات اعتباراً في خُلُق الأقباط تعصُّبهم الشديد ، وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعاً كراهية شديدة ، (يعنى المسيحيين الشماليين) ، تُفوق أيضاً كراهية المسلمين للكفار في الإسلام . ويعتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين ميلاً للإسلام » . (١)

لذلك لم يَسْتَجِب للمستشرقين أحدٌ من رجال الكنيسة القبطية ، وأخفقوا إخفاقاً كاملاً ؛ فولّوا وجوههم شَطْر طائفة الأقباط الأغنياء الذى كان عملهم جباية الأموال ، وضبط ماليّة الممالك ، فاستعصى عليهم أكثرهم ، واستجاب لهم جاني المملوك « محمد بك الألفى » ، وهو المعروف باسم « المعلم يعقوب » ، وجمع لهم من سِفلة القبط وعامتهم وغوغائهم عدداً كبيراً ، وانضمَّ جهرةً إلى الفرنسيين ، فكَوَّن منهم « نابليون » فيما بعد جيشاً سماه « جيش الأقباط » ، على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس « المعلم يعقوب » ، كان هو وجيشه فتنةً كبيرةً ، وبلاءً وبيلاً . (٢)

(١) ترجمة كتاب لين « المصريون المحدثون » ص : ٤٦٣ ؛ الطبعة الثانية : في باب « الأقباط » ، على ما في هذه الترجمة من ضعف العبارة . ولأن الكنيسة القبطية ، لم تكن مطمئنة إلى هؤلاء المسيحيين الشماليين وترتاب فيهم ، هجّاهم لين هجاءً شديداً (ص : ٤٦٣) ، وهجا بطرك الأقباط ، وزعم أنه كان مستبدّاً يُعْرِى على شهادة الزور ، وأنّ القسس والرهبان جهلاء خادعون خائنون ، يسعون وراء المنفعة الدنيوية واللذات الجنسية ، وأنهم يتسوّلون ويستدينون نقوداً لا يردّونها . وهذه شيمة المسيحية الشمالية في الافتراء والطعن على من لا يستجيب لهم . وانظر إلى حقد « الاستشراق » الذى ظلّ كامناً أربعةً وثلاثين سنة ، ثم استعلن .

(٢) تستطيع أن تقف على أخبار هذه الفتنة في تاريخ الجبرتي ، وفي كتاب الرافعي ، وفي كتاب الأستاذ محمد جلال كشك ، الذى سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » .

...

• لما وقعت الواقعة ، ونزل جند الفرنسيين أرض الإسكندرية ، واجتاحوا بلاد الوجه البحرى يحرقون القرى ويسفكون الدماء ، سبقهم إلى القاهرة منشور نابليون المؤرخ آخر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وكتبه المستشرقان « فانتور » و « مارسل » = رأى المشايخ فيه جُل ما طرق أسماعهم من حديث المستشرقين الذين كانوا يتزيون بزى الإسلام ، وجاءتهم أنباء حرائق القرى وسفك الدماء ، حين قاوم المصريون الجيش الغازى ، كما توعد نابليون فى منشوره كل من يقاومه . ثم بعد أيام قلائل وصل نابليون مشارف القاهرة ، ولقى جيشه جيش المماليك المصرية ، ودارت الدائرة على المماليك ، وأخذهم الرُعب ، وتفرقوا شذر مذر ، وتركوا القاهرة عارية مكشوفة ليس لها حام يحميها ، فكان ذلك كله مصداقاً لما سمعه المشايخ من « المستشرقين » ، فوجفت قلوبهم ، وخافوا أن يحلّ بالقاهرة ما حلّ بقرى الوجه البحرى من الفظائع . فلما دخل نابليون القاهرة ، وأصدر أمره بتكوين « الديوان » من تسعة من المشايخ الكبار ، استجاب ستة منهم لدعوة نابليون ، ثم استجاب أيضاً ثلاثة آخرون تمام التسعة ، بعد رفض « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » أن يستجيبوا لدعوته . والذي دعا هؤلاء للاستجابة خوفهم على مصير القاهرة التى تركت بلا حام يحميها ، بعد أن أخذها حُماتها من صناديد الحرب والقتال ، وهم المماليك المصرية . فلم ير المشايخ سبيلاً إلى حقن دماء العامة رجالاً ونساءً إلا المهادنة ، وإلا الصبر والسكينة حتى يكشف الله هذه الغُمة بما شاء سبحانه .

فكانت استجابة هؤلاء المشايخ التسعة لتكوين « الديوان » منهم أوّل زلّة ، وكانت هذه الاستجابة أيضاً أوّل نجاح حازه « الاستشراق » فى « تدجين » بعض المشايخ الكبار ، ولكن لم تلبث الأُمة خاصتها وعامتها أن رفضت الاستماع إلى هؤلاء المشايخ « المدجنين » ، واستمعت إلى آخرين من المشايخ ، وإلى صيغار طلبة العلم بالأزهر الذين

رفضوا نصيحة المشايخ التسعة الكبار ، وقامت ثورة القاهرة وثورات الأقاليم ، بعد ثلاثة أشهر من « تدجين » التسعة الكبار ، ومن دخول جزائر القاهرة أرضاً لم تطأها من قبل قدم غازي صليبي محترق كالميكافلي « نابليون » ، الذي غر هؤلاء التسعة ، وخدعهم حُسن استقباله لهم وتوقيعهم خداعاً لهم بمداهنته ومكره ودهائه ، (اقرأ ما سلف : ١٠٢ - ١٠٨) .

وكان بعد ذلك ما كان من سفح الدماء ليلاً ونهاراً ، جَهْرَةً وخُفِيَةً ، لم يستثن الجزائر ولا خلفاؤه شيخاً فانياً ، ولا طفلاً رضيعاً ، ولا امرأة عاجزة ، حتى انكشف هو وجُنوده من أرض مصر بعد ثلاث سنوات خِزَاياً مقهورين ، (ما سلف : ٩٢ - ٩٦) .

...

٢٣ - لم تذهب معاناة دار الإسلام في مصر من بلايا السنوات الثلاث هَدَرًا ، فإن ثوراتها على جُند الفرنسيين قد أخرجت من غِمارِ الناس ومن مشايخ الأزهر قادة جُددًا قد نَجَّذهم الصِّراعُ والقتالُ وعَلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأصبحوا هم حُماة القاهرة والسَّاهرين على الذِّيارِ عنها ، على قُرب عهدهم بمزاولة الحماية والدِّفاع . ومضت أربع سنوات بعد رحيل الفرنسيين ، واضطربت أمور إدارة البلاد ، ولكن ظلَّ المشايخ الكبار والقادة الجُدد من جماهير الشعب في مصر ، رُقَبَاءَ على كُلِّ مَنْ يحاول أن يتصدَّر لإدارة أمور البلاد ، وخاصةً المماليك الذين عادوا بعد غيابهم ثلاث سنوات كانوا فيها معزولين عن مباشرة ما كانوا يباشرون من قبل الحملة الفرنسية من الإدارة وحماية البلاد . وأخيراً استقرَّ رأي المشايخ والقادة على إسناد الأمر إلى رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمئة من الجُند في أواخر أيام الحملة الفرنسية ، وكان اسمه « محمد على سِرْشِشْمَة » ، و « سرششمة » دَرَجَةٌ بسيطةٌ يلقَّبُ بها قائد عددٍ من الجنود في الدولة العثمانية ، كان ذلك في سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) .

كان « محمد على سرششمة » هذا ، الذي أسند إليه أمر ولاية مصر في سنة

١٨٠٥ ، (١٢٢٠ هـ) ، في الخامسة والثلاثين من عمره . وكان جاهلاً لم يتعلم قط شيئاً من العلوم ، وكان لا يقرأ ولا يكتب ، وقضى أكثر عمره تاجراً يتاجر في « الدخان » ، ثم انضم إلى الجند ، ولكنه كان ذكياً داهية عريق المكر ، يلبس لكل حالة لبوسها ، وكان مُغامراً لا يتورّع عن كذب ولا نفاق ولا غدر . وفي أثناء مُقامه في مصر من سنة ١٨٠١ م إلى سنة ١٨٠٥ م ، يراقب اضطراب أمورها واختلال إدارتها ، وينظره الثاقب وذكائه ، خالط المشايخ والقادة والمماليك الذين حاولوا العودة إلى ولاية الأمور في مصر ، فنافقهم جميعاً ، وأظهر لجميعهم المودة والنصح وسلامة الصدر ، حتى انخدع به المشايخ والقادة ، وآثروا ولايته على ولاية المماليك ، فنصبوه والياً على مصر ، وعلى رأس من انخدع به « السيد عمر مكرم » ، أكبر قائد للمشايخ والجماهير ، فبذل كل جهده في إسناد ولاية مصر إليه . وكان ما أراد الله أن يكون .

• لم يكن « الاستشراق » ، وخاصة « الاستشراق » الفرنسي ، غافلاً عن هذا المغامر الجديد وعن خلائقه ، بل كان مراقباً له كل المراقبة من أول يوم جاء فيه إلى القاهرة ، ومراقباً أيضاً لكل ما كان يجري في مصر منذ رحيل الحملة الفرنسية . فلما تمت ولاية « محمد علي سرشمة » على الديار المصرية ، أحاطت به قناصل المسيحية الشمالية إحاطة كاملة = و « القناصل » هم « الاستشراق » نفسه في صورته السياسية = فبدأوا يقتلون له في الذروة والغارب ، ويؤغرون صدره على المشايخ والقادة الذين نصبوه والياً على مصر ، ويخوفونه عاقبة سلطانهم على جماهير الأمة . وصادف ذلك استجابة طبيعية ، لما في قلب هذا المغامر الجريء من الذهاء والحُبث وترك التورّع عن العذر وإنكار الجميل وحُب التفرد بالسلطان الذي ناله بغتة ، ولم يكن قط في حياته يتوهم أن يناله أو ينال ما هو دونه بكثير .

فكانت أول غدره غدرها « محمد علي سرشمة » هذا بالذي نصبه والياً على مصر ، وبذل له في ذلك كل جهد ، وهو قائد الأمة مشايخها وجماهيرها ، نقيب

الأشراف « السيد عمر مكرم » ، فإنه بمكره ودهائه أوقع بينه وبين بعض المشايخ ، ثم انتهى الأمر بأن نزع عنه نقابة الأشراف ، ثم نفاه إلى دمياط في أول رجب ١٢٢٤ هـ (١٢ أغسطس ١٨٠٩ م) ، أى بعد ولاية هذا المغامر الغدار بأربع سنوات فقط ، وبقي السيد عمر في منفاه الأول هذا عشر سنوات ، حتى استدعاه إلى القاهرة فجاءها في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (٩ يناير سنة ١٨١٩ م) ، ثم عاد ونفاه مرة أخرى إلى طنطا ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (١٥ إبريل سنة ١٨٢٢ م) ، فتوفى رحمه الله في تلك السنة نفسها . ثم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم ، ليوهى سلطانهم على جماهير الأمة ، وبُفَّت قُوَّة الجماهير بعسفه وظلمه وإرهابه وجبروته ، بعد القضاء على قادتهم وتشتيت شملهم ، وكذلك كان ، والأمر لله من قبل ومن بعد . وكذلك ظفر « الاستشراق » بالمشايخ الكبار ، ومَهَّد لعزل الأزهر ومشايخه عن قيادة الأمة ، وأوغر صدر هذا الجبار ، ومكَّن في قرارة قلبه بغض الأزهر وشيوخه وطلبة العلم المجاورين فيه ، وانفرد هو بأذن هذا الجاهل الجريء المستبد ، يُوحون إليه بما يريدون وما يُبيتون ، ويُتمون ما بدأوا به من وأد « أليقظة » التى تهذدهم بها دار الإسلام في مصر ، على يد مسلم جاهل غرَّ أهوج ، لا يعرف كثيراً ولا قليلاً من « الثقافة المتكاملة » التى حَفِظَتْ دار الإسلام قروناً طَوَّالاً ، وكانت لُبُّ « اليقظة » و « النهضة » الوليدة التى كان قريباً جداً أن تُوتى ثمارها .

...

• وثبت هذا الطاغية « محمد على سرشمة » قواعد مُلكه ، وازداد إطباق « القناصل » و « المستشرقين » على عقله وقلبه ، وخاصة الفرنسيون منهم ، وكانت إنجلترا ومستشرقوها ما فُتت تخوف الدولة التركية وتولَّيها على مَهْد « اليقظة » في جزيرة العرب ، والتى قامَ بها وأسَّسها « محمد بن عبد الوهاب » (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ -

١٧٩٢ م) ، (انظر ما سلف : ٨٢ ، ٨٨ ، ١١٨) . واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب ، حتى جرّدت حملات متتابعة لقمع « اليقظة » الوهاية ، وآبت في جميعها بالإخفاق . ثم منذ ولى « محمد علي سرشمة » جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال الوهابيين ، وتتابع هذا الطلب من سنة ١٨٠٧ م إلى سنة ١٨١٠ م (١٢٢٢ - ١٢٢٥ هـ) ، فلم يستجب لنداء تركية ، ولكن « الاستشراق » بقناصله زين أخيراً لمحمد علي سرشمة أن يستجيب ، ليحقق مآربه في واد « اليقظة » التي كادت تعم جزيرة العرب ، وأمّذوه بالسلاح الذى يعينه على خوض الحرب ، وذلك في سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، (أى بعد ولايته مصر بست سنوات) ، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ، ودارت الحربُ التى لم تنته إلا بعد ثمان سنوات ، في سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م ، وفقدت الجيوش المصرية آلافاً من أبنائها ، ولقيت هزائم كادت تودى بها . وأخيراً تم النصر لمحمد علي سرشمة ، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحله مسلم ، واستباح الديار والأموال والنساء ، وهدم المُدن ، فكان هو وابنه إبراهيم وسائر أولاده طُغاةً من شرّ الطُغاة . وكانت حرباً طاحنة لا معنى لها ، ولا ينتفع بها إلا مؤرثوها من دُهاة المسيحية الشمالية .

وكذلك أدرك « الاستشراق » ، وأدركت المسيحية الشمالية ، مأرباً من أكبر مآربها في واد « اليقظة » التى كانت تهددهم بها دار الإسلام في جزيرة العرب ، والتى كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه « اليقظة » إلى « اليقظة » الكائنة في دار الإسلام في مصر ، فيومئذ لا يعلم غير الله ما تكون العواقب ، كما أسلفت (انظر : ١١٨) ، وتمّ كُلّ ذلك على يد مسلمين جهلة يُوجّههم « الاستشراق » والمسيحية الشمالية من حيث لا يُبصرون ولا يعلمون ماذا يُراد بهم ، ولا إلى أى هُوةٍ من الهلكة يُساقون . والأمرُ لله من قبلُ ومن بعدُ .

...

• يقول الكاتب المؤرخ المُدجّن « عبد الرحمن الرافعى » فى كتابه : « تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثالث ، عصر محمد على » ص : ٥٢ : فى باب « البعثات العلمية » :
« لو تأملت ملياً فى العصر الذى نشأت فيه هذه الفكرة ، واختلجت فى نفس محمد على ، لعجبت لعبقريته كيف أنبت هذا المشروع . ففى ذلك العصر لم يفكر حاكم « شرقى » ولا حكومة شرقية فى إيفاد مثل هذه البعثات . وهذه تركية = وسلطانها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد على = لم تفكر حينذاك أصلاً فى إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية ، فصدور هذه الفكرة ، فى ذلك العصر ، وفى الوقت الذى كان محمد على مشغولاً فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدلُّ حقيقةً على عبقرية نادرة وهمة عالية » ... تأمل ثم تأمل ، ويا للعجب لهؤلاء المؤرخين المُدجّنين !

والحقيقة أن فكرة « البعثات العلمية » لم تكن نابعة من عقل هذا الجندى الجاهل « محمد على » ، بل كانت نابعة من عقول تخطط وتدبر لأهداف بعيدة المدى ، استغلت ما فى نفسه من المطامع ، وحُبّه للسيطرة ، أحاطت به « القناصل » وهى تراقب أهواءه ومطامعه ، فجعلت تغذّيها وتزيدها توهّجاً ، لتجعله قوّة فى قلب دار الإسلام ، تُنازع دار الخلافة فى تركية سلطاتها ، وتنشّق عنها انشقاقاً يزيد فى تفكك دار الإسلام ، ويُسرّع فى انهيار دار الخلافة ، وفى تمزيقها وضعفها وارتخاء قبضتها على أطراف دار الإسلام ، ويمهد للمسيحية الشمالية السبيل إلى تخطف أقاليم دار الإسلام بعد أن تصير أشلاء ممزقة عاجزة عن الدفاع عن نفسها = على أن تكون هذه القوّة الجديدة ، قوّة محمد على ، فى قبضة المسيحية الشمالية ، تصرفها كيف تشاء ، وتقضى عليها قضاءً مُدماً يوم تحتاج إلى هذا التدمير . ولذلك كانت هذه البعثات الصغيرة كلها ، منذ سنة ١٨١٣ م ، تتعلق بالصنائع التى تتعلق ببناء الجيش المصرى لا أكثر ، وكانت هذه البعثات أيضاً قليلة العدد ، ينتفع بها محمد على فى حروبه فى جزيرة العرب (من سنة ١٨١١ -

١٨١٩ م) ، وفي تخطيط أجزاء أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة ، ليزيد هذا التخطيط في ضعفها وتفككها . هذه كانت غاية « القناصل » الذين أحاطوا بمحمد على إحاطة كاملة ، وصاروا عقله الذي يفكر به ، وصار هو دُمِيَّة في أيديهم يحرّكونها إلى غاياتهم ومقاصدهم .

ولما فرغ « محمد على » من تخطيط « اليقظة » التي كانت في جزيرة العرب ، سنة ١٨١٩ م ، وعلا بذلك شأنه ، وأرسى قواعد ملكه في الديار المصرية = كان في فرنسا رجل كبير مُمَّن شاركوا في الحملة الفرنسية ، كان مهندساً بارعاً ، وكانت له منزلة كبيرة عند « نابليون » والمستشرق « فانتور » خليل نابليون ونَجِيَّه ، وانتخب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخص مصر ، هو المسيو جومار (آدم فرنسوا جومار - ١٧٧٧ - ١٨٦٢ م) . فلما رأى نجاح « القناصل » في إغراء « محمد على » بإرسال البعثات إلى أوربة ، ما بين سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩ م = أسرع جومار بحث « الاستشراق » الفرنسي وقناصله في مصر ، على إغراء محمد على بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا ، ليجعلها تحت إشرافه ، ولينفذ مشروع « نابليون » الذي بيّنه لخليفته « كليبر » في رسالته إليه ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) .

وإذا كان « نابليون » = بتخطيط المستشرق « فانتور » = قد بنى مشروعه على أن يجتهد « كليبر » في أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من الممالك ، فإن لم يجد العدد كافياً ، فليستعص عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسقّهم إلى فرنسا ، فإذا ما وصلوا حُجزوا مدّة سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادون على لغتها وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر ، كان لفرنسا منهم حزب يُضَمُّ إليهم غيرهم = إذا كان مشروع نابليون ، الذي يراؤ به تكوين حزب للفرنسيين في مصر ، معتمداً على الوُلاة من الممالك ومشايخ البلدان الذين يتولّون حُكم البلاد في زمانه ، فإن

« جومار » قد طَوَّر هذا المشروع تطويراً كبيراً ، بعد خمس وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ م = ويكون حزباً لفرنسا في مصر أخطر من حزب نابليون .

لقد سنحت لجومار أعظمُ فرصة باستجابة محمد على لإرسال بعثات إلى أوربة ، فبنى مشروعه ، لا على كبار السنّ من المماليك ومشايخ البلدان ، بل على شبابٍ غَضْرَ يَبْقُونَ في فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصر ، يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا ، وعلى مرّ الأيام يَكْبِرُونَ ويتولَّون المناصبَ صغيرها وكبيرها ، ويكون أثرهم أشدّ تأثيراً في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر . هكذا طَوَّر جومار مشروع نابليون الذي لم يستطع « كليبر » أن يحققه وهلك دونه .

...

نَجَحَ جُومار ، ونجح « الاستشراق » وقناصله في إغراء محمد على بإرسال بعثة كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا في يولييه سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤٢ هـ) ، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٨٤٧ م (سنة ١٢٦٤ هـ) ، وكانت كلّها تحت إشراف « جومار » يصنعها على عينه . كانوا شبّاناً صغاراً ، ليس في عقولهم ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يُغْنِي من « الثقافة المتكاملة » التي عاشت فيها أمّتهم قروناً متطاولةً ، ووضعهم جومار تحت أيدي « المستشرقين » يوجّهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التي يريدونها ، ويُعطونهم القدرَ اليسيرَ المتفق عليه بينهم من العلوم التي يدرسونها ، ثم يرُدُّونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر ، وإلى دولة محمد على التي أسَّسها ، وهو ودولته في قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ومَشُورَتِهِمْ ، لا يستطيع فكاًكاً منها ، لأنه كان جاهلاً لم يتعلَّم علماً قطُّ ، حتى الخط والكتابة لم يتعلمهما إلا وهو في الخامسة والأربعين من عمره (سنة ١٨١٥ م / ١٢٢٩ هـ) .

كانت أول بعثة في سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤١ هـ) ، فيها ٤٤ تلميذاً ، أدخلهم مسيو جومار المدارس الفرنسية ، ليتلقوا اللغة والعلوم والفنون ، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتولون المناصب والأعمال . وهذا شيء غريب جداً أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا في سنوات قلائل من العلوم والفنون التي شابت نواصي العلماء في سبيلها ، ما يؤهلهم للتدريس والصناعات والأعمال وجلال الأمور . شيء غريب جداً !! وهم قبل سفرهم لم يحصلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة شيئاً يذكر ، أليس هذه الدعوى غريبة كل الغرابة ؟

• وكان في هذه البعثة الأولى ، رجل قد خرج مع البعثة إماماً لها ، ليراقب أفراد البعثة ، ويصلى بهم الصلوات الخمس ، هو « رفاة الطهطاوى » ، وُلِدَ بمدينة طهطا بمديرية جرجا سنة ١٢١٦ هـ ، (١٨٠١ م) في أسرة رقيقة الحال ، فأتته حفظ القرآن ، وقرأ شيئاً من مُتون العلم المتداولة على بعض العلماء في بلده ، ثم توفى والده رحمه الله ، فرحل إلى القاهرة وهو في السادسة عشرة من عمره ، (١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م) ، وانتظم في سلك طلبة الأزهر ، يتلقى العلم عن شيوخه ثمانى سنوات ، وكان محباً للأدب . وفي سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م عُيِّن واعظاً وإماماً في أحد أليات جيش محمد على . فهذا إذن شاب في الثالثة والعشرين من عمره ، لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغاً له شأن يذكر في « الثقافة المتكاملة » التي عاشت فيها أُمته ثلاثة عشر قرناً في حضارة متكاملة متراجبة مترامية الأطراف ، متباينة الدرجات ، متنوعة العلوم ، قد بلغت في العظمة والجلالة مبلغاً لم تدركه قبلها أمة من الأمم .

ثم يُختار هذا الشاب في سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٦ م ليصحب بعثة إلى فرنسا ، يكون إماماً لأعضائها . كان ذكياً ، نعم . كان محباً للعلم والأدب (أدب عصره وشعر عصره) ، نعم . كان قوى العزيمة ، نعم . كان نابهاً بين أقرانه ، نعم ، ولكنه على ذلك كله في

الخامسة والعشرين من عمره ، غَرِيرٌ بَيْنُ الْغَرَارَةِ ، طَرِيٌّ الْعُودِ ، قد جاء من أقصى الصَّعِيدِ ، ومن ظُلُماته وبؤسه وفقره وَخَصَاصَتِهِ ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ثم أقام تسع سنواتٍ فى القاهرة ، فى حَوَارَى الأزهر المهْدَمَةِ المَحْرَبَةِ بيوثها بفعل الفرنسيين ، الضَيِّقَةِ طُرُقَاتِهَا ، المظلمة أَزِقَّتِهَا = ثم يركبُ سفينة فرنسية تتلأأ أنوارها تُرْمَى به إلى قلب باريس (فى القرن التاسع عشر) ، بحداثتها وميادنها وأنوارها ومبَاهجها ، وما لا رَأَتْهُ من قبل عينٍ كعينه ، وما لا حَظَرَ على قلبٍ كقلبه . أئى فِتْنَةٍ تذهبُ بعقل هذا الفتى ، وترجُّه رجًّا لا قَبَلَ لمثله باحتماله ؟ وكذلك كان !

أئى صَيِّدٍ سمين تلقَّفه « المسيو جومار » بخبرته وحُكْمَتِهِ وتجربته وبَصَرِهِ النافذ ؟ فتى ناشئٌ فى قلب الأزهر ، ذكىٌّ ، محبٌّ للعلم والتحصيل ، قوى العزيمة ، رآه مفتوناً بالأرض التى وطئها قدمه ، لم يَرِ مثلاً من قبل ، ورآه مُقْبِلاً بأقصى عزمته على تعلُّم لُغَتِهِ الفرنسيةِ ، معجباً بها وبأهلها كُلِّ الإعجابِ ، فأخذه « جومار » من قريب ، فكان له صيداً أئى صَيِّد ! يقول الرافعى المؤرخ المدجَّن فى كتابه (٤٧٦ : ٣) : « ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحدٍ منهم إلى الاعتراف من مناهل العلم فى فرنسا (!!) ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاة ، فكان ذا نفس طامحةٍ إلى العُلا ، فأخذ يدرسُ اللغة الفرنسية ، وعكفَ عليها من تِلْقَاءِ نفسه ، رغبةً منه فى تحصيل علومها وآدابها . » ويقول رفاة الطهطاوى نفسه أنه قضى فى تعلُّمها ثلاث سنوات .

ولم يكذُ حتى أخذ « المسيو جومار » بناصيته ، وأسلمه لطائفة من « المستشرقين » ، يصاحبونه ويوجِّهونه ، وعلى رأسهم أحد دهاقين « الاستشراق » الكبار وذُهاته ، وهو المستشرق المشهور البارون « سلفستر دى ساسى » . لم يكن لهذا الفتى الأزهرى الصعيدى المَفْتُونِ مَخْلَصٌ من أحابيلهم ودَهَائِهِمْ ومَكْرِهِمْ ورَقَّةِ حاشيتهم ومداھنتهم ، فاستغلُّوه أبرعَ استغلالٍ ، وصبُّوا فى أُذُنِهِ ، وطَرَحُوا فى قَرَارَةِ قلبه معانى

وأفكاراً قد بيّتها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتها حين تنمو في دَحِيلَةِ نَفْسِهِ ، ^(١) وهم يريدونه فتنّةً بإشهاد روائع المحافل التي تتألّق أنوارها ، وتتألّق تحت أنوارها أيضاً مفاتن النساء الكاسيات العاريات ، والرجال ذَوِي الأُبْهَةِ يَحْتَالُونَ في شمائل الرّقّة الفرنسية ، فزادوه فتنّةً ، وزادوا غفلته غَفْلَةً ، وانتزعوه انتزاعاً مما كان يعيش فيه من ظلمات الصعيد وبؤسه وفقره ، ومن حواري الأزهر المخربة وطرقاتها الضيقة وأزقتها المظلمة ، حتى نسي نفسه التي صاحبها خمساً وعشرين سنة ، وتنكّر لماضيهِ القريبِ وأعرض عنه ، وسارع ينجو بحياته الجديدة من خطاطيفه التي تلاحقه .

وقضى رفاة رحمه الله ست سنوات في باريس من سنة ١٢٤١ - ١٢٤٦ هـ ، (١٨٢٦ - ١٨٣١ م) ، قضى ثلاث سنوات منها في تعلّم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه ، وفي الثلاث الأخر درس التاريخ ، والجغرافيا والفلسفة ، والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلّفات فولتير وجان جاك روسو ، ومنتسكيو ، وقرأ بعض الكتب في المعادن ، وفنّ العسكرية ، والرياضيات ، (انظر كتاب الرافعي ٣ : ٤٧٦ وما بعدها) = فحدّثني بربّك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات في ثلاث سنواتٍ ، إلّا أن يكون ذلك كلّهُ خطفاً كَحَسَنو الطائر ، وأن يكون ما أُلّفه رفاة وكتبه سطواً مجرّداً على كُتُبٍ كُتِبَتْ في هذه العلوم المختلفة المتباينة ، والله أعلم بما فيها من الزلل والخطأ وسوء الفهم . ولكن رفاة الطهطاوى على ذلك كلّهُ إمامٌ جاء يُخرج مصر وأهلها من الظلُّمات إلى النور !! يا للعجب ! ولكن هذا الرجل الطيّب يُحَمِّل من العبقرية في إنشاء « مدرسة الألسن » ، ما حُمِّل محمد علي ، الجاهل الذي لم يتعلم قط ، من العبقرية في الاهتداء إلى إرسال

(١) انظر مثال ذلك ، ما ضمنه كتابه . « أنوار الجليل ، في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل » من الدعوة إلى استعمال العامية « التي يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة ، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصول على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة لهم عميم ، وتصفّت فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية » ، أو كما قال رحمه الله !! انظر كتابي « أباطيل وأسمار » ص : ١٥٩ ، ١٦٠ .

« البعثات العلمية » إلى أوربة ، وفرنسا خاصة ! (انظر ما سلف : ١٣٩) ، وقصة إنشاء « مدرسة الألسن » ، في سنة ١٨٣٦ م (أى بعد عودته بخمس سنوات) ليست من فكر رفاة الطهطاوى ولا من بنات عبقريته ، ولكنها ثمرة من ثمار « الاستشراق » ودُهاته الذي احتضنوه وربّوه وغنّوه ونشأوه مدة إقامته في باريز ، وكما يقول الرافعى : « كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشرعية الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهي أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق ، فلا غرّو أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر » ، ما أعجب أحكام هذا المؤرخ المدجّن !

وبأقلّ التأمل في مناهج « مدرسة الألسن » تعلم يقيناً لا شكّ فيه أنّ رفاة الطهطاوى نفسه لم يكن مؤهلاً لتدريس أكثر هذه العلوم ، ولا كان في مصر يومئذ من المصريين من هو مؤهل لتدريسها ، فلا مناص من استقدام من يُظنّ فيه أنه مؤهل لتدريسها من الأجانب ومن « المستشرقين » خاصة ، وكذلك كان ، فكان هؤلاء الدّهاة من صنائع « الاستشراق » هم الذين تولّوا تثقيف ١٥٠ تلميذاً كان رفاة الطهطاوى يختارهم صغاراً من مدارس الأرياف والأقاليم ، ومن طلبة الأزهر . وبذلك وضع رفاة الطهطاوى أساساً لمدرسة مُلّفة ، (لا كلية ، كما يقول الرافعى) مبتورة الصلّة كلّ البتّر ، من مركز « الثقافة المتكاملة » التي كان الأزهر مهّدها على قرون متطاولة ، وكان هو وحده على طول هذه القرون ، مركز ثقافة دار الإسلام في مصر . وكذلك أحدث رفاة الطهطاوى صدعاً مُبيناً في ثقافة الأمة ، وقسّمها إلى شطرين متباينين : « الأزهر » في ناحية ، و « مدرسة الألسن » في ناحية ، وكذلك حقّق رفاة لدّهة « الاستشراق » أهمّ ما يتوقون إليه ، من وأد « اليقظة » الواحدة المتناسكة التي كان الأزهر مركزها منذ عهد « البغدادى » ، و « الزبيدى » و « الجبرتي الكبير » = وفي وقت كان فيه محمد على

الجاهل يحطّم أجنحة الأزهر ، ويضعه في قفص لا يستطيع الإفلات منه ، ويدبّر كل مكيدة لإسقاط هيئته وهيبته مشايخه ، ويعزلهم عن جمهور الأمة عزلاً بين قضبان من الحديد وجدران من الصُّخور = ومَرَّت الأيام والسنون ، وهذا الصَّدع يتفاقم ، حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم من الانقسام والتفريق ، وذهبت « الثقافة المتكاملة » في دار الإسلام في مصر أدراج الرياح .

...

٢٤ - وُئِدَت « البيضة » التي كان الخمسة الكبار أبطالها وصناديدها ، (ما سلف : ٨٢) ، وكان ذلك نصراً مؤزراً ناله « الاستشراق » بدعائه ومكره وثاقب نظره ، نالهُ من وراء غفلة دار الإسلام في مصر ، ومن وراء الجهل الذي أُسِنِدَتْ إليه أمور البلاد ومصائرُها ، وأقام « الاستشراق » على قبر « البيضة » بناءً جديداً راسخ الأساس ، ظل يرعاه ويحوطه ويزيده رُسوخاً ومتانةً واتساعاً وسُمُوفاً ، يضمن للمسيحية الشمالية الغلبة والسيطرة وتَمَامَ التمكن من إخضاع دار الإسلام لأهدافه وغاياته ، بلا قعقة سلاح ، وبلا مواجهة بين « ثقافتين متكاملتين » تتصارعان كِفاحاً ، فإمّا تتعايشان على هذا الصراع ، وإمّا يحكمان السلاح حتى يُقْضَى لإحدهما على الأخرى بالغلبة ، ثم يصطلحان على حُسن المعاشة وإيثار السِّلْم . أمّا الآن فقد انقلبت الموازين ، ومُزِقت « الثقافة المتكاملة » في دار الإسلام ، وانفردت « الثقافة المتكاملة » في ديار المسيحية الشمالية ، بلا قِرْن يكافئها وينازلها ، وإنّما هو الخضوع والاستكانة لا غير . وقُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان !

وذهب محمد على سرشمة ، وذهب ملكه وهلك ، وجاء من بعده أولاده وهم في قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ، والتصّدع في ثقافة دار الإسلام يتفاقم ، والبعثات الخاضعة المستكنة تتوالى ويقع أعضاؤها في قبضة « الاستشراق » يصنع أعضائها على

عينه ، والبليّة التي أحدثها رفاة الطهطاوى تتعاضد ، وصار الأزهر الذى كان في يديه تعليم الأُمّة أسيراً يرسُفُ في أصفاده وأغلاله منتبذاً ناحيةً ولا يدخله إلاّ أبناء الفقراء والمساكين = ونازعته تعليم الأُمّة المدارس الجديدة التي وضع أساسها رفاة الطهطاوى في مدرسة الألسن ، وانشطر تعليم الأُمّة شطرين ، ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين ، وجعلت الهوة بين الأزهر والمدارس تتسع ، وأصبحت المناهج تتباينُ تبايناً شديداً . أما مناهج الأزهر في عزّله فجعلت تضعف وتذوى وهى على بنائها القديم ، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمو ولكنّ نموّها قائم على القشور التي تغرّ ولا تُغنى فتيلاً ، على نفس الأساس الذى وضعه رفاة الطهطاوى ، وجعلت تزداد تباعداً مقطوعاً الأواصير من « الثقافة المتكاملة » التي عاشت بها الأُمّة قروناً متطاولة . لم تكن هذه المدارس نابعة من « الثقافة المتكاملة » التي تجدد نفسها تجديداً يزيد بها قوة ووضوحاً ، بل كانت غراساً غريباً يزيد بها بُعداً وانقطاعاً عن أصول « الثقافة المتكاملة » لدار الإسلام في مصر ، ولا تكسيبها قوة ووضوحاً ، بل تكسب أبناءها تنكراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك « الثقافة المتكاملة » التي عاشت بها أمتهم = وكذلك صار أبناءها جزياً جديداً ، مئله وحبه وإكباره للمصدر الذى صدر عنه ما تعلموه ولم يتعلموا غيره ، كما أراد نابليون بمشروعه الذى عهد به إلى خليفته « كليبر » ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) ، وطوره تطويراً كبيراً المسيو جومار (انظر ما سلف : ١٤٠ ، ١٤١) . وتمّ بذلك البلاء الماحق ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

ومضت الأيام والسنون ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزي في ثاني ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، وبطلّ يرسخ قدميه في البلاد ، وبعد قليل رأى « الحزب » الذى أنشأه « الاستشراق » الفرنسى غالباً على جمهور طلبة المدارس ، فبدأ « الاستشراق » الإنجليزي يدمر كل ما أنشأه الفرنسيين من مدارس ويشتها ، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزي في مصر ، رأى « الاستشراق » الإنجليزي أن يبدأ في

تكوين « حزب » قوى يناصره عن طريق التحكُّم في التعليم ، فأُسند أمر التعليم إلى قسيس مُبَشِّرٍ عاتٍ خبيث هو « دنلوب » ، فذعر « الحزب الفرنسى » ، ونشرت جريدة الأهرام التى كان صَغُوها كُلُّه إلى الفرنسيين ، خَبَرَ « دنلوب » بعبارة دالَّة كل الدلالة على هذا التحوُّل العظيم الذى أَفزع حِزْبَ فرنسا ، فنشرت فى عددها المؤرخ ، يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٧ م ما يأتى :

« قُضى الأمر » ، وصدر الأمرُ العالى بتعيين المستر دنلوب سكرتيراً عاماً لنظارة المعارف ، وقد شرعَ المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع اللورد كرومر ، فى هدم الدراسة الثانوية التى هى أعظمُ أركان المعارف .

فانظر إلى قول الأهرام « قُضى الأمر » ، وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرُّعب الدَّال على فزع « الاستشراق الفرنسى » من هذا الحَدَث المؤدِّى إلى القضاء على « حزب فرنسا » الذى أنشأته المدارس القديمة ، وتخوِّفه من هذا « الحزب الإنكليزى » الجديد الذى يتولَّى « الاستشراق الإنكليزى » إنشأه عن طريق المدارس التى سوف يشرف عليها « دنلوب » القسيسُ المبشِّرُ الداهية .

ونقول نحنُ أيضاً : « قُضى الأمر » ، وجاء « الاستشراق الإنكليزى » ليُحدِث فى ثقافة الأمة المصرية صدعاً متفاقماً أخبث وأعتى من الصدُّع الذى أحدثه « الاستشراق الفرنسى » ، ووضع دنلوب أُسس « التفرغ » الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أى تفرغ الطلبة من ماضيها المتدفِّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ومَهَّد إلى ملئه بماضى آخر بائِد فى القِدَم والغموض ، لم يبق من ثقافته شىء البتَّة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغُ بقايا الماضى المتدفِّق الحىِّ الذى يوشك أن يتمزَّق ويختنق بالتفرغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس فى حيرةٍ مدمِّرةٍ بين انتاءين ، بين الانتاء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة فى كتب أسلافهم ، وبين الانتاء إلى الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها ولم يبق

منها إلا أطلال من الحجارة ، مهما بلغت في العظمة والجلال ، فهي فارغة من ثقافة حيّة تتدفق في القلوب والعقول والألسنة ، إنما هي آثار لا تُغني شيئاً ولا تُؤتي ثمرة .

وأيضاً فإن هذا « التفرغ » سوف ينشئ أجيالاً من « تلاميذ المدارس » تهتِك علائقها التي تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً ، حتى يتم تفرغها تفرغاً كاملاً من ماضيهم كُله ، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم ، وإنما هي علوم الغزاة ، وفنون الغزاة ، وآداب الغزاة ، وتاريخ الغزاة ، ولغات الغزاة . ومع كل ذلك ، فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هي قُشور ومقتطفات تُوهم النفوس الظائمة المُفرغة بأنها نالت شيئاً يُذكر ، والحقيقة أنها نالت غذاءً تعيش به مَوْتى في صورة أحياء لا غير .

• وقد قصصْتُ قصّة هذا التفرغ في مقدّمتي لكتابي « المتنبّي » وسميتها « المحنة من فساد حياتنا الأدبية » ، (اقرأ المقدمة : ٢٠ - ٢٩) ، وقد قصصْتُ عليك هنا قصة هذا الفساد العريق من حيث بدأ إلى حيث انتهى . فهذا كُله جواب السؤال الذي بدأت به الفقرة العاشرة (ص : ٢٣) :

« وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولم نشأ الخلاف ، بيني وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ، كانت ولا تزال ، في حياتنا الأدبية ، حتى رفضتها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجج ، منذ بدأت قديماً أحسُّ إحساساً مبهماً أنّ حياتنا الأدبية فاسدة من كلّ وجه ، كما حدّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

ومع طول حديثي هنا ، فإنّي اختصرته اختصاراً أرجو أن يكون غير مُخلّ ، وعسى أن أكون قد أدّيتُ بعضَ أمانةِ القلم وبعضَ أمانةِ العلم ، وأدّيتُ أيضاً ، أيها القارئ ، بعضَ حقِّك علىّ = وعسى أن أكون قد بلغتُ مبلغاً يُرضى الله ورسوله في اتِّباع أمره إذ

قال ﷺ : « أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقِّي إِذَا عَلِمَهُ » ، وهو حديثه ﷺ الذي بدأتُ به هذه الرسالة ، (اقرأ ص : ٥) ، والحمدُ لله وحده ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه وخيرته من خلقه ، وعلى التابعين وتابعيهم ، حَفَظَةَ العلم ، والناطقين بالحق والداعين إليه ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله . اللهم اغفر لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ ، وما أسَرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ ، وما أسْرَفْتُ ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت .

...

ذَيْلُ الرِّسَالَةِ

والآن ، لم يبقَ إلا أن أضَع بين يديك قِصَّةَ « التَّفْرِيعِ الثَّقَافِيِّ » الذى ختمتُ به كلمائى آنفاً فى « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » ، أنقلها من كتاب « المتنبى » ، [ص : ١٩ - ٣٤] ، فى التصدير الذى سَمَّيْتُهُ : « لحظة من فساد حياتنا الأدبية » ، وفيها شهادتان :

شهادتى أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيلُ المدارس المفرَّغ من كُلِّ أصول ثقافة أمته ، وهو الجيلُ الذى تَلَقَّى صَدْمَةَ التَّدهُورِ الأولى ، حيث نشأ فى دَوَامَةٍ من التَّحوُّلِ الاجتماعى والثقافى والسياسى .

وشهادةُ الدكتور طه حسين من مَوْقعِ « الأستاذية » لهذا الجيل .

فاقرأهما بتدبُّرٍ وأناةٍ ، حتَّى تُلَمَّ بأطرافِ البلاءِ الذى حاق بى وبك وبأمتك العربية الإسلامية ، وحتى لا تدخُلَ تحتَ المعنى الذى قاله أبو عبادة البحرى :
وَمِنَ الْعَجَائِبِ ، أَعْيُنٌ مَفْتُوحَةٌ وَعَقُولُهُنَّ تَجُولُ فى الْأَحْلَامِ

= أحلام « النهضة » و « التجديد » و « الأصالة والمعاصرة » و « الثقافة العالمية » ، وأحلامٍ أخرى كثيرة لا تنقضى !! أحلامٌ جعلتْ صَدْمَةَ التَّدهُورِ مستمرةً مُتَمَادِيَةً متفاقمةً إلى هذه الساعة التى تقرأ فيها هذه الرسالة ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

قلتُ : « ومَرَّتْ الأيامُ والليالِ والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهى السنة التى كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى » وهَمَّتْ مصروفُ أكثره إلى « قضية الشعر الجاهلى » ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت بى هذه القضية فى رِحْلة طويلة شاقَّة ، ودخلت بى فى دُرُوبٍ وَغَرَةٍ شائكة ، وكَلَّمَا أوغلتُ

انكشفت عنى غشاوة من العمى ، وأحسست أنى أنا والجيل الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس المصرية ، قد تمّ تفریقنا تفریغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كلّه ، من علومه وآدابه وقنونه . وتمّ أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه ، وصار ما كان فى الماضى متكاملأ متماسكاً ، مِرْقاً متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلّ الفارغ فارغاً أبداً ، فقد تمّ ملء هذا الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتّ إلى هذا الماضى بسبب ، وإنّا لنستقبله استقبال الظّامى المحترق قطرات من الماء الثّمير المثلج .

فى خلال هذه الأعوام ، تبين لى أمر كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصة طويلة قد تعرّضت لأطراف منها فى بعض ما كتبت ، ^(١) ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيننا عندى أننا نعيش فى عالم منقسم انقساماً سافراً : عالم القوة والغنى ، وعالم الضعيف والفقر = أو عالم الغزاة الناهيين ، وعالم المستضعفين المنهيين . كان عالم الغزاة الممثل فى الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحوّلأ اجتماعياً وثقافياً وسياسياً ، فهو صيّد غزير يمدّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلو والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحول عمل سياسى محض ، لا غاية له إلا إخضاع هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تاماً لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفذ ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنّ هذا العمل السياسى المحض المتشعب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كلّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرة على كلّ شىء ، وعلى التعليم

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » .

خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » فى (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمّر الذى لا نزال نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامه إعدادُ أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادةَ هذا التحوّل الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوّل إلى غاية يُرادُ لنا أن نبُلّغها على تمدادى الأيام . وكان الغزاةُ يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكارٍ يردّدونها ترديد الببغاوات ، تتضمّن الإعجاب المزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية ، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكشفوا أمّتهم بأنّ ما أعجبوا به هو سرُّ قوة الغزاة وغلبيتهم ، وأن الذى عندنا هو سرٌّ ضعفنا وانهارنا . وقد وجدتُ ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لا يكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسع انتشاراً . فكان الرأى أن تنشأ أجيال متعاقبة من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحوّل ، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كلّهم ، مع هتك أكثر العلاقات التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعياً وثقافياً ولغوياً ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددٌ من تضمُّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاةُ ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمراً على ما أرادوا ! بل زاد بشاعة وعمقاً فى سائر أنحاء العالم العربى والإسلامى بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاجُ إلى ملء بماضٍ آخر يغطّى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائد مُعْرِق فى القَدَم والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفّق الحى الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصل .

في ظلِّ هذا التفرُّغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة التي تخرج مفرَّعةً أو شبه مفرَّعة إلى « البعثات » ، وهذا التحوُّل الاجتماعي والثقافي والسياسي المضطرب ، وهذا التغليب المتعمَّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل في النفوس من ثقافة ماضية حيَّة حياة ما ، وباقيَّة على تماسكها وتكاملها = في ظل هذا كُلِّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقوم على أصل واحد في جوهره ، هو ملء الفراغ بما يناسب آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعض هذا الفراغ ، فهي تحدث في النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أيُّ شأنٍ ، يعتمد اعتماداً واضحاً على المسرح الأوربيِّ في تكوينه كُلِّه . وأيسر سبيل كان إلى إمداده بمادته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربيِّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينها بألفاظ عربيَّة ، أو عامية على الأصح ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمُّون هذا حياءً ومكرًا : « التمسير » !! بيد أنه عبثٌ مجرَّد ، وسطوٌ لا رقيب عليه . أمَّا الكتابُ الجادُّون ، فكان أكثرهم يعتمد على تلخيص نتائج الفكر الأوربيِّ في الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً ماً ، وإن كان أكثره خطفاً وسطوياً ينسبه الكاتب إلى نفسه بلا رقيب ولا محاسب .

والقِصَّةُ أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوَّر فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرَقَّع بأفكارٍ مسلوخة مختطفة ، ثم توزَّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو والانتهاك والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمراً بقوة إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللجاجة في الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفة لا غبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمة مغرية قبلها النفوس بلا ممانعة ، وهي قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! ^(١) والنظر في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين : ميل ظاهري إلى

(١) في السنوات الأخيرة ، وُجِدَت ألفاظٌ جديدة محفوفة بالغموض ، مؤسسة على الثرثرة ، من مثل قولهم : « المعاصرة » و « الحداثة » و « التحديث » .

رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرفض مُلمّاً إماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميل سافر إلى الغلو في شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبه متميّزاً في نفسه تميّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافة متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميّزه أن الله قد يسّر له الاطلاع على آداب وفنون وأفكار تعب أصحابها في الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه تخطوط من صورة ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية في ذلك العهد ، وأكثرها باق إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاح له .

ولكن هذه الصورة لا تتمّ وحدها . في خلال التحوّل الاجتماعي الثقافي المتصاعد المتكاثّر ، كان هناك جانبٌ راكمٌ محتقّق ، لم يفرّغ هذا التفرغ ، ولكن ضُربَ عليه حصارٌ مفرّغٌ وبيلٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضي المتكامل المتماثل ، ولكنه كان يزدادُ على مرّ الأيام تَحَلُّلاً وتَفَكُّكاً وحيرةً وانطواءً . يمثل هذا الجانب جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبر همّ هذا الجانب ، في هذا اليمّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضي محافظةً ما ، ولكن قبضته كانت تسترخي شيئاً فشيئاً تحت الحصار ، وتحت القذائف المدمّرة التي يُرمى بها ، والتي تزلزل نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفتح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخل عليه نفس العوامل التي أدّت إلى تفرغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى تهتك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبية الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كان ، واحتاج شقّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة ، والذي يُهمّنى منها هنا هو ما يتعلّق بأمر « السطو » لا غير . كان الذي يحول بينهم وبين بلوغ

هذا الغرضى ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهم لسان غير العربية ، قلما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، فى مصر خاصة ، إلى إجابة باب يتيح لهم أن يطالعوا = أو يصدّموا على الأقل ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأى فى آداب العربية وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها أيضاً !! كان هذا موفوراً فى مؤلفات « المستشرقين » عامّة ، لأنّه هو كلّ عملهم فى « الاستشراق » المرتبط كلّ الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كلّها . (١) فكان لا بدّ ، إذن ، من نشر هذه الأفكار على نطاق واسع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجال كثيرون فى مصر والشام وغيرهما ، لا يربطهم فى أنفسهم بهذا الماضى إلا اللسان العربى وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشىء آخر . فكتبوا مقالات ونشروا كتباً فى آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلة معرفتهم بها معرفة تتيح لهم الكتابة ، ولكنها كانت معبّرة عن اتجاه « الاستشراق » لا غير .

فكانت كلّها « سطوا » مجرداً على آراء المستشرقين ومناهجهم فى النظر ، مبنوثة فى ثنائى كلّ ما يكتبون . وكذلك تيسّر لكل من لا يعرف غير العربية لساناً ، أن يجدّ ، على مدّ يده ، شيئاً « جديداً » يقال عن ماضيه ، وبمناهج لم يألفها أيضاً . ولكنّ حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عامّاً مؤثراً تأثيراً نافذاً فى جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أنهم رجال وفدوا إلى مصر مع استقرار الاحتلال الإنجليزى فيها (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشبهة فيهم تُوجب الحذر منهم ، فأضعف الحذر أثر ما يكتبون فى أكثر القراء من هذا الجمهور ، وإن كان لهم فى جمهور « تلاميذ المدارس » المقرّعين من ماضيمهم أثر بليغ . ومع ذلك ، فإن الهدف لم يذهب هدرأ ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسّر

(١) استوفيت بيان بعض هذا فى كتابى (أباطيل وأسمار) .

السبيل للساطين، وجعل « السطو » المباشر أمراً مألوفاً لا غبار عليه ، بل زاد فقرب إلى الأذهان سبيل الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره في الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » في دراسة آداب أمة ما وفي دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولّى صياغتها مَنْ هو لصيقٌ دَخيل عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلّمه على كِبَرٍ ، فهو لا يعلم منه إلا أقلّ القليل ، ومَنْ هو نائبٌ في لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوقِ آدابها تذوقاً شاملاً = والتذوق وحدة عُقدة العُقد = ومَنْ هو مسلوبٌ كُلُّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه ، فضلاً عما يكتنه في سريره من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجدّدة في تشويه صورتها تشويهاً متعمداً لأغراض « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أم أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنى ، إلا أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة في أنفُس أهلها = ثم لا يأتي التجديد إلا من متمكّن النشأة في ثقافته ، متمكّن في لسانه ولغته ، متذوّق لما هو ناشئ فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ تاريخه في تاريخها وفي عقائدها ، في زمانٍ قوتها وضعفها ، ومع المتحدّر إليه من خيرها وشرّها ، مُحسّناً بذلك كُلِّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديد » تجديدًا إلا من جِوَارٍ ذكّي بين التفاصيل الكثيرة المتشابهة المعقّدة التي تنطوي عليها هذه الثقافة ، وبين رؤيةٍ جديده نافذة ، حين يلوح للمجدّد طريقٌ آخرٌ يمكنُ سلوكه ، من خلاله يستطيع أن يقطعَ تشابكاً من ناحية ، ليصله من ناحية أخرى وصلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلّ عُقدة من طَرَفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوّةً ومتانةً وسلاسةً .

فالتجديد إذن حركةٌ دائبةٌ في داخل ثقافة متكاملة ، يتولّاها الذين يتحركون في داخلها كاملةً حركةً دائبةً ، عِمَادُهَا الخِبرَةُ والتذوّق والإحساسُ المرهفُ بالخطر ، عند الإقدام على القُطْعِ والوَصْلِ ، وعند التهجّم على الحُلِّ والرِّبْطِ . فإذا فُقدَ هذا كُلُّهُ ، كان القُطْعُ والحُلُّ سلاحاً قاتلاً مدمراً للأمة وثقافتها ، وينتهى الأمرُ بأجياها إلى الخِيرةِ والتفكُّكِ والضَّياعِ ، إذ يورثُ كُلُّ جيلٍ منها جيلاً بعده ، ما يكون به أشدَّ منه خِيرةً وتفكُّكاً وضِيعاً .

هذه هي العاقبة التي تفرضُ نفسها فرضاً ، وما أبشعُها من عاقبة .

فما ظنُّكَ إذن بالعاقبة ، إذا كان القُطْعُ والحُلُّ مُراداً لذاته ، وكان مُراداً أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ في داخل التكامل والتماسك الذي يجعل لهذه الثقافة معنىً وحياةً وحركةً ؟ = وما ظنُّكَ بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكارُ « المجدّدة » إلّا ترديداً لصياغة غريبة ، صاغها غريبٌ عن الثقافة ، منتسبٌ إلى ثقافة غازية مُبائية ، وهو مع ذلك ناقصُ الأداة ، لا خبرةَ له بتشابكها وعُقدها ، ثم هو في نفسه لا يضمّر لها إلّا التدمير والاستهانة ، لغرض راسخ في قرارة النفس ؟ = ثم ما ظنُّكَ أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيدُ على أن يكون « سَطْواً » مجرداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامها إقحاماً على ثقافتهم ، لا حاجة أدّى إليها النظر والفكر والتدبُّر ، بل بالهوى وحبّ الظهور من مُفَرَّغٍ ، أو من شبيهٍ بالمفَرَّغِ ، من ثقافته المتكاملة المتماسكة ؟ ما أبشعُ العواقبَ عندئذٍ ، وأبشعُها التَّدَهُورُ المستمرُّ !

وكذلك كان مقدّراً لجيلنا نحن ، جيل المدارس المفَرَّغِ ، أن يتلقّى صدمة التدهور الأولى ، لأنّه نشأ في دَوّامةٍ دائرةٍ من التحوّل الاجتماعي والثقافي والسياسي . جئنا في أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهي التي يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من قُوَرهم في تقسيم عالمتنا وتبديده ، وأخذ كلُّ مستعمر منهم يشدّد قبضته على ما وقع في يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفع هذا التحوّل دفعاً شديداً ، لكي يتمّ له أن يُخَضِّعَ عالمتنا « المتخلف »

لحاجات عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، في مصر ، مع الرِّجّة العظمى التي أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتي انتهت بعد قليل بفجعية مرّقت الأمة تمزيقاً مفرعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب ، وتكالب كلّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضّرة !! وتبدّدت نفوسنا وتفتّتت ، تحت ضغط هذا التحوّل السريع المتّماذى المريب المروّع .

وفي ظلّ هذا كلّه ، كما قلّت ، انتعشت الحركة الأدبيّة والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ^(١) وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمّتهم غير ممزّقة كلّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرّغ ، فقد تمزّقت علائقنا بها كلّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذة ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذي ينبغي له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب في متابعته ، ومن إعادة النظر في ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غير مفهوم البتة ، فهو يمرّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذي أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذي تتضمّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرّفص الخفّي للثقافة التي كان ينبغي أن ننتمي إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التي أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكي نلحق بثقافة العصر الذي نعيش فيه ، وبمناهجها في التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك في خلال ما يكتبونه !! وغابَ عن الأساتذة الكبار أن الزّمن الدوّار الذي يُشيبُ الصغير ويُفنى الكبير ، هو الذي سيتولّى الفصلَ بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلّمون اليوم على أيديهم .

والقصّة تطوّل ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قصّها على وجهها ، إذا أنا أردتُ أن أقيّد ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك

(١) انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، ١٥٤

إلى يومنا هذا أفضاً . وىكفى أن أقول : إن جيلنا ، جيل المدارس المفرغ ، كان فى خلال ذلك قد كبر ، وانفلق عن فريقيين : فريق قانع بما تجود به عليه أعلام الأساتذة الكبار من « تلخيصى » و « تجديد » ، فهو لا يزال إلهم متطلّعاً ، وبهم متعلقاً ، ثم لا يزيد = وفريق يسر الله له السبيل إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطلع على أصول ما كانوا يلخصونه ، وما كانوا « يجددون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصح . وأحسن أيضاً أن « الأصل » الذى يقرؤه بلغته ، مضىء حتى ، مكثف ، عميق الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كاب لونه خامدة حياته ، متخلخل ، قريب المتناول .

ومع هذا الذى أحس به ، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوق هؤلاء الأساتذة الملخصين المجددين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسير هين . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانت علائق لم تمزق كل التزريق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يغطوا تلخيصهم نفحة من سر أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدر منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكنهم من الاختيار ، ثم من نفي ما هو غث أو ساقط ، ومن إخفاء « السطو » إخفاء فيه ذرو من المعرفة . أمّا هم ، فقد فرغوا تفرغاً يكاد يكون تاماً من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسون فى أنفسهم ما يشبه العجز ، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة .

وهذا هو الموقف العصبى الذى كان فيه جيلنا يومئذ ، ثم استمرت عليه الأجيال بعدنا ، وهى تشعر شعوراً واضحاً بتفوق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخصين » و « المجددين » مع أن الأمر ، كما قلت ، قائم فى الحقيقة على « السطو » البين أو الخفى ، على أعمال ناس آخرين يكتبون فى لغاتهم بألسنتهم ، ويعبرون عن أنفسهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسهم أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحن ! ومع ذلك فإن جيلنا والأجيال التى تابعت بعده ، لم تُرد

أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئاً آخر سوى منهج « التلخيص » و « التجديد » ، على السّنة التي سنّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهم شيء يقولونه ، حين يرثون موقع الصدارة للتعليم والثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التي أشرت إليها آنفاً ، وتكاثموا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمر بعد ذلك كما قيل في المثل : « خلا لك الجو فيبضى وأصفرى » !!

...

ومع ذلك ، فأنا أحب أن أقرّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التي صورتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصورتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد في سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلوم أن الدكتور طه في سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « في الشعر الجاهلي » ، زعم أن له منهجاً يدرس به تراث العرب كلّهُ ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشك » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقلب العلم القديم رأساً على عقب . وأخشى إن لم يمنح أكثره ، أن يححو منه شيئاً كثيراً » [في الشعر الجاهل ص : ٣] . ثم انطلق في كتابه هذا مستخفاً بكلّ شيء ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملائمة لهذا المذهب الذى يذهبُه المجددون عظيمة جليّة الخطر ... وحسبك أنّهم يشكّون فيما كان الناس يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حقّ لا شك فيه . وليس حظّ هذا المذهب منتهاً إلى هذا الحدّ ، بل هو يجاوزهُ إلى حدود أخرى أبعد منه مدًى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » : [في الشعر الجاهل : ٦] .

والاستخفافُ الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروفٌ ، أمّا الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافُه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحضِ بأقوال السلف . وأمّا الذى كان يدورُ بين طلبته الصغار « المفرِّغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكان شيئاً لا يكادُ يُوصفُ ، لأنّه كان استخفافٌ جاهلٍ واستهزاءٌ خاوٍ ، يردُّ ما يقوله الدكتور ، لا يعصمه ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيام ، كانت العاقبة وخيمةً جدًّا . كَبُرَ الصُّغَارُ الذين تأثَّروا بما قاله فى سنة ١٩٢٦ ، فقد فَطَمَتَهُمُ السَّنُ ، وَفَطَمَتَهُمُ معرفةٌ جديدةٌ حازوها ، وتَنَكَّرُوا ، أو كادوا ، لِلَّذِي الذى كان يُرْضِعُهُمْ . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحمية وطلبُ الصِّدَارَةِ فى ميدان « التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنَّهم جاؤوا يراحمون الأساتذة الكبارَ فى مواقع الأستاذية . وساروا على نفس التَّهَجِّجِ الذى مَهَّدُوهُ لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أى الحضارة الأوربية = والذى هو فى حقيقته سطوٌّ مجردٌ ، ولكنَّهم لم يسيروا سيرة الأساتذة فى معالجة « القديم » حتَّى يُحَيِّلَ للناس أنه إحياءٌ للقديم وتجديدٌ له ، بل كانَ الغالبُ على أكثرهم هو « رفض القديم » والإعراض عنه والانتقاص له والاستخفافُ به . وعندئذ أحسَّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذى أضاع لهم الطريق بالضجَّة التى أحدثها كتابه « فى الشعر الجاهلى » !!

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذى تولَّى هو كَبُرَ إحداثه ، ظاهراً جدًّا ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « فى الشعر الجاهلى » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكان مُحَصِّلُها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوَّل فى سنة ١٩٢٦ ، الذى أعلنه فى أوَّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما تُسمِّيه شعراً جاهلياً ، ليست من الجاهلية فى شيء ، وإنما هى مُتَنَحِّلَةٌ مُتَحَلِّقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثِّل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ، أكثر مما تمثِّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الشعر

الجاهليّ الصحيح قليل جدًّا ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلّ على شيء » ، [في الشعر الجاهلي ص : ٧] . (١)

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، (٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقّقون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحّون علينا فيه ، وتعييبونا بالإعراض عنه ، والتقصير في درسه وحفظه وتدوّقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً وتلغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن في القرن الأوّل قبل الهجرة أو بعدها » إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بآراء من يُحيطون به من جيلنا الذي بلغ الفِطَام واستقلّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدّث إلى المتحدّثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرّون ، ويظهر أنهم سيكثرّون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !
وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظي ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

« والذين يظنّون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا
« خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شراً غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمودٍ
« وجهل ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً .

(١) قد بينت في بعض مقالاتي أن الدكتور طه ، قد رجّع عن أقواله التي قالها في الشعر الجاهلي ، بهذا الذي كتبه ، وبعض ما صار حتى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يترأّ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطّون في العلن ، ويتبرأون من خطّهم في السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأوّل (من ص ٩ - ١٧) .

« هذا الشاب ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربة
يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسن الرطانة بإحدى اللغات
الأجنبية ... يجلسُ إليك وإلى غيرك . منتفخاً منتفشاً ،
مؤمناً بنفسه ويدرجاته ويعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
ثم يتحدثُ إليك كأنه ينطق بوحى أبولون . فيعلنُ إليك
فى حَزْمٍ وحَزْمٍ أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس
قد أَظْلَهُمْ عصر « التجديد » وأنَّ الأدب القديم يجبُ
أن يُترك للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ ، ويملاؤن
أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
وأن الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
أمام هو التطور ، وهو الحياة وهو الرقى . هذا الشاب
وأمثاله ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر
القديم ولا تنفِرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنما تحبّه وترغبُ
فيه وتَحُثُّ عليه ، لأنها تقوم على أساس منه متين
« هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة ،
أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشُرّه ليس مقصوراً
عليه ، وإنما يتجاوزُه إلى غيره من الناس . فهو يتحدثُ ،
وهو يعلمُ ، وهو يكتبُ ، وهو فى هذا كُلّه ينفثُ السُّمَّ ،
ويفسد العقول ، ويمسحُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إماتة القديم ،
وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلحُ منه للبقاء .
« وأكادُ أَتخذ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه فى

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
« ينتفعوا بها ، فالذين تُلهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
« حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
« ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا
« منها صُوراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القردة ،
« لا أكثر ولا أقل !!

« والذين تُلَفَّتْهم الحضارة الحديثة إلى أنفسهم ، وتدفعهم
« إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن لا حياة لمصر
« إلا إذا عُنيَتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى ،
« وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عناية بما يمُسُّ حياتها
« اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم
« الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
« ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين .

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنوا لمن بعدهم السُنن فى
الحياة الأدبية وفى مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّة جدّاً لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدّت
بعدهم إلى يومنا هذا ، بل هى تكشف عن جُذور التدمير المفزع الذى يشمل اليوم
المُجتمع العربى كلّهُ حيث تُنطقُ العربية ،^(١) لا بل حيث يدينُ غيرُ العرب بالإسلام ،
ويُوجب عليهم إسلامهم أن يضعوا العربية فى المقام الأوّل ، لأن إسلامهم لا يكون إسلاماً

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفزع الذى يشترك فى جريمته مثقفون كثيرون ، فى الأدب ، وفى
العلم ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى السياسة ، وفى الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى
وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « يفت السّم ويفسد العقول ويمسّخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصرأ على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت
دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

إِلَّا بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِمْ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، وَإِلَّا بِسُنَّةِ الرَّسُولِ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ ، ﷺ ، وَهِيَ أَيْضاً بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .

وليس من همّي هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضّح مدى صدقها حيث صدق توقُّع الدكتور في تكاثر عدد مَنْ وَصَفَهُمْ من « المثقفين » في شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين في زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكن الذي يجب عليّ أن أقوله : إن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هي وجهٌ آخر لشهادتي التي كتبْتُها هنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقلتها أنا من موقعي بين أفراد جيلي الذي أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرَّغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذي تلقَّى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ في دوامة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي ، كما أشرت إليه آنفاً [ص : ١٦١] .

...

ثم قلت في ختام ما سميته « لحظة من فساد حياتنا الأدبية » [كتاب المتنبي : ١٢٢ ،

١٢٣] .

أما الآن ، فإني أتلفت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أُشْفِق من مَعْبَةِ السُّنَنِ التي سَنَّها لنا الأساتذة الكبار ، كسَنَةِ « تلخيص » أفكارِ عالمٍ آخر ، ويقضى أحدُهم عمره كله في هذا التلخيص ، دون أن يشعر بأنه أمرٌ مخفوفٌ بالأخطارِ ، ودون أن يستنكف أن ينسبَهُ إلى نفسه نسبةً تجعله عند الناس كاتباً ومؤلفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريمة . ومع ذلك فهو أهونُ من « السطو » المجرَّد ، حين يعمد الساطي إلى ما سطا عليه ، فيأخذه فيمزقه ثم يفرِّقه ويُغرقه في ثرثرة طاغية ، ليخفي معالمَ ما سطا عليه ، وليُصبح عند الناس صاحبَ فكر ورأى ومذهبٍ يُعرفُ به ، ويُنسَبُ كُلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أهونُ من « الاستخفاف » بتراثٍ متكاملٍ بلا سببٍ ، وبلا بحثٍ ، وبلا نظرٍ ، ثم دعوة من يَعْلَمُونَ عِلْماً جازماً أنه غير

مطيق لما أطاقوا ، إلى الاستخفافِ به كما استخفُّوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهون مما فعلوه وسنَّوه من سنَّة « الإرهاب الثقافى » الذى جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلف » و « التقدُّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضى » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلهِيةً ، بعضها سياطٌ حثِّ وتخويف لمن أطاع وأئى ، وبعضها سياطٌ عذابٍ لمن خالف وأبى .

أُتِّلِفَتْ اليوم إلى ما أشفقتُ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ! لقد ذهبوا بعد أن تركوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدوا ، حياةً أدبيَّة وثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجددت الأساليب وتنوَّعت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقاً عليه طيلسانُ « البحث العلمى » و « عالمية الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصوله إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كُلِّ قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، قُلْ ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنه صادقٌ صِدْقاً لا يتخلف . فالأديب منّا مصوِّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف منّا مفكِّرٌ بعقل سواه ، والمؤرِّخ منّا ناقدٌ للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنَّان منّا نابضٌ قلبه بنبضٍ أجنبيٍّ عن تراثِ فنِّه .

وأما الثَّروة والاستخفافُ ، فحدِّث ولا حرج ، فالصَّبِيُّ الكبير يهزأ مزهواً بالخليل وسيبويه وفلان وفلان ، ولو بُعِثَ أحدهم من مَرَقَدِهِ ، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلَّم ، لألجمه العرقُ ، ولصارَ لسائه مُضغَّةً لا تتلججُ بين فكَّيه ، من الهَيْبَةِ وحدها ، لا من علمه الذى يستخفُّ به ويهزأ .

والله المستعانُ على كُلِّ بليَّةٍ ، وهو المسئولُ أن يكشفَها ، وهو كاشفُها بمشيئته ، رَحمةً بأمةٍ مسكينة ، هؤلاء ذُنُوبُها كانوا ، وأشباهُ لهم سبقوا ، وغفرائك اللهم .

أبوه
محمود محمد شاكر

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

الفهارس

صنعها

الأستاذ/ أحمد الشريف

رئيس المجلس المحلى بأسوان

١ - الحديث النبوى الشريف

« ألا لا يمنع رجلا هيبة الناس » ١٥٠ ، ٥٥

« من سئل عن علم فكتمه » ٨٤ ، ١٢٢

• • •

٢ - الأمثال العربية

« اتخذ الليل جملاً » ٩٤

« التقت حلقتا البطان » ٣٨ ، ٥٣

« بلغ السيل الزبى » ٨١

« لليدين وللقم » ٩٤

« مِثْلُ نَجْلَةِ الْقَسَمِ » ٧٩

• • •

٣ - الأمثال العامة

« مَا أَسْخَمَ مِنْ سَيْتَى إِلَّا سِيدَى » ١١١

• • •

٤ - الشعر

- | | | |
|-----|---|------------------------|
| (١) | خرجتُ مع البازى على سوادُ | بشار : ٩٤ |
| (٢) | متطلبٌ فى الماء جذوة نار | أبو الحسن التهامى : ٦٨ |
| (٣) | وفى الصدر خَزَّاز من الوجد | |
| | حامز | للشماخ : ١٩ |
| (٤) | أَمْ كَانَ شَيْئًا كَانَ ثُمَّ انْقَضَى ؟ | للعرجى : ٢٥ |
| (٥) | أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فَيَمْنُ شَحْمُهُ | |
| | وَرَمَ | المتنبى : ٢٨ |
| (٦) | لَعَلَّ لَهُ عَذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ | : ٩٨ ، ١٠٤ |
| (٧) | مَفْتَحُهُ عُيُونُهُمْ نِيَامُ | المتنبى : ١٢٠ |

- (٨) وعقولهن تجول في الأحلام البحتري : ١٥١
 (٩) هَوُوا ، وما عَرَفُوا الدُّنْيَا
 وما فَطَنُوا المتنبي : ٢٩
 (١٠) حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن : ٢٨

° ° °

٥ - الكتب

- أباطيل وأسمار لأبي فهد : ٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٤٤
 أنوار الجليل في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل للطهطاوى : ١٤٤
 الإيضاح لأبي على الفارسي : ١١
 البردة للبوصيري : ١٢٥
 برنامج طبقات فحول الشعراء لأبي فهد : ١٨ ، ٦٧ ، ٧١
 تاج العروس للزبيدي : ٨٢
 تاريخ الجبرتي : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٣
 تاريخ الحركة القومية للرافعي : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
 ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 تفسير القرآن الكريم للطبري : ١٩
 جمهرة نسب قريش لابن بكار : ١٩
 حديث الأربعاء لطفه حسين : ١٦٣
 خزانة الأدب للبغدادي : ٨٢
 دراسات عربية وإسلامية : ٢٠
 دلائل الإعجاز للجرجاني : ٩
 الرسالة الشافية للجرجاني : ٨ ، ٩
 رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ١٥١
 سنن الترمذي : ٥
 سنن أبي داود : ٨٤
 سنن ابن ماجه : ٥
 الشفاء للقاضي عياض : ١٢٥
 طبقات فحول الشعراء لابن سلام بشرح أبي فهد : ١٩

- فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض : ١٠٥ ، ١٠٩
- في الشعر الجاهلي لطف حسين : ٣٠
- القرآن الكريم : ٩ ، ١٠ ، ٣٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٢
- القصص العذراء شعر أبي فهد : ١٩
- القصص العذراء وقراءة التراث للدكتور محمد أبو موسى : ٢٠
- الكتاب لسيويه : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤
- المتنبي لأبي فهد : ٥ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٤٩
- المتنبي : ليتني ما عرفته لأبي فهد : ٧
- المسند لابن حنبل ، بتحقيق أخى أحمد محمد شاكر : ٥ ، ٨٤
- المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم لإدوار وليم لين : ١٣٣
- المغنى للبرجاني : ١١
- المقتصد للبرجاني : ١١
- ودخلت الخيل الأزهر لمحمد جلال كشك : ٩١ ، ١٣٣
- وصف مصر : ٩٧

• • •

٦ - الصحف والمجلات

- الأهرام : ٩١ ، ١٤٨
- الثقافة : ٧
- جريدة الجهاد : ١٦٢
- الكتاب : ٢٠
- المقتطف : ١٦
- الهلال : ٨١

• • •

٧ - الأعلام

- آدم (عليه السلام) : ٧ ، ٢٦
الآمدى : ٢٥
(إبراهيم عليه السلام) : ٥
إبراهيم بن محمد على (الخديوى) : ١٣٨
إبراهيم النخعى : ٢٤
إبليس : ٩٠
إحسان عباس : ٢٠
أحمد حافظ عوض : ١٠٥ ، ١٠٨ ،
١٠٩ ، ١١١
أحمد بن حنبل : ٥ ، ٢٤ ، ٨٤
أحمد محمد شاكر : ٨٤
إسماعيل (عليه السلام) : ٥
إسماعيل خديوى مصر : ١٥٢
الأشعرى (أبوالحسن) : ٢٥
الألفى (محمد بك) : ١٢٧ ، ١٣٣
الأوزاعى : ٢٤
البخارى : ٢٤
بشار بن برد : ٩٤
البغدادى (عبدالقادر) : ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٨
٩٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٥
أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) : ٣٣
البكرى (الشيخ) : ١٢٧ ، ١٢٩
البيرونى : ٢٥
بيكن (روجر) : ٣٩ ، ٥٥
تاليران : ١١٦ ، ١٢٣
الترمذى : ٥ ، ٨٤
توفيق بن إسماعيل : ١٤٤
توما الأكوينى : ٤٠ ، ٥٥
ابن تيمية : ٢٥
الجاحظ : ٢٥
الشيخ الجارم : ٩٥
الجبرى الكبير (حسن بن إبراهيم) : ٨٢
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ،
٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٤٥
الجبرى : (المؤرخ : عبدالرحمن) : ٨٣ ،
٨٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١
الجداوى : ١٢٦
الجرجاني (عبدالقاهر) : ٩ ، ١٠ ، ١١
١٣ ، ١٤ ، ٢٥
أبو جعفر الطحاوى : ٢٤
جنكيز خان : ١٠٠ ، ١١٩
جومار (المسيو آدم فرانسوا) : ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧
ابن حزم : ٢٥
الحسن البصرى : ٩ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٨٠

أبو حنيفة الإمام : ٢٤

الزبير بن بكار : ١٩

زكى نجيب محمود (الدكتور) : ٢٠ ، ٩١

٩٢ ، ١١٩

الزهرى (انظر : ابن شهاب الزهرى) :

زيد بن ثابت (رضى الله عنه) : ٣٣

الخليل بن أحمد الفراهيدى : ١٤ ، ٢٤

أبو داود : ٨٤

الدمهورى (الشيخ مصطفى) : ١٣٥

دنبوب : ١٤٨ ، ١٥٣

الدواخلى (الشيخ محمد) : ١٣٠

دى توت (البارون) : ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦

السادات (الشيخ) : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠

سان بريست (الكونت) : ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٥

السرسى (الشيخ موسى) : ١٣٠

سعيد الأفغانى : ١٧

أبو سعيد الخدرى : ٥

أبو سعيد السيرافى : ١١

سعيد بن المسيب : ٢٤

سفيان الثورى : ٢٤

ابن سلام الجمحى : ١٩ ، ٢٥

سليمان الحلبي : ٩٤

سيويه : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٥

ابن سينا : ٢٥ ، ٤٠

السيرافى (انظر : أبو سعيد)

سيف الدولة : ٣٩

السيوطى : ٢٥

دى ساسى (البارون سلفستر) : ١٤٣

دى شوازل (الدوق) : ١١٤ ، ١١٦

ديكارت (رينيه) : ٢٩

الرافعى : (عبدالرحمن) : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١

١٢٤ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥

الرافعى (مصطفى صادق) : ١٧

روسو (جان جاك) : ١٤٤

ابن رشد الفقيه : ٢٥

ابن رشد الفيلسوف : ٢٥ ، ٤٠

رفاعة الطهطاوى : ٩٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧

زاينشك (الجنرال) : ١٢٠

زيدة (بنت السيد البواب) : ٩٥

الزبيدى (المرتضى) : ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٨

١١٩ ، ١٤٥

الشافعى : ٢٤

الشراخيتى (الشيخ يوسف) : ١٣٠

الشرقاوى (الشيخ عبد الله) : ١٢٧ ، ١٢٩

العفيفي (الشيخ عبدالباق بن عبد الوهاب):

١٨٥ ، ١٢٦

العقاد (عباس محمود) : ١٧

أبوعلی الفارسی : ١١ ، ١٣ ، ١٧

علی بن أی طالب (رضی الله عنه) :

٢٤ ، ١٤ ، ٩

علی عبدالرازق : ١٧

علی بن نصر الجهضمی : ١٤

عمر بن الخطاب (رضی الله عنه) :

٣٣ ، ٢٤

عمر مکرم (السید نقیب الأشراف) :

١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤

١٣٧ ، ١٣٦

أبو عمر بن العلاء : ٢٤

عمرو بن العاص (رضی الله عنه) :

١٣٠

عيسى بن مريم (عليه السلام) : ٤٨ ،

١٩٤ ، ١٢١

فانتور (= فتتورة) : ٩٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٤٠

الفراء : ٢٥

قولنیر : ١٤٤

الفيومي (الشيخ سليمان) : ١٣٠

قتادة السدوسي : ٢٤

ابن قتيبة : ٢٥

ابن قيم الجوزية : ٢٥

الشعبي : ٢٤

الشناخ : ١٩ ، ٢٠

ابن شهاب الزهري : ٢٤

الشوكاني : ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٧

الشياني (محمد بن الحسن) : ٢٤

الصاوي (الشيخ مصطفى) : ١٢٩

صبيح (الطواشي) : ١١٣

صروف (فؤاد) : ١٧

الصعيدى العدوى : ١٢٦

الطبري (أبو جعفر) : ١٩ ، ٢٤

طه حسين : ١٧ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣

الطهطاوى (رفاعة رافع)

عادل الغضبان : ٢٠

ابن عبد البر : ٢٥

القاضي عبد الجبار المعتزلى : ٢٥

عبدالله بن عباس (رضی الله عنه) :

٢٤

عبدالله بن عمر بن الخطاب : ٢٤

عبدالله بن مسعود : ٢٤

العثيمين (الدكتور عبدالرحمن بن سليمان)

١١

العرجي : ٢٥

العريشي (الشيخ عبدالرحمن) : ١٢٦ ،

١٢٩

عزام (الدكتور عبدالوهاب) : ١٧

محمد (عليه السلام) : ٥ ، ٩ ، ٣٣ ،

٥٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ،

١٠٥ ، ١٣٢ ، ١٥٠

محمد بن عبد الوهاب : ٨٢ ، ٨٨ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٧

محمد أبو موسى (الدكتور) : ٢٠

محمد الأمير (الشيخ) : ١٢٧ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣٤

محمد خلف الله أحمد : ٩

محمد زغلول سلام : ١٠

محمد علي (سرشمه) (والى مصر) :

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦

محمد الفاتح : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٨٠ ،

السيد محمد البواب : ٩٥

محمد مصطفى هدارة (الدكتور) :

٢٠

محمد هاشم عطية : ١٧

مسلم (الإمام) : ٢٤

مصطفى عبد الرازق : ١٧

مكيافل (نيكولسو) : ٤٣ ، ٧٨

مور (المسيو) : ١١٥

مومى (عليه السلام) : ٤٨ ، ١٢١

مونتسكيو : ١٤٤

مينو (الجنرال) : ٩٥ ، ٩٦

نابليون (بونابرت) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

كرومر (اللورد) : ١٤٨

كشك (محمد جلال) : ٩١ ، ١٣٣

كلايف (روبرت) : ٨٨

كلفن (جون) : ٤٣

كليبر (الجنرال) : ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧

كوليس (كريستوفر) : ٥٢

لوثر (مترين) : ٤٣

لويس التاسع : ١١٣

لويس الرابع عشر : ١١٣ ، ١٢٣

لويس الخامس عشر : ١١٤

لويس السادس عشر : ١١٤ ، ١١٥

ليبنتز (الفيلسوف) : ١١٣ ، ١١٤ ،

١١٦ ، ١٢٣

الليث بن سعد : ٢٤

لين (ادوار وليم) : ١٣٢ ، ١٣٣

ابن ماجه : ٥

مارسل : ١٣٤

مالك بن أنس : ٢٤

الميرد (أبو العباس) : ٢٥

المتنبي (أبو الطيب) : ١٧ ، ٢١ ، ٢٨

٢٩ ، ١٢٠

مجالون (المسيو شارل) : ١١٥ ،

١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣

	١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
أبو هريرة (رضى الله عنه) : ٨٤	١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
يحيى بن معين : ٢٤	١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،
المعلم يعقوب : ١٣٣	١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
أبو يوسف : ٢٤	١٤٧
يوسف بك (المملوك) : ١٢٦	نصر بن على بن نصر الجهضمي : ١٤

• • •

٨ - المعالم والمؤسسات

الأزهر الشريف (الجامع ، والحقى) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٥

الجامع العتيق بالفسطاط (جامع عمرو) : ٨٩ ، ٩٦

جيش الأقباط : ١٣٣

دار العلوم : ١٥٥

دار المعارف : ٩ ، ٢٠

الديوان : ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤

شركة الهند الشرقية البريطانية : ٨٨ ، ١٠١

شركة الهند الشرقية الفرنسية : ٨٨ ، ١٠١

كرسى البابا : ١٣٢

كنيسة أيا صوفيا : ٤١ ، ٤٢

الكنيسة القبطية المصرية : ١٣٢ ، ١٣٣

الماجنا كارتا : ١٢٨

مدارس الجاليات الأجنبية : ١٥٣

المسرح : ١٥٤

المجمع العلمى الفرنسى : ١٤٠

مدرسة الألسن : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧

نظارة المعارف العمومية : ١٤٨

...

٩ - المواضع والبلدان

- الآستانة : ١١٤ ، ١١٥
 آسية : ٣٦ ، ٤٦
 أرض الهنود الحمر (= أمريكا) : ٥٢ ، ٥٥
 الاسكندرية : ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٨
 ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٤
 إفريقية : ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٣
 ١٠١ ، ١٢١
 أمريكا (انظر : أرض الهنود الحمر)
 إنجلترا (انظر : بريطانيا) :
 الأندلس : ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٨٠
 أوربة : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
 ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٧
 ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٤١
 ١٤٥
 باريس : ١١٣ ، ١٤٣ ، ١٤٥
 البرلس : ١٠٨
 بريطانيا (إنجلترا) : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
 ٩٧ ، ١١٨ ، ١٣٧
 بغداد : ٣٨
 بلبس (شرقية) : ١٢٧
 بيزنطة : ٩٧
 تركية : ٥٣ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 جرجا (مديرية) : ١٤٢
 الجزائر : ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٢
 جزيرة العرب : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٣٩ ، ١٤٠
 دار ابن لقمان : ١١٣
 دمشق : ٣٨
 دمياط : ١٠٨ ، ١٣٧
 رشيد : ٩٥
 روسية (= الروسية) : ٤٦ ، ٩٧
 رومية : ١٣٢
 السودان : ٩٨
 سورية : ٩٣ ، ١٠٧
 الشام : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ،
 ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ١٠١ ، ١١٢
 ١٢١ ، ١٢٣
 شمال رقريقية : ٣٧

القسطنطينية : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١١١

١١٢

الصعيد : ١٠٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤

الصناديق : ٩٩

الصين : ٣٥

مصر : ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٨٨ ، ٨٩

٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨

١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤

١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨

١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٤٦ ، ١٤٧

المغرب : ٣٨ ، ٥٢ ، ٩٨

المنصورة : ١١٣

المنوفية : ١٢٠

عكا : ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

غرناطة : ٨٠

فرنسا : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣

٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١

١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩

١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥

١٤٨

القسطاط : ٨٩ ، ٩٦

الهند : ٣٥ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٨٧ ، ٨٨

٨٩ ، ٩٠ ، ١١٨

هولندا : ٩٧

القاهرة : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١١

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣١

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧

١٤٢ ، ١٤٣

الوجه البحري : ١٠٤ ، ١٣٤

اليمن : ٨٢ ، ١١٧

- ٥ - فاتحة الرسالة / ٦ - مدخل الرسالة ، وبدء الرحلة / ٧ - الرحلة إلى المنهج / ٨ - الانتهاء إلى المنهج ،
وعبد القاهر الجرجاني وسيبويه / ١٠ - تفسير جديد لأزمة الفعل عند سيبويه / ١٤ - سبب تأليف سيبويه
كتابه / ١٥ - منهجى فى تذوق الكلام / ١٦ - منهجى فى التذوق ، وكتايبى « المتنبى » كيف استقبل /
١٧ - كتابى « المتنبى » كيف استقبل / ١٨ - لم أفارق منهجى قط فى مقالاتى وكتيبى / ١٩ - لم أفارق منهجى فى
« القوس العذراء » (وهى شعر) / ٢٠ - تذوق شعر الشماخ / ٢١ - كلام فى « المنهج » و « ما قبل المنهج » ،
ما هو ؟ / ٢٢ - « ما قبل المنهج » ، المادة ، والتطبيق / ٢٣ - كيف نشأ الخلاف بينى وبين المناهج الأدبية السائدة /
٢٤ - أصول « المنهج » من عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم / ٢٥ - أصول « ما قبل المنهج » ، وبيان ذلك /
٢٧ - أصول « ما قبل المنهج » ، اللغة وأسراها / ٢٨ - أصول « ما قبل المنهج » ، الثقافة وأسراها ، « البراءة » من
« الأهواء » / ٢٩ - العواصم التى تحمى « ما قبل المنهج » / ٣٠ - العواصم التى تأتى من قبل « الثقافة » /
٣١ - رأس كل ثقافة هو « الدين » ، الأصل الأخلاقى / ٣٢ - « الأصل الأخلاقى » الفريد بالكمال فى ثقافتنا /
٣٤ - تاريخ نشأة الخلاف بينى وبين المناهج / ٣٥ - التفسير الصحيح لقضية « الحروب الصليبية » / ٣٦ - إخفاق
« الحروب الصليبية » ، ثم فتح القسطنطينية / ٣٧ - تأريخ « المسيحية الشمالية » فى المازق (أوربة) وتفسيره /
٣٨ - إخفاق « الحروب الصليبية » وعودتها إلى ديارها (أوربة) / ٣٩ - بحث « المسيحية الشمالية » عن مخرج ،
ظهور « بيكن » وطبقته / ٤٠ - ظهور « توما الإكوينى » وطبقته ، واستمدادهم من المسلمين / ٤١ - فاجعة فتح
القسطنطينية وأثرها فى أوربة / ٤٢ - فتح القسطنطينية لم يكن شرًا على أوربة / ٤٣ - الإصلاح الدينى فى أوربة ،
« لوثر » و « كلفن » ، واستمدادهم من المسلمين / ٤٤ - مراحل الصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام /
٤٥ - المرحلة الرابعة هى التى أدت إلى « عصر النهضة » / ٤٦ - إعداد أوربة نفسها لحرب صليبية رابعة /
٤٧ - مدد « عصر النهضة » كله مأخوذ من دار الإسلام / ٤٨ - بدء ظهور طبقة « المستشرقين » وأهدافهم
ووسائلهم / ٤٩ - وصف حقيقة طبقة « المستشرقين » وعملهم للتبشير والاستعمار / ٥٠ - أهداف المسيحية
الشمالية وحقيقتها / ٥١ - أهداف المسيحية الشمالية ووسائلها / ٥٢ - انفك حصار المسيحية الشمالية باكتشاف
أمريكا ، وكيف كان ذلك / ٥٣ - إبادة الهنود الحمر هو خلق الحضارة الأوربية ، « الاستشراق » / ٥٤ - عمل
« الاستشراق » و « المستشرقين » ونهض ثرائنا / ٥٥ - حقيقة « الاستشراق » ، وظهور دهاقينه الكبار /
٥٦ - « المستشرق » حامل هموم المسيحية الشمالية وممثل أهدافها / ٥٧ - لأى هدف كتب « المستشرقون »
ما كتبوا ؟ وصف « المستشرق » / ٥٨ - ما كتبه « المستشرقون » موجه إلى المثقف الأوربى لا غير / ٥٩ - الصورة
التي صوروا بها العالم الإسلامى للمثقف الأوربى / ٦٠ - عمل « الاستشراق » موجه للمثقف الأوربى لحمايته /
٦١ - « الاستشراق » يطلب إقناع المثقف الأوربى لحمايته / ٦٢ - كتب « المستشرقين » لا توصف بأنها علمية /
٦٣ - أسباب نفى صفة « العلمية » عن كتب « المستشرقين » / ٦٥ - « المستشرق » عارى من شروط « المنهج »
و « ما قبل المنهج » / ٦٦ - نشأة « المستشرق » تمنعه من الدخول تحت شروط « المنهج » الثلاثة / ٦٧ - شروط
« المنهج » : « اللغة » و « الثقافة » و « البراءة من الأهواء » / ٧٠ - تنمة القول فى خلق « المستشرق » من شروط
« المنهج » / ٧١ - سر « الثقافة » المثلّم ، ولم ؟ / ٧٢ - طوران فى الطريق إلى « الثقافة » : الدين واللغة /
٧٤ - « الدين واللغة » غير قابلين للفصل / ٧٥ - ثقافة عالمية كلمة باطلة ، ولم ؟ / ٧٦ - لغة « المستشرق »

و « ثقافته » نخرجه من شروط « المنهج » / ٧٧ - دوافع « المستشرق » في الكتابة حقاً له / ٧٨ - ختام قضية الاستشراق » / ٧٩ - قصة ملؤها المضحكات والمبكمات / ٨٠ - كيف كان الأمر في القرن الحادى عشر الهجرى / ٨١ - « النهضة » ورجالها في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرين / ٨٣ - الجبرتي الكبير والإفرنج (المستشرقون) / ٨٤ - الفرق بينا وبين أوربة في ذلك الوقت / ٨٥ - « الاستشراق » وتحوُّفه من نهضتنا يومئذ / ٨٦ - « الاستشراق » ونذيرُه للمسيحية الشمالية / ٨٧ - « الاستشراق » وعمله للاستعمار / ٨٨ - صراع بريطانيا وفرنسا في دار الإسلام في الهند / ٨٩ - وقَّع نذير « الاستشراق » في فرنسا ، نابليون / ٩٠ - « نابليون » السفاح مذمَّر القاهرة / ٩١ - قصة مُقحَّمة / ٩٣ - حقيقة « الحملة الفرنسية » في مصر / ٩٥ - « مينو » الخبيث ، وجلاء الفرنسيين عن مصر / ٩٦ - تدمير القاهرة على يد نابليون وحملته / ٩٧ - الحملة الفرنسية ومستشرقوها وسرقة نفائس الكتب / ٩٩ - سرقة الكتب لوأد اليقظة ، وسفع دماء رجالها / ١٠٠ - سفع الدماء لوأد اليقظة / ١٠١ - جهاز « الاستشراق » وعمله في دار الإسلام / ١٠٢ - « الاستشراق » وفكرة نابليون في خديعة « الديوان » / ١٠٤ - « الاستشراق » كامنٌ في أحشاء جزَّار القاهرة نابليون / ١٠٥ - سياسة جزَّار القاهرة في « إنشاء الديوان » / ١٠٦ - إخفاق نابليون ومستشرقوه في ترويض الجماهير المصرية / ١٠٧ - خيبة أمل الجزَّار في « تدجين » المشايخ / ١٠٨ - رسالة نابليون إلى خليفته كبير وخطَّرها / ١٠٩ - نص الرسالة وكيف عَيَّب بها الرافعى ، فضيحة !! / ١١٢ - « المستشرقون » وأهدافهم ووسائلهم ، وزحفهم البطيء / ١١٣ - « لينتير » الفيلسوف الألماني يحرِّض فرنسا على غزو مصر / ١١٤ - تقارير الساسة الفرنسيين الداعية لغزو مصر / ١١٦ - تواريخ التقارير مطابقة لتاريخ « اليقظة » في مصر / ١١٩ - إرهاب نابليون ومقاصده في رسالته إلى « كبير » / ١٢٠ - مقاصد « نابليون » وإرهابه وجذور قضيتنا مع الغرب / ١٢١ - عمل « الاستشراق » ، والزحف الشامل على دار الإسلام / ١٢٢ - جاليات المسيحية الشمالية في قلب دار الإسلام / ١٢٣ - تعبئة « الاستشراق » اليهود والأرمن والأروام والمالطيين / ١٢٤ - « المستشرقون » وإقامتهم الطويلة في دار الإسلام في كل زى / ١٢٥ - عمل « الاستشراق » في إقامته الطويلة بدار الإسلام في مصر / ١٢٦ - بدء سقوط هيبة المشايخ عند الممالك المصرية / ١٢٧ - الثورة على الممالك ، والمشايخ الذين كانوا على رأسها / ١٢٩ - ثورة المشايخ على الممالك جزءٌ من « اليقظة » / ١٣٠ - المشايخ الثوار ، كيف استجابوا لدعوة نابليون لإنشاء « الديوان » / ١٣١ - ما كان « الاستشراق » يوحى به إلى المشايخ عند دُنُو الحملة الفرنسية / ١٣٢ - ما كان « المستشرقون » يفعلونه مع الممالك ، ومع الكنيسة القبطية / ١٣٣ - حقد « الاستشراق » على الكنيسة القبطية لَمَّا لم تستجب لإغرائهم / ١٣٤ - سر استجابة المشايخ لنابليون وديوانه / ١٣٥ - إنسانا المشايخ ولاية مصر لمحمد على / ١٣٦ - صفة أخلاق محمد على ، ومراقبة « الاستشراق » له / ١٣٧ - غَدَّر محمد على بالذى ولَّاه مصر ، السيد عمر مكرم / ١٣٨ - إحاطة « القناصل » بمحمد على ، وتحريضه على غزو جزيرة العرب / ١٣٩ - قصة فكرة البعثات إلى أوربة / ١٤٠ - « جومار » وتطويرة مشروع نابليون إلى بعثات طلبية / ١٤٢ - رفاعة الطهطاوى وغيره ، وما فعل به « المستشرقون » / ١٤٥ - حقيقة « مدرسة الألسن » التى أنشأها رفاعة الطهطاوى ، وخطَّرها / ١٤٦ - خاتمة الرسالة ، وتمتة القول في خطر « مدرسة الألسن » / ١٤٧ - الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وجعل التعليم كله في قبضة المبشر « دنلوب » / ١٤٨ - « تفريغ » طلبة المدارس من ماضيهم ، وبُعْث الانتاء إلى « الفرعونية » البائدة / ١٤٩ - ختامُ الرسالة ؛ والحمد لله وحده .

١٥١ - ذيل الرسالة ، قصة « التفريغ النقائى » ..

١٦٩ - الفهارس العامة .

١٨١ - فهرس رسالة في الطريق إلى ثقافتنا .

...

مقدمة هذه الطبعة
وفيهما ذكر نصّ جديدٍ مُهمٍّ جدًّا

• كان من قصة كتابي «المتنبى» أنى كتبته سنة ١٩٣٦ م، وافترضت فيه فرضاً يُعيننى على تفسير بعض ما فى شعره ، وعلى تفسير ما فى أخبار حياته وصيالاته بأهل عصره ، وكان هذا الفرض الذى افترضته أنه علوى النسب ، كان مجرد فرض جرىء . وكان ما كان من رضى واستنكار ، وبعد اثنتين وعشرين سنة (سنة ١٩٥٨ م) أطرفنى أحمد راتب النفاخ صديقى وتلميذى وأستاذى بترجمة كتبها ابن عساكر ، منقولة عن تاريخه ، وفيها أن المتنبى أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله . فهو إذن أخو العلويين من الرضاغة ، وبعد أربع سنوات أيضاً سنة ١٩٦٢ م ، تلقيت من أخى أحمد ترجمة للمتنبى كتبها ابن العديم فى كتابه « بغية الطلب » ، فكان فيها أيضاً ما فى ترجمة ابن عساكر أنه أرضعته امرأة علوية ، وكان فيها فوائد كثيرة عن المتنبى لم نعرفها من قبل ، (انظر كتاب المتنبى : ٥٤ - ٥٦) ، كان هذا كله مفاجأة .

• ثم كانت مفاجأة أخرى جاءتني فى سنة ١٩٨٤ م ، فإن صديقى وولدى الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين أهدانى نسخة مصورة من ديوان المتنبى ، بشرح الواحدى (أبو الحسن على بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٨ هـ) ، وهى نسخة عتيقة نفيسة كتبت فى سنة ٥٩٣ هـ فوجدت فى الورقات الأخيرة منها ترجمة للمتنبى كتبها على بن عيسى الربيعى النحوى ، (انظر باب التراجم ص : ٥٨٥) ، فكانت أيضاً مفاجأة أخرى ، فإذا الذى كان خبراً يذكره المترجمون ، صار حديثاً يحدث به المتنبى عن نفسه بلسانه ، رجلاً هو الربيعى الذى كان آخر من لقي المتنبى وودّعه وهو بشيراز ، ولقى المتنبى بعد ذلك بأيام قليلة مصرعه مقتولاً ، كما تعرف ذلك فى ترجمته .

يقول على بن عيسى الربيعى :

« وقال لي : مولدي بالكوفة ، وَرَضَعْتُ يَلْيَانَ عَلَوِيَّةً مِنْ آلِ عبيد الله بن يحيى » ،

(انظر التراجم ص : ٥٨٩ ، وانظر التعليق عليه) .

وكانت في هذه الترجمة غرائب ، منها خبرُ ابن عمِّ للمتنبي بالكوفة ، رآه الربيعي ، وذكر له نسبه ، وأنه لا يعرف باقي نسبه ، لأنه منقطع ، وليس في شيء من الكتب ، وهو مهمٌ جداً ، (ص : ٥٩٠) = وخبرٌ مهمٌ جداً في الدخلة الأولى التي دخلها المتنبي ببغداد مدينة السلام خارجاً إلى فارس ، وله علاقةٌ وثيقةٌ جداً بحال المتنبي مع العلويين (ص : ٥٩٠ ، والتعليق عليه) = وذكر راويةً للمتنبي ، لم نجد له ذكراً في تراجمه (ص : ٥٩٢) = وذكر عامل رَامُهُرْمَزَ من قبل معز الدولة ، وخدم أبا الطيب وقت اجتيازه بها خارجاً إلى ابن العميد (ص : ٥٩٥) = وخبرٌ رجل رأى أبا الطيب ينشد شعره بعض أهل سوق البز (ص : ٦٠١) = وخبرٌ عن المتنبي في دخلته الثانية إلى بغداد ، في دار أُنَى الحسن العروضي ، ودخل عليه هرون بن المنجّم وأنشده بيتاً ، فأطرق أبو الطيب وألقى به بيتاً آخر قاله ، فأعجب الناس بسرعة خاطره (ص : ٦٠٢) = وأخبارٌ عن المتنبي في شأن كتمان نسبه ، ليست في شيء من الكتب ، (ص : ٦٠٢ ، ٦٠٣) = وخبرٌ في قراءة الربيعي على المتنبي شعره ببغداد وشيراز ، وهو مُهمٌ ، (ص : ٦٠٣) = أمّا الزيادات على شعر المتنبي في ديوانه ، وليست في زيادات شعر المتنبي للراجكوتي ، فهي في هذه الصفحات : ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، وعدّها ثلاثة عشر بيتاً ، لم أر منها شيئاً في الكتب التي بين يدي .

والحمد لله أولاً وآخراً .

...

نص الكلمة التي أُلقيت عند
تسلّم جائزة الملك فيصل العالمية
عن « كتاب المتنبي »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، المُسَبِّحُ نَعْمَهُ عَلَى خَلْقِهِ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ،
لَا تَحِيطُ بِشُكْرِهَا أَلْسِنَةُ الشَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرِينَ وَالْمُسَبِّحِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَى
مِنْ عِبَادِهِ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ رَسُولاً إِلَى الْعَالَمِينَ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ
يَكُونُ ذِكْرًا لَهُ وَلِقَوْمِهِ ذَهَرُ الدَّاهِرِينَ . الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى أَبِيهِ الرُّسُولِينَ الْكَرِيمِينَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَعَلَى الْمُبَلِّغِينَ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ .

...

لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْمِلَ هَذَا اللِّسَانَ الْعَاجِزَ عَيْبًا لَمْ يَتَحَمَّلْ مِثْلَهُ
قَطُّ ، إِذْ أَقِفُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي بَيْنَ مِثْلِ هَذَا الْخُفْلِ الْمَخْفُوفِ بِهَيْبَةِ الْمُلْكِ ، وَجَلَالِ
الْعِلْمِ ، وَأُبْهَةِ الْفَضْلِ ، ثُمَّ أَطَالِبُهُ أَنْ يَبَيِّنَ عَمَّا يَجِيشُ فِي صَدْرِي مِنْ مَعَانٍ ، وَأَنَا فِي
خِلَالِ ذَلِكَ نَهَبٌ مَقْسَمٌ لَخَوَالِجٍ مُتَنَاقِضَةٍ ، تَكْبِخُنِي رَهْبَةٌ تُورِثُ الْخَوْفَ وَالتَّوَجُّسَ
وَالْإِشْفَاقَ ، وَتَسْتَحْثِنِي نَشْوَةٌ تُثِيرُ الشَّجَاعَةَ وَالْجُرْأَةَ وَالْإِقْدَامَ . وَأَيُّ إِقْدَامٍ أَغْرُبُ مِنْ
إِقْدَامِي عَلَى الْمُثُولِ بَيْنَكُمْ ! وَأَيُّ جُرْأَةٍ أَعْجُبُ مِنْ جَسَارَتِي عَلَى مَخَاطَبَتِكُمْ ! وَأَيُّ
شَجَاعَةٍ أَعْظُمُ مِنْ اقْتِحَامِي إِلَيْكُمْ سُدُودَ الرَّهْبَةِ وَالتَّوَجُّسِ وَالْخَوْفِ وَالْإِشْفَاقِ ، حَتَّى
وَقَفْتُ مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ بَاسِطًا لِسَانِي بِالشُّكْرِ ، مُجَاهِرًا بِمَا يُوْجِبُهُ عَلَيَّ عِرْفَانُ الْجَمِيلِ
وَحَسَنِ الصَّنِيعِ .

وَمَعَ مَا يُخَاَمِرُ نَفْسِي مِنَ الرَّهْبَةِ ، وَقَلْبِي مِنَ الْخَوْفِ ، وَلِسَانِي مِنَ الْعَجْزِ ، تَجْتَاحُنِي
سَعَادَةُ غَامِرَةٍ وَنَشْوَةٌ بَهِيجَةٌ ، بِأَنْ أَتَاحَ اللَّهُ لِي فُرْصَةً عَزِيزَةً نَادِرَةً ، أَهْتَبِلْتُهَا خُلُوسَةً مِنْ دَهْرِ
شَحِيحِ ضَنْبَيْنِ ، لَكِي أَعْبُرَ بِلِسَانِي طَلِيقَ عَنْ فَرَحَةٍ قَدِيمَةٍ لَمْ تَزَلْ مَكْتُومَةً فِي سِرِّ

قلبي ، منذ سمعتُ بخبر إنشاء « جائزة الملك فيصل العالمية » ، في سنة تسع وتسعين وثلاثمئة بعد الألف ، وقد أوشك القرن الرابع عشر للهجرة أن ينصرم . فيومئذ تمثّلت لي الأيام المقبلة من القرن الخامس عشر الذي نحن اليوم في درج مطالعه . رأيتُ يومئذ فيما رأيتُ عالماً عربياً إسلامياً قد انتفض ، وهبَّ يمسحُ عن وجهه غفوةً طويلةً ، وأفاق من سِنَةٍ كانت قد أخذته وربّضت به . ثم رأيتُ عالماً يمجُّ بالشواخ من علمائه وأدبائه وشعرائه ومفكره وكلّ السّاكينيّ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، فإذا أظلمهم ميعادُ « جائزة فيصل العالمية » ، لم يبق على الأرض منهم شابٌ يافع ، ولا فتى ناضج ، ولا كهلٌ سوى ، ولا كبيرٌ مُتقادم الميلاد ، ولا شيخٌ فإن برى الدهر عظامه ، إلا وذكرُ هذه الجائزة جارٍ على لسانه مع التسييح ، ماثلاً لعينيه كعمود الفجر ، مقروناً بصورة فيصل الذي استطاع في العاشر من رمضان أن ينزع القناع عن عالمٍ آخر كان يأخذ منّا « القوة » ، ليزداد بها قوةً على قوّته ، واستعلاءً على استعلائه ، وغطرسة على غطرسته ، ويعطينا لقاءً ذلك ما نتحاسد عليه ، وما يبدّد البقية من قوتنا ، ويجعل بعضنا يغنى على بعض . فلما سقط القناعُ يومئذ ، تجلّت كلّمج البرقِ فضيحةُ ذاك العالم ، وتعرّت حقيقته ، وبان لكلّ ذى عينين أنه كان يخدعنا بنفاقه ليسترقّ منّا القوة التي هي ملكٌ لنا ، وحقٌّ لا ينازعنا فيه منازعٌ ، ثم يُزيّف لنا بغطرسته كلّ حقيقة ، ويتهرّ أعيننا بدهائه ومُحالِه ومخاتلته ، لكي نَعْمَى عن بشاعة مكرِه بنا ، وقُبْح استعلائه علينا .

ورأيتُ أيضاً ، فيما ، أهل القرن الخامس عشر ، إذا ذكروا القرن الرابع عشر ، يعدّون فيصلاً رجُل هذه الأمة وسَهْمَهَا حين طاشت السّهَام ، وركناً من أركانها الشداد وقد وهت الأركان ، فإذا ذكروا الجائزة المقرونة باسمه ، أثارت في كلّ نفس وقلب ما تراه عياناً في الوجوه وفي الأعين ، من بشاشة الانتماء الحميم إلى عالم عربيّ إسلاميّ متراحبٍ قوّار ، لا إلى عالمٍ آخر لا يجمعنا وإياه إنتماء ولا وشيجةٌ ، وسمعتهم يومئذ يقولون : ذاك عالمهم هم ، لا عالمنا نحن ما أجّل ما رأيتُهُ يومئذ من عالم وما أروعها من حياة . وإذا أراد الله شيئاً ، فكلُّ بعيد قريب .

أما الآن ، ونحن في أول معارج القرن الخامس عشر ، فإنه ليحزُنُنِي ويكْدُرُ عَلَيَّ سعادتي ونشوتي ، أن لم يُقَدَّرْ لي أن أجد لما تمثَّلْتُهُ في خاطري تحقيقاً يَشْفِي غَلَّتِي ، وما هِيَ إِلَّا حَسَوَة خاطفة كَحَسَنِ الطائر ، بيد أني أومن بأن ما هو كائن سيكون ، بإذن الله وتوفيقه ونُصْرَتِهِ لعباده الصادقين إذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه بالسنتهم وقلوبهم ، ثم لم تفرِّقْهم الأهواء والفتن ، وإلاَّ فهو الخِذلان الكبير ، نعوذ بالله رب العالمين من خذلانه ، ونستدفع به وبرحمته كُلَّ بلاء .

هذه رؤية رأيْتُها يومئذٍ لعالمٍ مستكين وراء حُجُب الغيب ، أوجزتها لكم في كلمات . ولم يبقَ عندي شيء يمكن أن أقوله لكم ، سوى أني أجدُ حابساً يحبسُنِي عن مفارقة هذا المقام الكريم بينكم . وحاسي في مكاني قصةً محيرة لا أملك إلا أن أقصَّها عليكم . وذلك أني تلقيت من الأمانة العامة للجائز تهنئةً يجازي إياها هذا العام ، عن كتابي « المتنبى » والذي نشرته سنة ١٩٧٦ ، ولا كتاب لي عن « المتنبى » سواه . فلما كان بعد حين ، وقرأت نصَّ قرار الأمانة العامة ، أذهلني العجب . فقد تبين لي كُلُّ التبين أن الجائزة ممنوحة لكتاب آخر غيري ، كان من تصارييف الأقدار أن اسمه يواطىء اسمي ، واسم كتابه يواطىء اسم كتابي ، وقد نشر هو كتابه هذا في سنة ١٩٣٦ ، أي منذ ثمان وأربعين سنة . ومبلغ علمي أن هذا الكاتب القديم قد غاب هو وكتابه معاً منذ سنة ١٩٣٧ غيبةً منقطعةً مستمرةً إلى يوم الناس هذا . فإذا كان قرار الأمانة يشهد لِسَمِيِّ الغائب بأنه مستحقُّ الجائزة ، فإن تهنتها لي بالجائزة ، ودعوتها إليَّ إلى الرياض ، ووقوفي الآن بين أيديكم ، تشهد لي جميعاً أكبر شهادة بأنني مستحقُّ لها ، ولكن أخوف ما أخافه ، أن يؤوب الكاتب القديم من غيبيته ، ويخرج على الأمانة العامة من سِرْدابِه متابطاً كتابه ، يطالبها بحقه في الجائزة . وهذا أمرٌ مخوفٌ على كُلِّ حال ، ولكن ليست هذه قضيتي ، إنما هي قضية الأمانة العامة تقضي فيها بما تشاء . أما أنا فمهبَّات أن يطالبني أحدٌ بشيءٍ استحقته بما كان من تهنتي ودعوتي لتسلم جائزة هذا العام علانيةً . وأكبر من ذلك ، فمعي قرارٌ يُلغِي كُلَّ قرارٍ ، هو تقديمي كتابي « المتنبى »

إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز ، فتقبَّله بأكبر الفضلِ عليّ وعلى كتابي الذي
لا كتاب لي عن « المتنبى » سواه . وهذا حسبي وحسبُ كتابي من شرفِ باذخ .
لم يبق للسانى شيء ييوح به ويجاهر ، سوى الشكر . ومن شكر فقد أدّى حقَّ
النعمة ، وأدّى حقَّ المُنعم ، ولم يشكر الله من لا يشكُرُ الناس . والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

أبوفهم
محمّد بن محمد شاكر

فندق الخزامى ، الرياض : ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤

٢٥ من فبراير سنة ١٩٨٤

فهرس

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

- ٥ - فاتحة الرسالة / ٦ - مدخل الرسالة ، وبدء الرحلة / ٧ - الرحلة إلى المنهج / ٨ - الاهداء إلى المنهج ، وعيد القاهرة الجرجاني وسيبويه / ١٠ - تفسير جديد لأزمة الفعل عند سيبويه / ١٤ - سبب تأليف سيبويه كتابه / ١٥ - منهجى فى تذوق الكلام / ١٦ - منهجى فى التذوق ، وكتايبى «المتنى» ، كيف استقبل / ١٧ - كتابى «المتنى» ، كيف استقبل / ١٨ - لم أفارق منهجى قط فى مقالاتى وكسبى / ١٩ - لم أفارق منهجى فى «القوس العذراء» (وهى شعر) / ٢٠ - تذوق شعر الشماخ / ٢١ - كلام فى «المنهج» و«ما قبل المنهج» ، ما هو ؟ / ٢٢ - «ما قبل المنهج» ، المادة ، والتطبيق / ٢٣ - كيف نشأ الخلاف بينى وبين المناهج الأدبية السائدة / ٢٤ - أصول «المنهج» من عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم / ٢٥ - أصول «ما قبل المنهج» ، وبيان ذلك / ٢٧ - أصول «ما قبل المنهج» ، اللغة وأسرارها / ٢٨ - أصول «ما قبل المنهج» ، الثقافة وأسرارها ، «البراءة» من «الأهواء» / ٢٩ - العواصم التى تحمى «ما قبل المنهج» / ٣٠ - العواصم التى تأتى من قبل «الثقافة» / ٣١ - رأس كل ثقافة هو الدين ، الأصل الأخلاقى / ٣٢ - «الأصل الأخلاقى» ، الفريد بالكمال فى ثقافتنا / ٣٤ - تاريخ نشأة الخلاف بينى وبين المناهج / ٣٥ - التفسير الصحيح لقضية «الحروب الصليبية» / ٣٦ - إخفاق «الحروب الصليبية» ، ثم فتح القسطنطينية / ٣٧ - تاريخ «المسيحية الشمالية» فى المازق (أوربة) وتفسيره / ٣٨ - إخفاق «الحروب الصليبية» وعودتها إلى ديارها (أوربة) / ٣٩ - بحث «المسيحية الشمالية» عن مخرج ، ظهور «بيكن» وطبقته / ٤٠ - ظهور «توما الإكويى» وطبقته ، واستمدادهم من المسلمين / ٤١ - فاجعة فتح القسطنطينية وأثرها فى أوربة / ٤٢ - فتح القسطنطينية لم يكن شرأ على أوربة / ٤٣ - الإصلاح الدينى فى أوربة ، «لوثر» و«كلفن» ، واستمدادهم من المسلمين / ٤٤ - مراحل الصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام / ٤٥ - المرحلة الرابعة هى التى أدت إلى «عصر النهضة» / ٤٦ - إعداد أوربة نفسها لحرب صليبية رابعة / ٤٧ - مدد «عصر النهضة» كله مأخوذ من دار الإسلام / ٤٨ - بدء ظهور طبقة «المستشرقين» وأهدافهم ووسائلهم / ٤٩ - وصف حقيقة طبقة «المستشرقين» وعملهم للتبشير والاستعمار / ٥٠ - أهداف المسيحية الشمالية وحقيقتها / ٥١ - أهداف المسيحية الشمالية ووسائلها / ٥٢ - انفك حصار المسيحية الشمالية باكتشاف أمريكا ، وكيف كان ذلك / ٥٣ - إبادة الهنود الحمر هو خلق الحضارة الأوربية ، «الاستشراق» / ٥٤ - عمل «الاستشراق» و«المستشرقين» ونهبُ ثرائنا / ٥٥ - حقيقة «الاستشراق» ، وظهور دهاقنه الكبار / ٥٦ - «المستشرق» حامل هموم المسيحية الشمالية ومثل أهدافها / ٥٧ - لأى هدف كتب «المستشرقون» ما كتبوا؟ وصفة «المستشرق» / ٥٨ - ما كتبه «المستشرقون» مؤجّه إلى المثقف الأوربى لا غير / ٥٩ - الصورة التى صوروا بها العالم الإسلامى للمثقف الأوربى / ٦٠ - عمل «الاستشراق» مؤجّه للمثقف الأوربى لحمايته / ٦١ - «الاستشراق» يطلب إقناع المثقف الأوربى لحمايته / ٦٢ - كتب «المستشرقين» لا توصف بأنها علمية / ٦٣ - أسباب نفى صفة «العلمية» عن كُتب «المستشرقين» / ٦٥ - «المستشرق» عارٍ من شروط «المنهج» و«ما قبل المنهج» / ٦٦ - نشأة «المستشرق» تمنعه من الدخول تحت شروط «المنهج» الثلاثة / ٦٧ - شروط «المنهج» : «اللغة» و«الثقافة» و«البراءة من الأهواء» / ٧٠ - تمتة القول فى حُلُو «المستشرق» من شروط

فهرس رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

- « المنهج » / ٧١ - سرُّ « الثقافة » المثلّم ، ولم / ؟ / ٧٢ - طُورَان في الطريق إلى « الثقافة » : الدين واللغة / ٧٤ - « الدين واللغة » غير قابلين للفصل / ٧٥ - « ثقافة عالية » كلمة باطلة ، ولم / ؟ / ٧٦ - لغة « المستشرق » و « ثقافته » تخرجه من شروط « المنهج » / ٧٧ - دوافع « المستشرق » في الكتابة حتّى له / ٧٨ - ختام قضية « الاستشراق » / ٧٩ - قصة ملوّها المضحكات والمبكيات / ٨٠ - كيف كان الأمر في القرن الحادى شعر الهجرى / ٨١ - « النهضة » ورجالها في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين / ٨٣ - الجبرتيّ الكبير والإفرينج (المستشرقون) / ٨٤ - الفرق بيننا وبين أوربة في ذلك الوقت / ٨٥ - « الاستشراق » وتحوّله من نهضتنا يومئذٍ / ٨٦ - « الاستشراق » ونذيره للمسيحية الشمالية / ٨٧ - « الاستشراق » وعمله للاستعمار / ٨٨ - صراع بريطانيا وفرنسا في دار الإسلام في الهند / ٨٩ - وقع نذير « الاستشراق » في فرنسا ، نابليون / ٩٠ - « نابليون » السفاح مذمّر القاهرة / ٩١ - قصة مُفحّمة / ٩٣ - حقيقة « الحملة الفرنسية » في مصر / ٩٥ - « ميتو » الحبيث ، وحلاء الفرنسيين عن مصر / ٩٦ - تدمير القاهرة على يد نابليون وحملته / ٩٧ - الحملة الفرنسية ومستشرقوها وسرقة نقائس الكتب / ٩٩ - سرقة الكتب لوأد البقطة ، وسفح دماء رجالها / ١٠٠ - سفح الدماء لوأد البقطة / ١٠١ - جهاز « الاستشراق » وعمله في دار الإسلام / ١٠٢ - « الاستشراق » وفكرة نابليون في خديعة « الديوان » / ١٠٤ - « الاستشراق » كامن في أحشاء جزّار القاهرة نابليون / ١٠٥ - سياسة جزّار القاهرة في « إنشاء الديوان » / ١٠٦ - إخفاق نابليون ومستشرقوه في ترويض الجماهير المصرية / ١٠٧ - خيبة أمل الجزّار في « تدجين » المشايخ / ١٠٨ - رسالة نابليون إلى خليفته كليبر وخطرها / ١٠٩ - نص الرسالة وكيف غيبت بها الراجعي ، فضيحة !! / ١١٢ - « المستشرقون » وأهدافهم ووسائلهم ، وزحفهم البطيء / ١١٣ - « لينتزر » الفيلسوف الألماني يخرّض فرنسا على غزو مصر / ١١٤ - تقارير الساسة الفرنسيين الداعية لغزو مصر / ١١٦ - تواريخ التقارير مطابقة لتاريخ « البقطة » في مصر / ١١٩ - إرهاب نابليون ومقاصده في رسالته إلى « كليبر » / ١٢٠ - مقاصد « نابليون » وإرهابه وجذور قضيتنا مع الغرب / ١٢١ - عمل « الاستشراق » ، والزحف الشامل على دار الإسلام / ١٢٢ - جاليات المسيحية الشمالية في قلب دار الإسلام / ١٢٣ - تعبئة « الاستشراق » اليهود والأرمن والأروام والمالطيين / ١٢٤ - « المستشرقون » وإقامتهم الطويلة في دار الإسلام في كل زى / ١٢٥ - عمل « الاستشراق » في إقامته الطويلة بدار الإسلام في مصر / ١٢٦ - بدء سقوط هبة المشايخ عند المماليك المصرية / ١٢٧ - الثورة على المماليك ، والمشايخ الذين كانوا على رأسها / ١٢٩ - ثورة المشايخ على المماليك جزء من « البقطة » / ١٣٠ - المشايخ الثوّار ، كيف استجابوا للدعوة نابليون لإنشاء « الديوان » / ١٣١ - ما كان « الاستشراق » يوحيه إلى المشايخ عند دُتو الحملة الفرنسية / ١٣٢ - ما كان « المستشرقون » يفعلونه مع المماليك ، ومع الكنيسة القبطية / ١٣٣ - حقد « الاستشراق » على الكنيسة القبطية لمّا لم تستجب لإغرائهم / ١٣٤ - سر استجابة المشايخ لنابليون وديوانه / ١٣٥ - إسناد المشايخ ولاية مصر لمحمد علي / ١٣٦ - صفة أخلاق محمد علي ، ومراقبة « الاستشراق » له / ١٣٧ - غدر محمد علي بالذى ولّاه مصر ، السيد عمر مكرم / ١٣٨ - إحاطة « القناصل » بمحمد علي ، وتحريضه على غزو جزيرة العرب / ١٣٩ - قصة فكرة البعثات إلى أوربة / ١٤٠ - « جومار » وتطويرة مشروع نابليون إلى بعثات طلبة / ١٤٢ - رفاة الطهطاوى وخبره ، وما فعل به « المستشرقون » / ١٤٥ - حقيقة « مدرسة الألسن » التى أنشأها رفاة الطهطاوى ، وخطرها / ١٤٦ - خاتمة الرسالة ، ونعمة القول في خطر « مدرسة الألسن » / ١٤٧ - الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وجعل التعليم كله في قبضة البشر « دنلوب » / ١٤٨ - « تفرغ » طلبة المدارس من ماضيهم ، ونبت الانتفاء إلى « الفرعونية » البائدة / ١٤٩ - ختام الرسالة : والحمد لله وحده .